قضايا ونظرات

تجديد الوعي بالعالم الإسلامي والتغيير الحضاري

تقرير ربع سنوي | العدد الثاني والثلاثون | يناير ٢٠٢٤

ملف العدد: أنماط حضارية في المقاومة والبناء في عالم المسلمين (٢)

- **المقاومة الحضارية والبناء الإنساني في أمتنا والعالم: طوفان الأقصى**

  د. مدحت ماهر

- **التعليم الإسلامي في سياقات متحدية: نماذج من الصين**

  أحمد عبد الرحمن خليفة

- **الدفاع عن الذات: نماذج من جهود مكافحة الإسلاموفوبيا في الغرب**

  محمد علي إسماعيل

- **الإغاثة الإنسانية في ظل الانقسام: كارثة درنة نمُوذجًا**

  خالد خميس السحاتي

- **عرض كتاب: حماس والجهاد والشرعية الشعبية: إعادة تفسير المقاومة**

  يارا عبد الجواد

مركز الحضارة للدراسات والبحوث
Civilization Center for Studies and Researches

تجديد الوعي بالعالم الإسلامي والتغيير الحضاري

قضايا ونظرات

تقرير ربع سنوي

يصدر عن مركز الحضارة للدراسات والبحوث

العدد الثاني والثلاثون ـ يناير ٢٠٢٤

إشراف

أ. د/ نادية مصطفى

مدير التحرير

د/ مدحت ماهر

سكرتير التحرير

مروة يوسف

الموقع الإلكتروني: www.hadaracenter.com

المراسلات: alhadara1997@gmail.com

محتويات العدد

رؤية معرفية ٣

د. مدحت ماهر، المقاومة الحضارية والبناء الإنساني في أمتنا والعالم: رؤية معرفية في ظلال طوفان الأقصى ٤

ملف العدد: أنماط حضارية في المقاومة والبناء في عالم المسلمين (٢) ١٠

أحمد عبد الرحمن خليفة، التعليم الإسلامي في سياقات متحدية: نماذج من الصين ١١

د. ناجية عبد المغني سعيد، معركة الأخلاق والموجات المضادة.. جمعية التسلح الخلقي نموذجًا ... ٢٢

سلمى حسب الله، المقاومةُ المعرفيَّة للعَلمانيةِ المُلحدة: حواراتُ الإسلامِ والعلم ٣٠

محمد علي إسماعيل، الدفاع عن الذات: نماذج من جهود مكافحة الإسلاموفوبيا في الغرب ٣٩

عمر سمير، الشذوذ والتحول الجنسي بين الهجوم والمقاومة: حالة المسلمين في الغرب ٤٨

مروة يوسف، الاقتصاد الديني واستثمار المفاهيم: صندوق الحج الماليزي (تابونج حجي) ٥٧

أمنية عمر، تحديات إنتاج دراما هادفة: نماذج إقليمية ٦٦

محمود عاشور مؤمن، الرعاية الدينية للمهاجرين: نموذج دار الفتوى في أستراليا ٧٧

د. خالد خميس السحاتي، الإغاثة الإنسانية في ظل الانقسام: كارثة درنة نمُوذجًا ٨٦

عروض كتب ٩٧

يارا عبد الجواد، كتاب «المقاومة والتغيير في السياسة العالمية» ٩٨

يارا عبد الجواد، كتاب «حماس والجهاد والشرعية الشعبية: إعادة تفسير المقاومة في فلسطين» ١٠٧

رؤية معرفية

المقاومة الحضارية والبناء الإنساني في أمتنا والعالم:

رؤية معرفية في ظلال طوفان الأقصى

د. مدحت ماهر*

مقدمة:

في أثناء إعداد أوراق هذا العدد من (قضايا ونظرات) تفجَّر طوفان الأقصى في فلسطين ٧ أكتوبر ٢٠٢٣ وتوالت تداعياته الإنسانية والعسكرية والسياسية، بدءًا من فلسطين، فإقليمها العربي والإسلامي، وعبر العالم؛ وتجلَّت الكرة الأرضية في صورة ساحة كبيرة مكتظة بالمشكلات والأزمات الممتدَّة، لكن في قلبها الآن يتدفَّق ويهدِر طوفانُ الأقصى بملْحمته ومأْساته. بدا هذا الطوفان ملْحمة من غير مرحمة، ومأساة حولها ملْهاة، وتجلَّى اختبارًا حادًّا للضمير الإنساني، وكشف عن حالة عالم مختلط ومتخبِّط؛ مكوَّن من نطاق مهيمن مظلم من ظلمات الظلم، ونطاق كبير رمادي من اللامبالاة والعجز، وفيه بقع مزهرة مضيئة لا سيما في فلسطين المزهرة بالدماء والمقاومة ودائرة نصرتها ومساندتها لا سيما الإنسانية الصادقة. فكيف نقرأ هذا المشهد في ضوء منظورنا الحضاري الذي يجمع بين المقاومة والبناء في نطاقات الحياة والسياسة المختلفة؟ كيف نرى هذا العالم من خلال رؤية تليق بتركيبه وتعقُّد تفاعلاته، وفي الوقت نفسه تتَّسم بالتحديد والحسم والوضوح؟ لعل ممَّا يُعين في ذلك أن نراجع "منطق السُّنن" وكيف يؤسِّس هذا المنطق للفعل والانفعال الإنسانيَّين، وللبناء والمقاومة المستديمين الدائبيْن.

من السنن إلى رؤية العالم

لا تمضي الحياة الإنسانية إلا بالسنن؛ سواء ما كان في هذه الحياة من مِنَنٍ أو ما كان فيها من محن. هكذا يُقِرُّ ويؤكِّد المنظور الحضاري الإسلامي في نظره إلى السياسة الداخلية والسياسة العالمية. والسنن هي القوانين الكبرى الحاكمة لحياة البشر الجزئية الفردية والجمعية ولحركة التاريخ الكلية بحقبه المتتالية، ونطاقها هو هذا العالم الأرضي من مبتداه إلى منتهاه. ومنطق السنن جامع بين المصلحة والأخلاق؛ فهو منطق العقل والعدل (وكلاهما يسمَّى الميزان)، ومنطق العمل والفعل، ومنطق الأخلاق والإيمان الواثق بالمستقبل الفاضل العادل، مهما مرت على الحياة مراحل من طغيان وإفساد وتخريب. ومن ثم فإن السنن تنظر للحياة البشرية نظرا كلِّيًّا من منطلق الحركة لا الجمود، ومن منطلق الدفع والتدافع بين المتقابلات والجمع والتجامع بين المتكاملات، لا من منطلق الفوضى أو العبث أو السدى أو العدمية أو التناقض المطلق. فالمنطق السنني منطق إيماني إنساني أخلاقي مصلحي إصلاحي، وهو أيضا منطق قوة لا ضعف، ومنطق فعل لا عجز.

ومن أعظم السنن التي تحكم الحركة التاريخية سنة التدافع التي تعني أن التكوينات البشرية يدفع الله بعضهم ببعض؛ وهذا من أجل صلاح العالم وإصلاحه، وأنه لولا ذلك لشاع الفساد في كل أرض: (**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**) [البقرة: ٢٥١]. ويفترض التدافع حركة تقابلية، تحديات واستجابات، جهود إصلاح يريد إجهاضَها أفعالُ فساد، سياسات عدوان تقابلها سياسات مقاومة، وأعمال بناء تواجه معاول هدم. وهكذا يمكن أن ننظر إلى السياسة العالمية من منظور هذه

---

* مدير مركز الحضارة للدراسات والبحوث.

السنة الإلهية، وننظر إلى أمتنا وقضاياها وفعالياتها المختلفة. فكل بناء ينبغي أن ينتظر الهدم، وكل هدم ينبغي أن ينتظر أهل بناء.

ويقع هذا التدافع داخل النفس البشرية الواحدة، كما يقع بين الأفراد، وبين الجماعات، وبين الأمم، ويقع بين القوى المعنوية، وبين الأفكار والآراء، وبين الأفعال والسياسات، وتقع بسببه النزاعات والصراعات والحروب بأشكالها المختلفة. وكثير من التدافعات قد تكون وهمية؛ حين يقام التعارض الذهني بين أشياء غير متعارضة في حقيقتها وواقعها، كصراعات الهويات القومية، أو التجارات عبر العالم، أو السياسات القومية، أو التقاليد والاختيارات الاجتماعية، أو الثقافات، أو التجارب الحضارية، أو الرؤى العلمية،... فهذه الأشياء اختيارات واجتهادات يتَّسع لها منطق التعدُّد والتنوُّع والاختلاف غير التناقضي، وإنما ينشأ التعارض بينها في الأذهان نتيجة منظورات فاسدة وكاسدة، أو نتيجة أغراض وإرادات مرذولة أخلاقيًّا من قبيل إرادة العلو في الأرض وإرادة الفساد أو بتعبير آخر فساد الإرادة؛ كما يفعل في كل عصر ومصر المتكبرون والمتعالون والمطالبون بما ليس من حقوقهم، والطغاة الذين لا يرعون لله حدودًا ولا للناس حقوقًا.

ولا تعني سنة التدافع أن يكون كل طرف بالضرورة هو النقيض من الآخر، أو أن يمارس من الأفعال والسياسات فقط ما يقابل فعل الآخر شكلا بينما هو يوافقه مضمونًا، فشتَّان ما بين دفع الحق للباطل، ودفع الباطل للحق. من المهم أن ننتبه إلى ذلك ونستوعبه حتى لا يكون فهمًا للسنن سطحيًّا. لذا فمن سنة التدافع الدفع بالتي هي أحسن مطلقًا (**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**) [فصلت: ٣٤]، أو دفع السيئة بالحسنة (**وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ**) [الرعد: ٢٢]، (**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ**) [المؤمنون: ٩٦]، فضلا عن مجازاة الإحسان بالإحسان (**هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ**) [الرحمن: ٦٦]. وقد تدفع السيئة بما ظاهره أنه سيئة مثلها؛ لكن مع اختلاف في الحقيقة، كأن يدفع القتل بغير حق بالقتل بحق، والضرب عدوانًا بالضرب زجْرًا وعقابًا، وغصْب المال بردِّه وبالتغريم، والأذية عدوانًا بإيذاء المعتدِي لِيَكُفَّ عن عدوانه. وهذا منطق غاية في الأهمية أن نعيَه ونستوعبَه وألا تروج علينا حيل المجرمين الذين يُبيحون لأنفسهم العدوان ويحرِّمون على ضحاياهم رد العدوان وكف أذى المعتدين.

إن من ظلمات الظلم أنه يروج لنفسه بأنه اجتهاد لا إفساد، وأنه وجهة نظر لا إرادة إجرامية، وأنه بشري لا شيطاني، وفي المقابل يروج لمقاومة عدوانه ولمجاهدة طغيانه بأنها لاتليق بأخلاق أصحابها، وأنها عنف أو إساءة، وأن الإساءة لا ترد بالإساءة، والشر لا يدفع بالشر، وأن العقاب انتقام وشر وروح شيطانية، وأن رَدَّ الشرِّ بالشرِّ سوف يملأ العالم بالصراعات الدموية أو النزاعات التي لا نهاية لها، وربما يروج لمعان طيبة في غير موضعها من الصبر على الأذى والظلم والسكوت عن العدوان الذي لا يمكن رده... إلخ. وكم خدعت البشرية بمثل هذه المواعظ الشيطانية، والتزيينات النفاقية، والأباطيل الإجرامية. إنه منطق المفسدين في الأرض، ومنه تخرج علوم المنافقين المحشودة بالأغاليط وتلبيس الأباليس.

من هذا المدخل السنني -ضمن المنظور الحضاري للسياسة الداخلية والعالمية- تتراءى للناظرين والباحثين صورة عالم اليوم أشبه بأرض واسعة تستولي أقلية من سكانها على معظمها ويضيقون بقية الأرض على بقية البشر، ثم فيها من يبنون ويرفعون البنايات ومعهم من يهدمون ما يبنيه هؤلاء، وفريق ثالث يحاول أن يعيد بناء ما يهدمه الفريق الثاني.. وهكذا، وفريق يزرع وفريق يغتصب الزرع وفريق يحرق الزرع، وغريق يختزن الغذاء والماء عنده بأكثر مما يحتاج بكثير، وفريق ثان يريق الماء في الأرض ويرمي الغذاء ليذهب من غير انتفاع، بينما حولهم من يموتون جوعًا وعطشًا، وفريق يدعو للفضيلة ويحذر من الرذيلة، وآخر يشكك في الأخلاق عامة وربما يدعي العلم والتقدم، وثالث يدعو للرذيلة ويحارب الفضيلة، وفريق يشكك في الدين ويدعو للإلحاد، وفريق لا يبالي، وفريق يدعو للدين ويعمل على تفعيله في الحياة، ويتوزَّع هؤلاء بين مجالات السياسة والاقتصاد والعلوم والفنون والإعلام والدعوة والعمل الاجتماعي والثقافي والعمل الإغاثي، وغيرها.

فما الذي يحتاجه مثل هذا العالم من أجل مستقبل إنساني أفضل؟ أليس يحتاج أولا منظورًا حضاريًّا إنساني العمق واسع الأفق،

يستوعب مساحات الهدم ومساحات البناء، وما بينهما من تدافعات وتفاعلات؟ أليس يحتاج منظورًا أخلاقيًّا مصلحيًّا يُراعي متطلبات العيش ومتطلبات العدل؟ أليس يحتاج إلى تدافع عملي كبير ومستديم؛ يواجه الفساد، ويؤازر الصلاح، ويقوم بذلك كله بميزان سُنني دقيق؟ أليس يتطلَّب تكريس وترسيخ مفهوم "المقاومة والبناء" في نظم التربية والتعليم والسياسات المختلفة عبر الأوطان والعالم؟ فلا ينهض بناء من غير مقاومة من يهدمون، ولا تكتمل مقاومة من غير بناء بديل يعمِّر مساحات الهدم التي تجري مقاومتُها.

العالم اليوم يعاني: تفكك الأسر، واضطراب نظم التربية وبرامج التعليم، وموجات مضادة للأخلاق الثابتة في الفطرة الإنسانية، ومضاربات بين العلم والدين، ودعوات فاحشة وسياسات شذوذ جنسي متفاقمة من غير حَدٍّ ولا قيد، ومحاربة للإسلام والمسلمين مخصوصة في بقاع عديدة؛ بوصف الإسلام الدين الأبرز في مواجهة الفساد والظلم العالمي الكبير. وفي المقابل تتراءى جهود لمقاومة ذلك كله في الأمة الإسلامية وعبر العالم؛ من جهود الحفاظ على الأسرة وتجديد روحها، والبحث عن مساحات تعليم وتربية فاضلة وفاعلة، والدعوة إلى التسلُّح الخلقي، والمقاومة المعرفية للعلمانية الملحدة عبر الحوارات الدءوبة، وجهود مكافحة الإسلاموفوبيا.

وفي هذا العالم تتبدَّى أيضًا مساحات غير ضئيلة من أفعال البناء وأخلاق الرعاية وسياسات العمران؛ كما في إنعاش الجوانب العبادية من خلال الاتصال بالحياة والاقتصاد واستثمار المعاني والمفاهيم، وفي توفير الرعاية الدينية للمهاجرين المسلمين عبر مؤسسات الفتوى والدعوة، والعمل على إنتاج دراما هادفة ونافعة، فضلا عن استمرار روح الإغاثة في الكوراث التي تتوالى في الأعوام القليلة الماضية؛ تلك الإغاثة المعبرة عن إنسانية الإنسان والتي تتجلَّى خطورة التخلِّي عنها في كارثة غزة الحالية.

طوفان الأقصى ومعضلة المقاومة والبناء

يأتي طوفان الأقصى، وبعد نحو ثمانين يوما من تفجُّره، لكي ينير مساحات مهمة من المقاومة الباسلة والصمود الفائق والإصرار على بناء المستقبل الحر الكريم في فلسطين، في مواجهة مساحات من الهدم والعدوان واللاأخلاقية واللاإنسانية. وقد أخذ المشهد بُعْدًا عالميًّا عبر وسائل الإعلام ووسائل التواصل، وعبر التفاعل المدني والسياسي على أصعدة وفي بقاع مختلفة من العالم. ومن المهم الوقوف أمام مشاهد هذا الطوفان الجامعة بين ذلك كله؛ والنظر فيها من منظور "المقاومة والبناء = في مقابل الهدم والعدوان"؛ لنرى أي الفريقين أحق بالانتصار الحضاري في العاقبة وفق منطق السنن؛ وكيف يتدافع الفريقان بين الإساءة والإحسان، وما يتصل بذلك من عناصر وموازين القوة المادية والمعنوية.

يمكن قراءة مشهد طوفان الأقصى وفق هذه المعادلة على النحو الآتي:

١- الاحتلال الصهيوني هو الهدم والعدوان الكبيران

إن الوسط المفجِّر للطوفان إنما هو الاحتلال الصهيوني لأرض فلسطين؛ ذلك النوع من الاحتلال الاستيطاني العنصري العدواني، الذي يحتلُّ أرض وحياة وإرادة الشعب الفلسطيني، ويمارس ضده أشكالا قبيحة من العدوان اليومي؛ من اغتصاب البيوت (كما شاهد العالم في حي الشيخ جراح) ومنحها للمستوطنين الصهاينة، وهدم بيوت، وتجريف مزارع، واعتقال الرجال والنساء والولدان، والبناء على أراضي الفلسطينيين ومنحها لهؤلاء المغتصبين الصهاينة، والتضييق على الحركة عبر عدد كبير من الحواجز المهينة، والمداهمات واقتحام البيوت والمحال والمساجد، والتعدِّي على الحُرمات. ويزيد كلَّ هذا الطين بلة الاستيلاءُ على القدس الشريف، والعملُ على تهويده والسيطرةُ على المسجد الأقصى (الذي هو حق إسلامي محض)، وتقييد وصول المسلمين إليه وصلاتهم فيه، وإتاحته لقطعان المستوطنين من اليهود المتطرفين للعيْث فيه فسادًا، والحفر تحته إعدادًا لهدْمه وإقامة هيكل اليهود المزعوم محلَّه.. والاستيلاء على الحرم الإبراهيمي بالخليل وعلى قبر يوسف عليه السلام في بلاطة البلد بنابلس،.. وغيرها.

هذه الحالة تهدم الوجود الإسلامي -والمسيحي- في فلسطين، وتعتدي عليه. وهدم الوجود والعدوان عليه، ليس كالحروب السياسية

والاقتصادية وما شابه، إنما هو شأن وجودي، يتطرَّق إلى الأرواح وأساسيَّات الحياة؛ وما يتَّصل بها من عيش وحقوق وحريات أساسية؛ وهو ما يدفع إلى مقاومة من نفس النوع؛ مقاومة وجودية بالوجود وللوجود. هذه المقاومة يمارسها الفلسطينيون بالإصرار على العيش والتمسُّك بالأرض رغم العناء والويْلات، ومن ثم يهدِّدون بوجودهم وجود الاحتلال. هذه المعادلة الصفرية ليست خيارًا بالنسبة للفلسطينيّين، إنما هي اضطرار فرضَه عدوان الاحتلال. وهذا أول ما ينبغي الإقرار به واستيعابه.

٢- الصهيونية هدم وعدوان عنصريان

ثم إن هذا الاحتلال العدواني لا يقوم على ضرورة عيش لدى اليهود الصهاينة، أو هروب من هولوكوست كما يصورون، وإن كان ساعتها يجب أن يحاسب مقيمو الهولوكوست لا أن يحاسب عليها ويقام مثله لشعب آخر لا جريرة عليه ولا حق لليهود في اغتصاب أرضه وحياته. ولكنها الصهيونية. والصهيونية عقيدة سياسية تلفيقية تستخدم عقيدة دينية (اليهودية) من أجل بناء قومية تحتل أرض فلسطين على سبيل التحديد (باسم الوعد الإلهي) لتزيح ثم تزيل منها قومية أخرى تعيش على هذه الأرض منذ آلاف السنين، وتؤمن بعقيدة مختلفة، وتستوعب سائر الأقوام والملل والنحل داخل عقيدتها وأرضها منذ ألف وخمسمائة سنة تقريبًا. وبعد أن نجحت الصهيونية في إقامة دولة إسرائيل ١٩٤٨ بفعل من القوى السياسية الغربية العظمى (بريطانيا ثم الولايات المتحدة) ثم بتواطؤ من القوى الأخرى بما فيها الاتحاد السوفييتي، أضحت هذه الدولة كيانًا صهيونيًّا بدا علمانيًّا مستغلًّا لليهودية ثم تزايد أخذه بالأفكار اليهودية المتطرِّفة، حتى أصدر قانون يهودية الدولة العنصري عام ٢٠١٨، وتصاعد تطرفه الديني والعلماني معا؛ ليصل إلى أعلى درجات الصهيونية العنصرية الرافضة للوجود الفلسطيني تمامًا، والساعية للتضييق عليه حتى يتمَّ تهجيرُه، أو إلحاقه بمواطنة من الدرجة الثانية على غرار فلسطينيِّي الداخل (في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨).

ومن ثم شهدت فلسطين ٧٥ عامًا من تصاعد العدوان والهدم الموجَّهين للوجود الفلسطيني، وواجه الفلسطينيُّون إمعانًا صهيونيًّا في العنصرية والتطرف والعنف والاستباحة شبه الكاملة. وصار المشروع الصهيوني يبني ذاته عبر هدم فلسطين والعدوان المستديم على الفلسطينيين، وذلك على مرأى ومسمع من الإقليم العربي ومن العالم الذي هيمنت الولايات المتحدة على سياساته عبر العقود الثلاثة الأخيرة.

٣- الهيمنة الأمريكية والأوروبية هدم وعدوان عالميَّان

اتَّسقت مسيرة الاحتلال الصهيوني لفلسطين أرضًا وحياة، مع مسار النظام الدولي الذي هيمن عليه الغرب من قبل وجود إسرائيل وإلى اليوم. وقد جاءت دولة إسرائيل نفسها إفرازًا للحضارة والثقافة والسياسة الإمبرياليَّة الغربية وكذلك للنظام الاقتصادي الرأسمالي الغربي، وتعبيرًا أنموذجيًّا عن أكثر سوءاته وآفاته. بدءًا من مؤامرة سايكس بيكو ١٩١٦ المكلِّلة لقرن من العدوان الأوروبي على العالم العربي والإسلامي، فوعد بلفور نوفمبر ١٩١٧ المجسِّد لقمة العدوان الأخلاقي والسياسي على فلسطين بالأخص، بدأت ملحمة من بناء إسرائيل بهدم فلسطين، وتأمين اليهود الصهاينة بالعدوان على المسلمين والمسيحيِّين؛ ما كشف مبكِّرًا عن صهيونية مسيحية وعلمانية خطيرة، تتخفَّى وراءَ سياسات الواقعية اللاأخلاقية. وقد أسَّست هذه السياسات دولة إسرائيل عبر التآمر والتواطؤ والعنف تجاه الشعب الأعزل، وتسليح عصابات الصهاينة (هاجاناه، إرجون، شتيرن، بيتار، بلماح..) من قبل بريطانيا لقتل الفلسطينيين وتهجيرهم منذ نهاية عشرينيات القرن الماضي (أحداث البراق ١٩٢٩، إجهاض الثورة الفلسطينية ١٩٣٦،..)، لتتقدَّم مسيرة العدوان والهدم عبر "المذابح" من دير ياسين، وكفر قاسم، وأبي شوشة، والطنطورة.. إلى خان يونس، وصابرا وشاتيلا، إلى أبشع مذبحة في العصر الحديث التي ترتكبها الصهيونية الآن في غزة منذ ٧ أكتوبر ٢٠٢٣.

آزرت الولايات المتحدة ودول أوروبا الكبرى السياسة العدوانية الصهيونية في حروب ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٨٢، ٢٠٠٦، ٢٠٠٨/٢٠٠٩، ٢٠١٢، ٢٠١٤، ٢٠١٨، ٢٠٢٠، ٢٠٢١، وإلى العدوان الراهن منذ ٧ أكتوبر ٢٠٢٣. وواجهت هذه السياسة العرب جملة

واحدة، لا سيما من تصدُّوا للصهيونية وتحدُّوا مشروعَها التوسُّعي الذي استولى على أراض من مصر والأردن ولبنان وسوريا في عدوان يونيو ١٩٦٧، واليوم تشتبك هذه القوى وتشترك في العدوان ومدِّ العدوِّ الصهيوني بأبْشع الأسلحة والذخائر، وبتأطير عدوانه الأبشع، بكل صلافة وإصرار على الهدم والعدوان. وقد كان ممَّا جَرَّأ قوى الغرب هذه على هذا الموقف أن تحوَّلت قوى العرب الفاعلة من التحدِّي والتصدِّي إلى مسالمة الصهيونية، فتطبيع العلاقات معها، فالتحالف؛ ومن ثم التخلِّي التدريجي عن فلسطين وقضيتها وشعبها ومقاومتها، فتداخلت مع قوى الهدم والعدوان بالخذلان.

٤- الخذلان والتطبيع العربي هدم وعدوان متصاعدان

تتكامل صورة هذا الجانب بالنظر في نوع من الهدم والعدوان الذي ظاهره السلام وحقيقته الاستسلام، وتحول مع طوفان الأقصى إلى خذلان كبير إنما هو هدم للمسيرة العربية وعدوان مبطن لا سيما مع استفحال الأزمة اللاإنسانية في قطاع غزة، وفشل الأنظمة العربية والإسلامية في فرض كسر الحصار كما قرَّروا في قمة ١١/١١ بالرياض. إن العجز العربي عن إدخال الماء والغذاء والدواء والوقود إلى أهل غزة أو إيقاف مئات المذابح التي يتعرَّضون لها عبر ثمانين يومًا كاملة، ولا يزالون، لا يمكن تفسيره تفسيرًا لحظيًّا؛ إنما هو مآل مسيرة من هدم الذات والعدوان على أصولها وثوابتها. وهذا نوع من العدوان على الذات، وأكل بعض الجسد لبعضه الآخر، بدلًا من تداعي الأعضاء إلى بعضها. من المهم إنعام النظر في الموقف العربي الرسمي من فلسطين وليس من المقاومة وحدها. إن نوعًا من التجاوب مع الصهيونية - يزيد عن مفهوم التطبيع- يتجاوز حتى الحياد العادل، والموقف الأخلاقي والإنساني، إلى موقف مواز للمنطق الصهيوني الإسرائيلي والغربي ومماش له، ينكر عمليا الحق الفلسطيني في الوجود، أو لا يبالي به.

يتكامل ذلك مع مواقف من الاستغلال والنفاق، وأخرى من إظهار اللامبالاة والعجز والخذلان أمام المأساة المتفاقمة، التي تطال بعض قطاعات من الشعوب العربية والإسلامية. وهذه حالة حضارية مزرية لا تتَّسق مع تحولات عربية وإسلامية بل عالمية أيضًا باتجاه البحث عن الحرية (الربيع العربي وثورات وتغييرات أخرى في الشرق والجنوب)، والبحث عن المساواة والعدالة العالمية، ونقد النظام الإمبريالي والرأسمالي العالمي، والبحث عن أخلاق وقيم عالمية مشتركة، والعمل على القضاء على العنصرية وأشكال العدوان على الحقوق الإنسانية.. وهكذا. فلماذا يتأخر العرب والمسلمون -وهم الأحوج والأكثر تعرُّضًا للهدم والعدوان- عن هذا الركب، وتركب نظمهم القطار المعاكس؟ ولماذا تظل القضية الفلسطينية -الأطول عمرًا- الأكثر استعصاءً على الحلِّ رغم اتساعها لكلِّ مداخل الحل: السياسي، الأخلاقي، القانوني؟ أليس هذا مما يجعل الحل العسكري -عبر المقاومة- هو الباب الوحيد المتاح؟

٥- المقاومة إزالة للهدم ودفع للعدوان

مما تقدم، يتبين أن المقاومة هي الحل، وأنها مقاومة وجودية؛ لأن الصراع عاد صراع وجود لا حدود. وقد ولد الشعب الفلسطيني المعاصر مقاومًا؛ لأن قوميَّته تجلَّت أكثر في إطار الصراع مع العدوان الصهيوني المصرِّ على هدم البنيان الفلسطيني ومحوه. وقد تدرَّجت المقاومة الفلسطينية من الارتفاق مع النظام الرسمي العربي إلى الانفصال عنه؛ ومن شعب يحمل أطفاله الحجارة أمام الدبابة الإسرائيلية الأكثر تدريعًا وثقلا في العالم، إلى شباب يطلقون الصواريخ ويوجهون مضادات الدبابات، التي صنعوها بأيديهم وتحت الحصار، ويكبدون العدو خسائر غير مسبوقة. ومن هنا فإن السابع من أكتوبر ٢٠٢٣ هو مرحلة جديدة وفارقة في مسيرة مقاومة الاحتلال الصهيوني وبناء الوجود الفلسطيني، وإن الاستهداف الفارق والتخطيط الحاذق والتنفيذ الفائق والإعداد للتسليح والذخائر وللجنود، وبناء القوة المعنوية والفكرية والمادية لبشير مرحلة جديدة من القدرة على موازنة العدوان، وهدم الهدم.

لقد أكَّدت ثمانون يومًا من المقاومة على أنه كما يقول الشاعر تميم البرغوثي إن تحرير فلسطين كلها ممكن، وإن تحريرها بدأ. نعم وسط أنهار من الدماء وجبال من الأنقاض ووديان من الخرائب، لكن هذا هو قدر المقاومة وخاصة إذا كانت مقاومة وجودية لاحتلال وجودي وراءه القاصي والداني من قوى العدوان وقوى الخذلان.

٦- الصمود مقاومة وبناء

سوف يسجل التاريخ الحديث أن شعب غزة قد كسر الكثير من قوانين وتعميمات العلوم الإنسانية والاجتماعية الحديثة، ونظريات العلوم السياسة والعلاقات الدولية السائدة، التي اعتمدت مفاهيم معينة للقوة والمصلحة والقيم، ووضعت مقاييس للقدرة والعجز، والمادي والمعنوي. إن الدراسات التي قلَّلت من دور الفرد، والجماعة والشعب، لصالح قوى الدولة والمنظمة والمؤسسة والشركة والمصنع والمال والسلاح، تقف اليوم أمام صمود أهل غزة وصبرهم وإيمانهم مشدوهة غير قادرة على التفسير وربما التفكير. لقد قام البنيان المعنوي بمقاومة العدوان المادي وهزيمته، وقام الإيمان الإسلامي بمواجهة الطغيان الصهيوني وإفشال أهدافه ومخططاته، لا بسلاح ناري ولا بدروع حديدية، إنما بالصبر والإيمان الذي ثبَّتهم في الأرض، وأفشل قانون الإرهاب والترويع الذي اعتمد عليه جيش الاحتلال.

قام الشعب الفلسطيني في غزة بتجسيد حقيقي -يفوق التمثيل السينمائي روعة وتأثيرًا- لدور البطولة في مشهد طويل للصراع بين المقاومة والبناء وبين الهدم والعدوان. لقد تجلَّى الإنسان عمرانًا والعمران إنسانًا في أهل غزة وصمودهم، بينما تجلَّى العدوان الصهيوني شيطانًا وهدمًا وتخريبًا ووحشية غير مسبوقة. ولا شك أن السنن تقضي بأن العاقبة للصابرين، وأن النصر مع الصبر، وأن الله لا يحب ولا يهدي القوم الظالمين.

٧- النصرة العربية والإسلامية والمساندة الإنسانية: مقاومة وبناء

كما انضمَّت قوى الخذلان مع العدوان، فإن قوى النصرة العربية والإسلامية (العسكرية والإغاثية) والمساندة الأخلاقية الإنسانية (المدنية والسياسية) أثقلت كفة المقاومة والصمود، في مشهد مهيب ترسمه السنن والأقدار، وننتظر مآلاته بلا ريب. لقد تحركت قوة الشعوب -رغم القيود- لتعلن -في كل مكان وبكل إمكان للإعلان- أن سياسات الاحتلال الصهيوني وممارساته هي عدوان وهدم يستوجب الرفض والمقاومة من الجميع، وأن المقاومة والصمود الفلسطينيين حق وواجب يستوجبان النصرة والتأييد. لقد تدرج الموقف الشعبي الانتمائي، والعالمي الإنساني، وتنوع، ما بين التعاطف مع مأساة الشعب الذي يذبح، وخاصة أطفاله ونساءه الأكثر عددا بين الضحايا، والإشادة بالصمود البطولي، والتأييد للحق الفلسطيني في التحرر وتقرير المصير، إلى التصدِّي المتصاعد لعدوانية الاحتلال ولاإنسانيته ولاأخلاقيته. ومن ثم تشكَّل موقف عالمي -خاصة في الغرب نفسه وفي دوله المؤيدة رسميًّا للعدوان في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية- كشف أن الشعوب لا تزال تحتفظ بثقافة إنسانية بخلاف ما أفسدته السياسة الغربية في عقائد الأنظمة وطرق تفكيرها بل وطرق شعورها بالإنسان والقيم.

وعلى الرغم من الحسابات السياسية لدى محور النصرة العسكرية الموالي لإيران في مؤازرته للمقاومة، إلا أنه لا يمكن إنكار الأبعاد الحقوقية والقيمية في موقفه، وأنه إن لم يكن يمارس بناء حقيقيًّا، فإنه في إطار العدوان الصهيوني يمثِّل مقاومةً جديرةً بالتقدير، لاسيِّما في الموقف اليمني الذي أبرزتْه الحكومة التابعة للحوثيِّين. إن مظاهر المقاطعة الاقتصادية الشعبية تظلُّ أيضًا مؤشِّرًا على كيفية المقاومة لمعاول الهدم، ولا يمكن اعتبارها هدمًا لما يُشار إليه بالاستثمارات والمعايش. إن معنى أشمل للعيش والبناء والتنمية يجب أن يحل محل المعاني الخالية من القيم ومن الموقف الأخلاقي والإنساني. فلا معنى لسياسة ولا لاقتصاد يتغاضى عن إزهاق الأرواح ظلمًا، وهدم قطاع غزة بأكمله عدوانًا وطغيانًا.

وأخيرًا: فإن المستقبل إنما هو رهين السنن، وإن تدافع المقاومة والبناء من قبل الشعب الفلسطيني للهدم والعدوان اللذين يمارسهما الاحتلال الصهيوني لآية من آيات التغيير والتجديد والإصلاح ليس في القضية الفلسطينية وحدها، ولكن في دوائر إقليمية وعالمية. وإن ذلك ليتَّصل بمساحات كثيرة من البناء والمقاومة تمارسها المجتمعات والكيانات المختلفة عبر أمتنا وعبر العالم على النحو الذي يعرِّضه هذا العدد الثاني والثلاثون من (قضايا ونظرات)، كميلًا للعدد السابق (الحادي والثلاثون) عن (أنماط حضارية من المقاومة والبناء في عالم المسلمين).

والله المستعان

ملف العدد

أنماط حضارية

في المقاومة والبناء

في عالم المسلمين

(٢)

التعليم الإسلامي في سياقات متحدية: نماذج من الصين

أحمد عبد الرحمن خليفة*

مقدمة:

الإسلام في الصين، ذلك الصندوق الأسود الكبير[١]، الذي لا نجد له مرجعًا جامعًا مانعًا يكشف ظلامه ويجلو أبعاده الغامضة، بدءًا من الحد الأدنى للمعرفة المتصل بتعداد المسلمين هناك، مرورًا بالتعرف على ديموغرافيا الانتشار الإسلامي في مناطق ومقاطعات الصين، وليس انتهاءً بالموضوعات الأكثر تعقيدًا المتعلقة بالعلاقة بين الإسلام، والعرقيات، واللغة الصينية، واللهجات أو اللغات المحلية لسكان الأقاليم التي تضم مسلمين.

في هذا الإطار، تعد المنظمات الإسلامية في الصين من بين أكثر الموضوعات غموضًا، ليس لكونها غير معروفة، ولا لكون الصين أصلًا دولة ضخمة الحجم مترامية الأطراف فيها ٥٦ جماعة عرقية، ٥٥ منها تعيش كأقليات قومية، وينحدر غالبية المسلمين من ١٠ قوميات منها، ولكن لطبيعة الحكومة الصينية الاشتراكية الإلحادية، التي تسيطر فيها الدولة على كل ما هو اجتماعي وثقافي، ولطبيعة نظرتها إلى الأديان، وبخاصة الأديان السماوية.

وفي قلب موضوع المؤسسات الإسلامية الصينية يأتي وضع التعليم والتربية الإسلامية وتعليم اللغة العربية في الصين[٢]؛ فينطلق الإطار المرجعي لهذه الأخيرة لا من أسسٍ إسلامية -كما هو مفترض بالاتصال الوثيق بين العربية والقرآن والإسلام- ولكن من أسسٍ ثقافية إقليمية مبنية على أن الاهتمام الأساسي في تعليم اللغة العربية هو فهم أسُسها، وخلفية الثقافة الحضارية العربية، والعلاقات العربية الصينية، وطبيعة الأقاليم أو الجغرافيا العربية. ويعمل خريجو اللغة العربية في أقسام الترجمة المختلفة، وفي مجال العمل الدبلوماسي، وفي مجالات التجارة في المنطقة العربية، ويقبل على هذه الأقسام والجامعات -الكثيرة في الصين- المسلمون وغيرهم[٣].

ويبدو أن هذا الفصل العملي -وفقًا للمصادر[٤]- بين اللغة والدين سياسة متعمدة في التعليم الصيني؛ فالتعليم الإسلامي تتولى الإشرافَ والسيطرةَ عليه الجمعيةُ الإسلاميةُ الصينية، التي تُنشئ فروعًا لها تمثل معاهد إسلامية لدراسة الدين بمقرراته المختلفة: القرآن وتفسيره، والحديث، والفقه، والشريعة، إلى جانب اللغة العربية، واللغة الصينية، والقواعد

---

* ماجستير العلوم السياسية، تخصص علاقات سياسية دولية، ومدير مساعد للأبحاث بمركز أركان للدراسات والأبحاث والنشر.

(١) راسل الباحث أكثر من ٢٠ شخصية ومنظمة تُعلن اهتمامها بالإسلام والمسلمين في الصين، ولكن لم يتجاوب معه سوى اثنتين فقط، وكانت بإجابات مقتضبة، لم تفِد في هذا التقرير. وعليه تتأطر حدود هذا البحث بما استعان به الباحث من مصادر أولية (إخبارية وصحفية) وثانوية تمثلت في رسائل وبحوث مُحكمة ومواقع مراكز بحثية، وكلها رُجع عليها باللغة العربية والإنجليزية. ورغم مطالعة الباحث لبعض المواقع الصينية المعنية بالإسلام (عبر خاصية الترجمة) لم يجد فيها ما يقدم جديدًا بشأن حال الإسلام والمسلمين.

(٢) يوجد حوالي ٥٠ جامعة تدرس اللغة العربية في الصين، داخل أقسام، وكليات، ومعاهد عليا، ويلتحق بها أكثر من ٦٠٠٠ طالب سنويًا، وفيها ما يقرب من ٥٠٠ عضو هيئة تدريس وهيئة معاونة.

- انظر: اللقاء العلمي: تعليم اللغة العربية في الصين مع أ.د. ماخه بين، قناة مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية على اليوتيوب، ١٨ ديسمبر ٢٠٢٢، تاريخ المشاهدة: ٢٠ نوفمبر ٢٠٢٣، الساعة ١٢:٥٠، متاح على الرابط التالي: https://bit.ly/481Y3JN.

(٣) أ/ خديجة علي، اللغة العربية في الصين، المجلس (٧٥)، قناة مجالس الفصحى على اليوتيوب، ٩ يناير ٢٠٢٣، تاريخ المشاهدة: ٢١ نوفمبر ٢٠٢٣، الساعة ١٢:٥٠، متاح على الرابط التالي: https://bit.ly/47UpFkg.

(٤) يوسف سراج مافودة، تعليم اللغة العربية في الصين: ماضيه وحاضره، مجلة الاستعراب الآسيوي، المجلد الأول، العدد الثاني، ٢٠١٨، ص ٦٦.

والقوانين الحاكمة في الصين، وفي بعض الأحيان اللهجة المحلية للإقليم الذي يُنشأ فيه الفرع.

يحاول هذا التقرير تتبع أوضاع التعليم الإسلامي في الصين، وذلك على **ثلاثة محاور**: **المحور الأول**، يتناول -في عجالة- جديد أوضاع المسلمين في الصين من حيث: التعداد، والمساجد، ومناطق الانتشار، وغيرها من الأمور التي تُقدم تمهيدًا منطقيًا للحديث عن التعليم الإسلامي في الصين. أما **المحور الثاني**، فيشير إلى تطور التعليم الإسلامي في الصين وصولًا إلى أوضاعه المعاصرة ونماذجه. وأما **المحور الثالث** والأخير، فيطرح من خلاله التقرير بعض التحديات المتصلة بهذا النمط من التعليم، مركزًا على السياسات الحكومية الجديدة التي جرى اتباعها إزاء الدين الإسلامي، والمعروفة اختصارًا "بتصيين الإسلام Sinicization of Islam".

أولًا- الإسلام والمسلمون في الصين: إشكالية التعداد ودور العبادة

لا يوجد إحصاء دقيق بشأن تعداد المسلمين في الصين في الوقت الراهن، وتشير معظم التقديرات إلى أنهم ما بين ٢٠ إلى ٣٠ مليونًا. يرجع هذا التفاوت إلى عدة عوامل، على رأسها: غياب إحصاء دقيق على أساس الدين لكل الفئات العمرية في الصين، وثانيًا انطلاق التقديرات من فرضية أن غالبية المسلمين في الصين هم حصرًا من أقليات الإيجور والهوي والطاجيك والأوزبك وليس من بينهم أي مسلمين من عرقية الهان صاحبة الأغلبية في الصين، وثالثًا حظر الصين ممارسة أي شعائر إسلامية دينية لمن هم دون سن الثامنة عشر، ورابعًا أن عددًا من المسلمين لا يعرِّفون أنفسهم كمسلمين (لا يفصحون عن إسلامهم) إما لأنهم فقدوا بصورةٍ أو بأخرى هويتهم الإسلامية أو لأنهم جرى إعادة تعليمهم[١].

دفعت هذه العوامل مركز بيو إلى القول: إن تقدير عدد المسلمين "البالغين" في الصين بالكاد يصل إلى ١٨ مليونًا، استنادًا إلى آخر إحصاء حكومي في ٢٠٢٠، وإلى متابعات معينة لأوضاع المسلمين في الصين، ويُحدد المركز أن أغلب المسلمين يتركزون شمال غربي الصين، وفقًا للتوزيع المبين في الجدول (١)

جدول (١): توزيع المسلمين في الصين[٢]

المنطقة	نسبة المسلمين من إجمالي مسلمي الصين	الأغلبية العرقية
شانجيانج Xinjiang	٥٦٪	يعيش فيها ٩٩٪ من شعب الإيجور، ويدين أكثر من ٦٠٪ منهم بالإسلام، ويمثل إجمالي تعداد الإيجور ما يقرب من ٤٣٪ من مسلمي الصين. و١٠٪ من أقلية الهوي ذات الغالبية المسلمة.
شنغهاي Qinghai	٧٪	معظم هذه الأقليات من عرقية الهوي ذات الأصول العربية في الصين، والتي تشكل ما يقرب من ٣٥٪ من مسلمي الصين. وتمثل باقي الأقليات من الطاجيك، والأوزبك، والتتار
نينغشيا Ningxia	١٠٪	
قانسو Gansu	٨٪	
خنان Henan	٦٪	
يونان Yunan	٧٪	

(1) James D. Frankel, Islam in China by, Kowloon Masjid Dawah Committee Channel on YouTube, 20 November 2023, Watched on: 21 November 2023, Available at: https://rb.gy/9lvilf.

(٢) المصدر: Measuring Religion in China, (Washington: Pew Research Center, 30 August 2023), p. 89.

		بالكاد ١٠٪ من إجمالي عدد المسلمين في الدولة.
مدن أخرى	٦٪	تشير التقديرات إلى وجود ٧٠٠ ألف مسلم - على الأقل - من عرقية الهان ذات الأغلبية العددية في الصين، ويعيش عدد كبير منهم في العاصمة بكين. فضلًا عن ذلك، يوجد ما يقرب من ٣٠٠ ألف مسلم في هونج كونج.

وإذا كان لا يوجد عدد دقيق للمسلمين في الصين، فإن الأمر نفسه ينطبق على عدد المساجد وتوزيعها في الصين. إجمالًا يمكن القول إن أكثر من ثلثي مساجد الصين يوجد في شينجيانج، إذ أشار نائب الجمعية الإسلامية في الصين في مقابلة نُشرت في فبراير ٢٠٢١ إلى وجود ٣٥ ألف مسجد و٥٧ ألف موظف ديني (بين إمام ومقيم شعائر وغيرهما)، منهم ٢٠ ألف مسجد و٢٩ ألف موظف ديني في شينجيانج وحدها[١].

في مدة قريبة من هذه الفترة، ظهرت دراسات تفيد أن عدد المساجد هذا تقلص بسبب تهديم عدد كبير من المساجد أو إغلاقها، أو دخول تغيرات تمس الهوية المعمارية "الإسلامية أو العربية" لهذه المساجد وحجمها. وتقدر دراسة عدد المساجد في شينجيانج بنحو ١٥ ألف مسجد، أكثر من ٣٠٪ منهم هُدم أو أُزيل، وأن نسبة مماثلة تقريبًا أصابها أضرار بصورةٍ أو بأخرى في مبنى المسجد وساحته أو أماكن الوضوء، في حين أن ٣٥٪ من المساجد فقط ظلت على حالتها؛ أي أقل من ٧٠٠٠ آلاف مسجد، كما تشير أيضًا أن أماكن إسلامية أخرى تضررت على رأسها مقابر المسلمين[٢].

كما أظهرت دراسة حديثة لمنظمة "هيومان رايتس واتش" أن الحكومة عملت على إزالة قباب ومآذن العديد من المساجد في مناطق الصين المختلفة الأخرى، تحديدًا في شنغهاي، ويونان، قانسو، ونينغشيا، وقُدِّر عدد المساجد التي أُغلقت في المنطقة الأخيرة ما بين ٤٠٠ إلى ٥٠٠ مسجدًا، كما وثقت المنظمة نماذج من هذا التغيير. تسعى الحكومة إلى تصيين تلك المساجد بجعلها متوافقة مع التراث المعماري الصيني، مشوهة بذلك أي ملمح معماري إسلامي أو عربي، كما تعتقل الحكومة كل من يعترض على هذه الأمور[٣]، وهو ما سنعود له في المحور الثالث من هذا التقرير.

وفي هذا الإطار تأتي إشارة المستعرب الصيني "لي جونغ" بأن زمن أن يرادف الحديث عن الإسلام في الصين ميمات ثلاث: مساجد، ومطاعم، ومقابر، قد ولى[٤]. فإذا كانت تلك الميمات الثلاث قد تضررت، فهذا يعني أن أوضاع المسلمين العامة، تلك التي تبدو أعقد من هذه المظاهر الإسلامية البسيطة جدًا، ستكون بالضرورة قد تضررت، وعلى رأسها التعليم الإسلامي

(1) I talked to the Uyghur vice president of China Islamic Association about Islam in China, Li Jingjing 李菁菁 Channel on YouTube, 2 February 2021, Watched on: 16 November 2023, Available at: https://bit.ly/3NdldF9.

(2) Nathan Ruser, James Leibold, Kelsey Munro, Tilla Hoja, Cultural erasure: Tracing the destruction of Uyghur and Islamic spaces in Xinjiang, Policy Brief Report No. 38/2020, The Australian Strategic Policy Institute & International Cyber Policy Centre (ICPC), 2020, p. 7.

(3) China: Mosques Shuttered, Razed, Altered in Muslim Areas, Human Rights Watch, 22 November 2023, Accessed: 23 November 2023, 11:00, Available at: https://bit.ly/3RsmTgx.

(٤) المستعرب الصيني لي جن جونغ يكشف العلاقة التاريخية بين الصين والمسلمين وسر ترميزهم بثلاث "ميمات" (١)، قناة أحمد منصور على اليوتيوب، ١٥ نوفمبر ٢٠٢١، تاريخ المشاهدة: ٢٦ نوفمبر ٢٠٢٣، الساعة ١٢:١٠، متاح على الرابط: https://bit.ly/3Gz08kA.

كما سنتعرض له في المحور التالي.

ثانيًا- التعليم الإسلامي في الصين

يمكن القول ابتداء باختصار: إن التعليم الإسلامي في الصين قديم قدم دخول الإسلام نفسه إلى الصين، ولكنه مر بمراحل تطور عديدة، بدءًا من انتشار التعليم بصورة غير رسمية وغير منظمة ولا منتظمة على يد بعض العرب الذين استقروا في الصين خلال القرنين الرابع والخامس عشر الميلادي، ثمّ أخذ في القرن السادس عشر على يد نخبة صينية تعلمت القرآن الكريم ودرسوا الإسلام بصورةٍ جيدة سمة منظمة أُطلق عليها اسم "التعليم المسجدي"، الذي استمر وانتشر داخل مساجد الصين كاملة، ورافقه نوع آخر من التعليم التقليدي المبني على مصاحبة الأستاذ أو الشيخ للتتلمذ مباشرة على يديه[١]، ثمّ أخذ هذا التعليم طابعًا أكثر مؤسسية في الفترة التي سبقت قيام جمهورية الصين الاشتراكية، فأنشت الجمعيات والمدارس الإسلامية الأهلية في مطلع القرن العشرين، واستمرت في عملها حتى أُلغيت مع الثورة الثقافية الصينية (١٩٦٦ - ١٩٧٨).

ولكن تكونت مع إعلان الجمهورية الجمعية الإسلامية الصينية عام ١٩٥٣، والتي عُهد إليها من قِبل الحكومة إدارة ومراقبة كافة أنماط النشاط الديني الإسلامي في عموم الصين، وكان تكوين الجمعية ليس فقط بمثابة نذير باقتراب نهاية التعليم الإسلامي غير الحكومي (الأهلي)، ولكن كذلك بنهاية أي نشاط إسلامي لا يخضع لرقابة الحكومة.

وخلال فترة الثورة الثقافية أُلغيت وأُغلقت كافة المؤسسات الإسلامية، بما في ذلك المساجد وكافة مظاهر التعليم الإسلامي، إلا من استطاع الإفلات بالقليل من طلابه ليعلمهم مبادئ الدين في بيته، وكان مصير من يُكشف أمره إلى الهلاك.

بدأ العمل الإسلامي في الصين يزدهر شيئًا فشيئًا بعد الثورة الثقافية، ولكن هذه المرة برعاية الجمعية الحكومية؛ فأعيد افتتاح وترميم عدد كبير من المساجد، كما استُئنف التعليم المسجدي، بل وافتُتحت مدارس أهلية إسلامية للمراحل العمرية ما بين الابتدائية حتى الثانوية[٢]. ويمكن القول إن هذا العمل استمر مع عثرات وضربات موجعة لكنها ليست قاضية، منها -مثلًا- تأسيس لجنة داخل الجمعية للإشراف على التعليم الإسلامي عام ٢٠٠٠ حتى ٢٠١٦، والذي أُعلن فيه رسميًا سياسة "تصيين الإسلام"، وكانت بوادر التضييق على الممارسات بدأت في التأكد مع وصول شي جين بينج للسلطة عام ٢٠١٣.

- **التعليم المسجدي: حضور أم تغييب؟**

أخذ التعليم المسجدي حتى التاريخ المُشار إليه سابقًا وجهين: الأول بنظام دوام كامل، والثاني بنظام الدروس المسائية أو أيام العطلات. فأما نظام الدوام الكامل، فكان يلتزم فيه الطفل أو المُلتحق بالمسجد بسنوات دراسة مُقسمة على مراحل تمهيدية (ابتدائية)، ومتوسطة، ومتقدمة، يدرس خلالها القرآن الكريم، واللغة العربية، وبعض المتون الإسلامية في الفقه، والحديث، والأصول على حسب المستوى، ويتأهل مَن يُنهي المستوى المُتقدم لأن يكون إمام مسجد أو نحوه من العمل الدعوي لخدمة الدين الإسلامي في الصين. وأما نظام الدروس المسائية، فيلتحق به الطلاب غير المتفرغين المُقيدين في المدارس الحكومية ما قبل الجامعية لتحصيل الثقافة الإسلامية والتعليم الديني، ومن يرغب بنظام دراسة أشبه بالنظام السابق في أيام العطلات والأجازات[٣].

ويُعد التعليم المسجدي المدخل لقراءة الأوضاع المعاصرة للتعليم الإسلامي في الصين؛ نظرًا لحضوره التاريخي من جانب، وعمق تأثيره في الأفراد والمسلمين بشكل عام من جانب آخر، واستهدافه مراحل عمرية مختلفة من جانب ثالث. ولكن يكمن الجدل هنا حول حقيقة استمرار هذا النمط من التعليم في

(1) Michael C Brose et al., Ethnographies of Islam in China, (Honolulu: University of Hawaii Press, 2021), p. 248.

(٢) يونس عبد الله الصيني، الإسلام في الصين: رؤية موضوعية واقعية، مجلة الإسلام في آسيا، العدد الخاص الأول، مارس ٢٠١١، ص ١٥ - ٢٥.

(٣) الباحث الصيني عبد الرحمن شنغ هوا تشانغ: جهود إحياء تراث مسلمي الصين القديم فردية ونطمح أن نكون جسرا بين حضارتين، حاوره: هاني صلاح، الجزيرة، ٢٣ مارس ٢٠٢٣، تاريخ الاطلاع: ٢ نوفمبر ٢٠٢٣، الساعة ٤:٣٠، متاح على الرابط: https://cutt.us/i9Wr8

الوقت الحاضر؛ فبينما يشير أكثر من مصدر بعبارةٍ مجملة: "أن هذا التعليم مستمر إلى وقت الراهن"[١]، فلا يتضح أين، أو كيف، أو بأي طريقة توجد هذه المدارس؟ اللهم إلا إن كان مقصدهم باستمرار التعليم المسجدي هو قيام بعض أئمة المساجد بدروس قصيرة مُحددة بأيام، ويكون جمهورها من كبار السن، وغالبًا ما تأخذ يومًا في الأسبوع لتفسير القرآن أو قراءة بعض الآيات، وهو ما يجعل طرفًا آخر ينكر -بحكم الواقع- وجود أية مصادر للتعليم الديني الأهلي (غير الخاضع للإشراف الصارم للجمعية الإسلامية) في الوقت الراهن في ظل الحملة على المسلمين والمساجد.

- **التعليم ما قبل الجامعي: هل حقًا يوجد مدارس إسلامية في الصين؟**

وأما عن المدارس الأهلية، فالأكيد أنها هي الأخرى قد أُغلقت لصالح مدارس أخرى حكومية تُوصف "بالإسلامية" اسمًا وشكلًا في المراحل الابتدائية، والإعدادية، والثانوية. انتشرت هذه المدارس - بأعداد محدودة - في المناطق التي تضم مسلمين، سواءً في شينجيانج، أو قانسو، أو شنغهاي، ثمّ افتُتحت المدرسة الإسلامية في بكين.

وتشير أغلب المصادر إلى أن هذه المدارس ما زالت موجودة، ولكن بأعداد محدودة ربما لا تتعدى العشر على طول الصين وعرضها[٢]، وهي تُدرِّس نفس المناهج التي تُدرَّس في المدارس الحكومية الصينية الأخرى التي تهتم بتعليم اللغة والثقافة الصينية، والمواد الدراسية، إلى جانب بعض المواد كاللغة العربية وثقافتها للطلاب، وأحيانًا اللهجات المحلية[٣].

ومع الحملة الراهنة ضد المسلمين الملازمة لحملات التصيين، أصبح يُضيَّق على تعليم اللهجات والثقافات المحلية خاصة للإيجور والهوي من المسلمين[٤]، كما مُحيت -على سبيل المثال- الهوية المعمارية العربية والإسلامية لبوابة مدخل المدرسة الإسلامية في بكين، إذ أُزيل من عليها الكتابة العربية باللون الأخضر التي كانت تشير إلى كلمة "حلال"[٥]، وهو ما دفع إحدى المُتخصصات بالتعليم الإسلامي في الصين إلى القول: "إن الشيء الوحيد الذي يميز المدارس الإسلامية في الصين هو تقديم الأطعمة الحلال"[٦].

واتساقًا مع ذلك، توسعت الحكومة الصينية في حث الإدارة الإقليمية لمقاطعة شينجيانج على إرسال التلاميذ الإيجور إلى مدارس داخل الصين، كما افتتحت منذ عام ٢٠٠٠ نحو ١٢ فصلًا مُخصصًا للطلبة من شينجيانج في بكين، وشنغهاي، تيانجين، وقوانتشو[٧].

ربما الاستثناء الوحيد في حال المدارس الإسلامية في الصين هو لمقاطعة هونج كونج ذات الحكم الذاتي، إذ يشير موقع "مجلس أمناء الجالية الإسلامية في هونج كونج" الذي تأسس في الأول من ديسمبر عام ١٩٧٠، وتعترف به حكومة المقاطعة على

---

(١) عبد الحكيم بن حبيب الله، تعليم اللغة العربية في جمهورية الصين الصينية واقع ومأمول، مجلة دراسات العلوم الإسلامية، العدد الثامن، ٢٠٢٣، ص ١٢٩.

(٢) مدير المعهد الإسلامي في شينجيانغ: نتمتع بالحرية المطلقة، الجريدة، ٢٤ يوليو ٢٠٢٣، تاريخ الاطلاع: ٢٣ نوفمبر ٢٠٢٣، الساعة ٥:٣٠، متاح على الرابط: https://bit.ly/480jJpN.

(٣) هاني صلاح، ماذا تعرف عن أول مدرسة لأبناء المسلمين في عهد الصين الجديدة؟، مسلمون حول العالم، ١١ يوليو ٢٠٢٣، تاريخ الاطلاع: ٢٩ أكتوبر ٢٠٢٣، الساعة ٦:٣٠، متاح على الرابط: https://bit.ly/418htKK.

(٤) خبراء أمميون: "سياسة اللغة المطبقة على أطفال الأويغور وفصلهم عن أسرهم اضطهاد قسري"، تركستان تايمز، ٢٩ سبتمبر ٢٠٢٣، تاريخ الاطلاع: ٢٢ نوفمبر ٢٠٢٣، الساعة ٨:٢٠، متاح على الرابط: https://bit.ly/46JT4ML.

(5) Ma Wenyan, China: Gate of Famous Beijing Muslim School "Sinicized", BITTER WINTER, 11 July 2023, Accessed: 20 November 2023, 3:12, Available at: https://bit.ly/3RsCQDf.

(6) Fawzia Mai Tung, China Part II, Islamic Speakers Bureau of Arizona Channel on YouTube, 2 October 2021, Watched on: 24 November 2023, 3:30, Available at: https://bit.ly/3RtKXj1.

(7) Mustafa Aksu, China's Policies of Transforming Uyghurs: Labor Transfer, Language Change, and "Re-Education" Camps, Master of Arts, (Bloomington: faculty of the University Graduate School, Indiana University, December 2020), p. 38.

أنه ممثل للمجتمع الإسلامي، إلى وجود مدارس إسلامية ضمن المساجد (المراكز الإسلامية) فيها؛ إذ جرى في ٢٠٠٤ - ٢٠٠٥ تجديد وتوسعة مسجد كولون بتكلفة ١٤ مليون دولار ليكون مركزًا إسلاميًا، ويضم مدرستين جديدتين للفتيات والفتيان، تستوعب كل منهما ما يصل إلى ٢٠٠ طالب. تُدرس هذه المدارس اللغة العربية، والقرآن الكريم، والعلوم الإسلامية، كما تعقد دورات لتعليم اللغة الإنجليزية والأردية، بالإضافة إلى دورات دعوية لغير المسلمين(١).

كما نجد أيضًا في ذات المقاطعة روضة للأطفال كمكمل إضافي لعمل المدارس، إذ من بين أهدافها الاهتمام بتنمية الطفل سواء في نطاق المدرسة أو المنزل، وذلك عن طريق التفاعل بانتظام مع أولياء الأمور لمتابعة الأطفال، مع التركيز على تطوير مهارات وقدرات التلاميذ على القراءة، والكتابة، والحساب، وهو ما يضمن القبول في المدارس الابتدائية الجيدة(٢).

وبذلك نلحظ أن نموذج التعليم الإسلامي في هونج كونج - وفقًا لهذه المعلومات - يقدم مزيجًا عصريًا للتعليم الإسلامي الذي يستند إلى تعليم اللغة العربية والقرآن الكريم، إلى جانب اللغات الأجنبية، كما يهتم بجميع المراحل السنية، والمهارات المختلفة التي يحتاجها الطفل المسلم، سواء على جوانب المعرفة، أو الإدراك، أو السلوك.

- **التعليم الإسلامي الجامعي وما في مستواه:**

إذا كان ما سبق يمثل التعليم الإسلامي ما قبل الجامعي، فإن التعليم الجامعي الإسلامي يأخذ مسارين لا ثالث لهما: **الأول**، عبر الالتحاق بالمعاهد الإسلامية الحكومية، **والثاني**، عن طريق الابتعاث لأحد الدول الإسلامية المجاورة، وتحديدًا ماليزيا وباكستان، أو إلى مصر وسوريا تاريخيًّا.

تاريخيًّا -بالأخص- قبل إنشاء الجمعية الإسلامية الصينية، كان الطلاب المتميزون بعد إتمام مراحل التعليم ما قبل الجامعي، سواء في التعليم المسجدي أو المدارس الأهلية، عادة ما يُرسَلون لإكمال دراستهم خارج الصين على نفقة المسلمين أو المدارس الإسلامية الأهلية التي تربوا فيها، أما الآن فتسيطر الجمعية المذكورة على حركة البعثات للتعليم الإسلامي على نفقة الدولة خارج الصين.

وهنا يلزم التركيز على طبيعة المعاهد الإسلامية في الصين وانتشارها، إذ تُعد معاهد للتعليم العالي في الصين، تصل مدة الدراسة فيها بين ٣ إلى ٤ سنوات حسب الإقليم الذي تعمل فيه، ويعمل خريجوها بصفة أساسية كدعاة وأئمة مساجد، كما تقدم هذه المعاهد دورات مُتخصصة للأئمة الحاليين في الصين للتحقق من مدى موافقتهم لخط سياسة الحكومة الاشتراكية وقواعد الحزب الحاكم.

أُنشئت هذه المعاهد -بصفة عامة- خلال ثمانينيات القرن العشرين بقرار من الحكومة المركزية(٣)، ثمّ جرى تجديد وتوسعة عددٍ منها خلال العقد التالي من نشأتها، وتجاوز عدد المعاهد الرئيسية (التي تُعد الآن فروعًا للجمعية الإسلامية الصينية) العشرة، تتوزع على مناطق الصين المختلفة(٤).

---

(1) Kowloon Masjid, The Incorporated Trustees of The Islamic Community Fund of Hong Kong, Accessed: 19 November 2023, 12:20, Available at: https://islamictrusthk.org/kowloon-masjid

(2) Muslim Community Kindergarten, The Incorporated Trustees of The Islamic Community Fund of Hong Kong, Accessed: 19 November 2023, 12:29, Available at: https://bit.ly/3GrX4qH.

(٣) افتُتح أول معهد إسلامي في بلانتشو (١٩٨٤)، ثمّ تأسست ثلاثة معاهد في عام (١٩٨٥) في بنينشيا، وبغنجتشو، وشنغهاي، وبعدها أُنشئ معهد بكين عام (١٩٨٦)، تلاه في عام (١٩٨٧) تأسيس معهدين في شينجيانج وكونج مينج، ومؤخرًا دخل المعهد الإسلامي في شينيانج حيز العمل عام (٢٠٠٢).

يانغ تشاو كيوان، توجهات القرآن الكريم للأقليات المسلمة: الصين نموذجا، رسالة ماجستير، (عمان: الجامعة الأردنية، ٢٠١٧)، ص ١٧١.

(٤) للمزيد بشأن المعاهد، ومناهجها، وتاريخها، راجع:

- مالي قو، دور العلماء المسلمين الصينيين والمدارس الإسلامية في نشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية، (إسلام آباد: كلية الدراسات والبحوث المتقدمة المتكاملة، الجامعة الوطنية للغات الحديثة، ٢٠١٣)، ص ص ١٩١ - ١٩٦، ص ص

يوجد في شينجيانج -على سبيل المثال- المعهد الرئيس في العاصمة أورومتشي Urumqi، والتي تُعد رمزًا إسلاميًا بارزًا تعتني به الحكومة وتمعن في إخضاعه لرقابة صارمة. في ٢٠١٧، توسعت مساحة المعهد لتصل إلى ٥٠ ألف متر مربع بتمويل من الحكومة الصينية بلغ ٢٨٠ مليون يوان صيني، ويضم المعهد فصولًا لتحصيل الشهادات العليا في العلوم الإسلامية، إلى جانب فصول أخرى لتدريب الأئمة.

ويُدرس المعهد ثلاثة برامج تعليمية مختلفة: هي **المعرفة العامة الدينية**، وتشمل التعرف على أركان الإسلام، وقراءة القرآن، والحديث النبوي، والشريعة الإسلامية، والتفسير، **والثاني الثقافة الصينية**، ويتضمن التفقه في الدستور والقوانين الصينية والثقافة السائدة، أما الثالث **اللغة الصينية**، فيقدم دورات لتدريب الملتحقين فيه على اللغة الصينية.

ويُشار إلى أن المعهد قد درب أكثر من ٢٣٠٠ من الأئمة خلال عامي ٢٠١٧ - ٢٠١٨، ويهدف إلى تدريب نحو ٢٠٠٠ إمام سنويًا من مختلف أقاليم المقاطعة. ووفقًا لمدير المعهد الشيخ عبد الرقيب الصيني، فإن للمعهد ٨ فروع بمحافظات شينجيانج تقدم نفس التدريبات طوال العالم، كما يضم المعهد الرئيس مسجدًا بلغت مساحته ١٠٠٠ متر مربع، يسع حوالي ١٢٠٠ إلى ١٣٠٠ مُصلٍ، وفيه يُقام كل جمعة جلسات تفسير للقرآن الكريم[١].

إذن، مع تشديد اللوائح الصينية على قمع مبادرات التعليم الخاص[٢]، أصبح المعنيين بدراسة الإسلام من الأيجور يعتمدون إلى حد كبيرٍ على المعاهد التي تسيطر عليها الدولة لتحصيل المعرفة الإسلامية. وبما أن هذه المعاهد لا تتمتع إلا بقدر قليل من الشرعية في نظر العديد من الأيجور، فغالبًا ما يبحث طلاب العلوم الدينية عن طرق بديلة لاكتساب المعرفة الإسلامية؛ داخل حدود الصين، تضاءلت هذه البدائل، ما أدى إلى نقص في المتخصصين الدينيين الموثوقين اجتماعيًا داخل مجتمع الأيجور. وهو ما يفسر أن عدد طلاب هذه المعاهد في المقاطعة لا يتجاوز بضع مئات في العام الواحد، في ظل مجتمع تشير أقل التقديرات إلى وجود ١٠ مليون مسلم فيه[٣]!

إذن، يبدو من هذا العرض السابق أن هذه المعاهد تعمل بمثابة كليات لمنح درجة البكالوريوس والدبلوم في العلوم الإسلامية في الصين، وتُدار بطريقة حكومية مركزية، إذ تتحكم الجمعية الأم في بكين بتعيينات الأساتذة والمعلمين في هذه المؤسسات. صممت الجمعية مؤخرًا عشرة كتب تُدرس في

---

٢٠٧ - ٢١٦.

(١) عبد الحليم الورداني، المعهد الإسلامي في شينجيانغ.. مهد إعداد الأئمة ومرآة لمكانة المسلمين في الصين، CGTN، ٢٨ فبراير ٢٠١٩، تاريخ الاطلاع: ٢٨ أكتوبر ٢٠٢٣، الساعة ١٢:٠٠، متاح على الرابط: https://bit.ly/3sUjn5j.

(٢) تشير مصادر إلى وجود نوع آخر من المؤسسات التي تُقدم التعليم الديني في الصين غير المدارس والمعاهد الإسلامية الحكومية، وهي المؤسسات التي أقيمت برعاية وتمويل خليجي، مثل المعهد السلفي بقانسو الذي مولته السعودية، ومعهد الثقافة الإسلامية في نيغشيا بتمويل سعودي وكويتي، بالإضافة إلى مركز الشيخ زايد للغة العربية والدراسات الإسلامية في بكين. فضلًا عن ذلك، يوجد مركز إسلامي في مقاطعة داشانج القريبة من بكين، يتميز بضخامة مساحته وفخامته المعمارية التي تجعل منه متحفًا إسلاميًا أكثر منه مركزًا للعلوم والثقافة، ولا تتوفر معلومات بشأن أي أنشطة تعليمية فعلية لهذه المراكز في الوقت الراهن.

للمزيد:

- أسامة عبد السلام منصور، طوائف الإسلام والمسلمين في الصين: الوجود والاختلافات، مركز المسبار للدراسات والبحوث، سبتمبر ٢٠١٥، ص ١٤.

- Sheikh Zayed Centre in Beijing: A cultural beacon, Emirates News Agency (WAM), 16 July 2018, Accessed: 22 November 2023, 11:00, available at: https://wam.ae/en/details/1395302699146.

- Da Chang Muslim Cultural Center / Architectural Design & Research Institute of SCUT, Arch Daily, 14 November 2016, Accessed: 21 November 2023, 12:00, Available at: https://bit.ly/4a3cDmf.

(3) Michael C. Brose, et al, Ethnographies of Islam in China, Op. cit. p. 248.

المعاهد الإسلامية بغرض توحيد المناهج الدراسية، وبذلك توفر هذه الكتب المدرسية وجهة نظر الدولة حول تعريف الشريعة الإسلامية في القانون، والتاريخ، والمذهب الصيني، وتسعى إلى تعزيز فهم الشريعة عن طريق خطابات الدولة الرسمية[١].

ثالثًا- سياسات الصين في تقييد الهوية الإسلامية

لن يكتمل فهم صورة التعليم الإسلامي في الصين دون الحديث عن سياسات الحكومة الصينية تجاه الإسلام بصفة عامة، والتعليم الديني بصفة خاصة، مع التعريج على بعض ممارساتها تجاه الأقاليم التي تضم أغلبية مسلمة.

تتلخص رؤية الحزب الشيوعي الصيني إلى الأديان -غير الكونفشيوسية- بصفة عامة على أنها تهديد لسلطتها، كما تنظر للأديان السماوية على أنها أديان أجنبية، وهو ما يمكن قراءته في تعليق الرئيس الصيني شي جين بيج في مؤتمر العمل الديني الوطني في أبريل ٢٠١٦، والذي أكد فيه أهمية "دمج المذاهب الدينية مع الثقافة الصينية ومنع التدخل الأجنبي"[٢]، واعتُبر ذلك إعلانًا رسميًا لتنفيذ "سياسة تصيين الأديان في الصين".

كما تشمل المكونات الرئيسة لسياسة "إضفاء الطابع الصيني على الإسلام" تفسير المعتقدات والممارسات الإسلامية بطريقة تتوافق مع الاشتراكية والكونفوشيوسية، وجعل الدين يعمل لصالح الدولة الصينية، و"تطهير" الإسلام من العناصر العربية والتركية، وبطريقة أكثر تحديدًا، ينبغي على المسلمين في الصين أن يعيشوا مثل الصينيين الهان في شكل الملبس، والطعام، والزواج، وطريقة بناء المساجد على الطراز الصيني التقليدي، كما ينبغي أن يُنَشَّأ الأطفال على الثقافة الصينية ويتحدثوا اللغة الصينية كلغة رسمية[٣].

ويُعد المحو التام للهوية الإسلامية لأطفال الإيجور من أكثر الحملات المعادية للإسلام التي أطلقها النظام الشيوعي الصيني في نطاق الحرب على الإسلام في تركستان الشرقية، ففي الوقت الذي كانت ترسل فيه السلطات الآباء الإيجور منذ ٢٠١٤ إلى معسكرات الاعتقال أو السجون، كانت ترسل أطفالهم إلى المدارس الداخلية ودور الأيتام الحكومية[٤].

أتبع ذلك قيام مجلس الدولة بتحديث "اللوائح المتعلقة بالشؤون الدينية" في عام ٢٠١٧، والتي كثفت معها السلطات المحلية في كل إقليم جهودها للتحقيق بشأن وجود أي أماكن للتجمع أو ممارسة الشعائر الدينية غير المصرح بها، مثل المدارس القرآنية السرية أو الكنائس المنزلية، وتسجيلها وإدارتها.

وفي عام ٢٠٢١ أصدرت الحكومة لائحة جديدة بشأن المحتوى الديني عبر الإنترنت، تحظر من خلالها الأنشطة الدينية غير المصرح بها والمجموعات الدينية غير المسجلة من مشاركة المحتوى الديني عبر الإنترنت[٥].

وتتركز هذه السياسة في إقليم شينجيانج، إذ سعت الدولة الصينية منذ فترة طويلة بطريقة ممنهجة إلى "تحويل" حضارة وثقافة شينجيانج تحت ستار مكافحة "التطرف الديني" وتعزيز "الاختلاط بين الأعراق" بتجريد تلك العناصر من ثقافة الإيجور التي يعتبرونها "أجنبية"، أو "متخلفة"، أو "غير طبيعية"، أو ببساطة خارجة عن المألوف مع ثقافة الهان المركزية، إذ يُطلب من المساجد في جميع أنحاء شينجيانج تعليق العلم الوطني، ونشر نسخ من الدستور والقوانين واللوائح الصينية، والتمسك بالقيم الاشتراكية الأساسية، وإزالة الخط العربي، والمآذن، والقباب، والنجمة، والهلال، وغيرها من الرموز الإسلامية لصالح وضع رموز معمارية صينية تقليدية[٦].

(1) Matthew S. Erie, Defining Shari'a in China: State, Ahong, and the Postsecular Turn, Cross-currents: East Asian History and Culture Review, Vol. 3, No. 2, 2015, pp. 542-572.

(2) Nathan Ruser, James Leibold, Kelsey Munro, Tilla Hoja, Cultural erasure, Tracing the destruction of Uyghur and Islamic spaces in Xinjiang, Op. Cit, p. 33.

(3) Islamophobia in China and Attitudes of Muslim Countries Report, (Virginia: Center for Ughur Studies, April 2023), p. 15.

(4) Ibid, p. 26.

(5) Measuring Religion in China, Op, Cit, pp. 111 - 113.

(6) Ibid, p. 34.

وبناءً على ذلك يرصد أحد الباحثين المنتمين إلى الإيجور أربعة تحديات للأسرة المسلمة في الصين، وبخاصة الإيجور:

١. سياسة الأسرة التوأمة: التي تقوم على إلزام المسلمين من الإيجور مشاركة تفاصيل حياتهم اليومية مع كوادر الحزب الشيوعي من عرقية الهان الذين يرفعون تقارير مفصلة عن نشاط كل أسرة مسلمة.

٢. الزواج القسري للمسلمات مع الهان الصينيين: رغم أن الإسلام يحرم زواج المسلمة من الملحد، فلا يمكن لأولياء الأمور التدخل لمنع الأمر، إذ يتزوجون تحت أنظار قادة الحزب.

٣. حظر التقاليد الاجتماعية والإسلامية المتعلقة بالأسرة: من زواج، وطلاق، وميراث، وتطبيق سياسة طفل واحد بحزم في الإقليم.

٤. منع التعليم الإسلامي بالكامل: سواءً في المدرسة أو في نطاق الأسرة، وتطبيق رقابة صارمة على الأسر ومعاقبة من يخالف هذا الأمر(١)، إذ يُحظر على الأطفال الذين تقل أعمارهم عن ١٨ عامًا أن يكون لهم أي انتماء ديني رسمي، كما تركز المدارس على الترويج للادينية، وينضم العديد من الأطفال إلى مجموعات الشباب التابعة للحزب الشيوعي الصيني حيث يجب عليهم التعهد بالالتزام بالإلحاد(٢).

تُفسَّر هذه الحملة على "الإسلام" في مناطق الإيجور بكون الإسلام يُنظر إليه كوسيلة يعززبها الإيجور هويتهم كمجموعة وطنية متميزة ذات عقيدة دينية، فيمثل الإسلام فيها إحدى أبرز السمات التي تميزهم عن الهان الذين هم في الغالب ملحدين، ولذا تتخلل الممارسات الإسلامية مختلف جوانب الحياة الثقافية للإيجور، كما أنهم يعتبرون الإسلام وسيلة المقاومة الروحية للحكومة الصينية التي تدعو إلى الإلحاد(٣).

في مقابل هذه التغطية تهدف الصين إلى تقديم تغطية إعلامية مُضادة، تبرز حرية الدين في عموم الصين ورغد عيش المسلمين في شينجيانج، إذ استقبلت الصين في شينجيانج مطلع هذا العام (٢٠٢٣) وفدًا يضم لفيفًا من علماء الدين الرسميين في العالم الإسلامي من ١٤ دولة إسلامية، معظمهم من الدول العربية، أبدوا أثناء زيارتهم سعادتهم برؤية "المسلمين في شينجيانج يعيشون حياة سعيدة، ويتمتعون بحرية المعتقد الديني بشكل كامل"، على حد قول رشيد نعيمي رئيس الوفد ورئيس المجلس العالمي للمجتمعات المسلمة(٤).

قُوبلت هذه الزيارة بانتقاد واضح من الاتحاد العالمي لمنظمات تركستان الشرقية والمنظمات الشريكة معها، التي أكدت على استخدام الصين سياسات تعسفية وعنيفة ضد مسلمي الإيجور بإنشاء مدارس إعادة التعليم والتأهيل، وسياسات تصيين الإسلام، وهدم المساجد(٥)، كما أعلنوا في بيان مجمع لأكثر من ٤٠ منظمةً وبحضور ٣٠ شخصية إسلامية بارزة رفضهم "الدعاية (البروباجندا) الصينية المُضللة للعالم الإسلامي" بشأن ممارساتها تجاه مسلمي الصين عامة والإيجور خاصة(٦).

---

(١) محمد أمين الأويغوري، عن تحديات الهوية الإسلامية وبنية الأسرة التركستانية، المجتمع، ٧ سبتمبر ٢٠٢٣، تاريخ الاطلاع: ٢٤ نوفمبر ٢٠٢٣، الساعة ٤:٢٢، متاح على الرابط التالي: https://mugtama.com/07/307233/

(2) 10 things to know about China's policies on religion, Pew Research Center, 23 October 2023, Accessed: 30 October 2023, 2:20, Available at: https://pewrsr.ch/4a50HQK

(3) Boqiong Li, Uyghur Identity in Continuum, Master of Arts, (Vienna: Webster University, December 2020), p. 97.

(٤) وفد الشخصيات والعلماء في الإسلام المشهورين عالميا يزور منطقة شينجيانغ الصينية،CGTN، ١٠ يناير ٢٠٢٣، تاريخ الاطلاع: ٢٠ نوفمبر ٢٠٢٣، الساعة ٢:٢٢، متاح على الرابط: https://bit.ly/4ajQ0u3

(٥) بيان الاتحاد العالمي لمنظمات تركستان الشرقية بخداع الصين لتضليل الشخصيات الدينية بزيارة عرض إلى تركستان الشرقية، الاتحاد العالمي لمنظمات تركستان الشرقي، ١١ يناير ٢٠٢٣، تاريخ الاطلاع: ٢٨ أكتوبر ٢٠٢٣، الساعة ١:١٥، متاح عبر الرابط التالي: https://udtsb.com/ar/page/192

(٦)بيان العلماء والمنظمات ضد الدعاية الصينية المضللة للعالم الإسلامي، الاتحاد العالمي لمنظمات تركستان الشرقي، ١٦ يناير ٢٠٢٣، تاريخ الاطلاع: ٤ نوفمبر ٢٠٢٣، الساعة ٢:٣٠، متاح عبر الرابط التالي:

دعت الصين بعدها بشهور وفدًا آخر من الصحف العالمية في الأول من أكتوبر ٢٠٢٣ لزيارة الإقليم في جولة استمرت لمدة أسبوع، زاروا فيها مناطق عدة في الإقليم، وسُمح لهم الدخول إلى المساجد، والمعهد الإسلامي في أورومشي، ومدرسة تابعة له، والتحدث مع رئيسه. وعن هذه الزيارة ينقل الفريق الذي زار الإقليم عن شبكة ABC الأمريكية ما يلي:

"تمت دعوة ABC للقيام بجولة إعلامية في المنطقة نظمتها ورعتها بعناية الحكومة الصينية لعرض أفضل ما يمكن أن تقدمه المقاطعة. لقد شاهدنا روضة أطفال للأويغور حيث يقرأ الطلاب الآيات "بلغة الماندرين" في الفصل الدراسي، ثم يرقصون بسعادة في الملعب على أنغام الموسيقى التقليدية. كانت الجولة خاضعة لرقابة مشددة، ولم تترك لنا سوى القليل من الوقت في البرنامج المزدحم للتحدث إلى السكان المحليين بأنفسنا، وعند طلبنا رؤية أحد معسكرات الاعتقال السابقة حيث يُعتقد أن أكثر من مليون شخص محتجزون منذ أشهر أو سنوات، رفض المضيفون الصينيون ذلك. وجد الزائرون العلم الصيني يرفرف فوق قباب المساجد المتداعية، كما أنهم لاحظوا أنه من الصعب اكتشاف اللحى الطويلة أو الحجاب، و أنه يأتي بضع عشرات من الأشخاص للصلاة، أغلبهم من كبار السن، ولا أحد منهم تحت الخمسين"[1].

يؤدى إصرار الصين عبر هذه الدعوات إلى تقديم صورة مزدوجة عن الإسلام في الصين: **وجهها المُتصنع** يظهر كافة صور حرية الأديان، واحترام ممارستها، وإشراف حكومي على هدم المساجد غير المستوية معماريًا، وتطوير الأخرى التي تحتاج لذلك، بالإضافة إلى تحسين البنية الأساسية للمعاهد الإسلامية، وتمتع المسلمين بحياة دينية مزدهرة حتى في أكثر المناطق التي تعرضت لما تعتبره تضليلًا إعلاميًا غربيًا بشأن حظر ممارسة الإسلام فيها، **ووجهها الآخر** قاتم تظهره شهادات من الشتات ومنظمات معنية بشأن تقييد أبسط الممارسات، وهدم المساجد، وإزالة أي معالم تظهر هوية إسلامية أو عربية مناقضة للهوية المعمارية الصينية التقليدية.

خاتمة:

يعيش في الصين ما بين ٢٠ إلى ٣٠ مليون مسلم تحت وطأة حزب شيوعي يتحكم في مسار ومصير كل إنسان يمشي على أرض الصين. هؤلاء الصينيون المسلمون يكتسب وضعهم خصوصية سياقية بفعل امتزاج عناصر الدين بالأقلية القومية والهوية العرقية، إذ يأتي أغلبيتهم من عشر أقليات قومية، ويتركز معظمهم في الشمال الغربي للصين، في ظل دولة تضم ٥٥ أقلية عرقية، تمثل كلها مجتمعة أقل من ١٠٪ من تعداد الصين الذي يتجاوز المليار و ٤٠٠ مليون نسمة.

ويبدو أن المسلمين في الصين لا يُعاملون بنفس القدر من الشدة والتعسف الحكوميين، إذ يمكن القول إن ثمة علاقة بين زيادة عدد المسلمين في الإقليم وما يتعرضون له من ممارسات قمعية، فالأقاليم التي لا تضم أغلبية مسلمة أو عددًا كبيرًا من المسلمين -ومن بينها العاصمة بكين- تُعامل بقيود أقل حدة، في المقابل تُعامل أقاليم مثل شينجيانج وشنغهاي نينغشيا وقانسو بسياسات حكومية أكثر صرامة في مواجهة كل ما هو إسلامي، أي أنه **كلما زاد تعداد المسلمين في الإقليم كان ذلك أوجب لسياسة صينية أشد وطأة، و أكثر تنكيلًا بكل مظاهر ممارسة الشعائر الإسلامية، وفي القلب منها التعليم الإسلامي.**

وإذا أضفنا السوابق التاريخية إلى عامل زيادة تعداد المسلمين ستكون النتيجة أكثر سوءًا، فتاريخ إقليم شينجيانج ومحاولات الاستقلال، وتكوين تركستان الشرقية، وحكومة المنفى، وغيرها من المنظمات التي أقامها إيجور الشتات أو متعاطفون معهم لا ينفك عن ذاكرة القادة الصينيين والحزب الشيوعي على تغير أجياله ورواده. فضلًا عن ذلك، تأكدت

https://udtsb.com/ar/page/195

(1) David Lipson, after years of brutal repression, China's Communist Party tries to turn Xinjiang into a tourism hotspot, ABC News, 1 October 2023, Accessed: 22 November 2023, 3:05, available at: https://ab.co/484Slai

الحكومة أن ارتباط الأقليات العرقية/ القومية بالإسلام عامل مقاومة وتعزيز لهويتها والمناقضة للآخر (قومية الهان الأغلبية، وثقافته الكونفشيوسية)، وهو أمر يدفعها إلى فرض مزيد من السياسات واللوائح التي تجعلها أكثر تحكمًا في نمط الإسلام الذي تريده في الصين.

ويمثل النظر إلى الإسلام على أنه ضمن الأديان "الأجنبية" أو "الخارجية" أحد العوامل الأخرى التي تزيد من الشقاق بين المسلمين والحكومة الرسمية، ويُصعّب من الثقة في المعاهد الإسلامية كمصدر مُعتمد في تلقي التعاليم الإسلامية والعلوم الشرعية، لا سيما وأن الصين تتحكم مركزيًا في تعيينات هذه المعاهد، وتحث العاملين فيها على غرس وتقديم قيم حب الوطن والحزب على الدين.

وعلى الرغم من إشارة المصادر وبعض السكان المسلمين داخل الصين -تحديدًا في شينجيانج- على توافقهم مع الحزب وسياساته تجاه الدين، بل موافقتهم على الفترات التي قضوها في معسكرات إعادة التأهيل التي دخلها أكثر من مليوني مسلم من الإيجور خلال أقل من ٥ سنوات، ويُتمت أطفالهم قسريًا طوال مدة وجودهم في المعتقل، فإن المواقف الحقيقة لملايين المسلمين القاطنين داخل الصين غير متاحة أو ممكن التعرف عليها بسبب سياسات التعتيم وحظر النشر التي تفرضها الصين عليهم، ولا تظهر منه إلا أصوات من مسلمي الشتات ومتابعين من منظمات إسلامية غير حكومية.

وتبقى ملاحظة أخيرة، يطغى على الاهتمام بمسلمي الصين التركيز على إقليم شينجانج ومسلمي الإيجور، بسبب ما تعرضوا له تاريخيًا وما يتعرضوا له في الوقت الحاضر، كما يطغى -أيضًا- اهتمام المؤسسات الدولية البحثية والإغاثية المعنية بالأماكن الإسلامية وبممارسة الشعائر الدينية البسيطة مثل المساجد، والمقابر، والمطاعم، والصلاة، والصوم، والحج أكثر من الاهتمام بأي قضايا أخرى تتعلق بالتعليم، والحياة الاجتماعية للمسلمين، والمشاركة السياسة في إطار الحزب الشيوعي الحاكم.

انعكست هذه الأوضاع والسياسات على متابعة حال التعليم الإسلامي في الصين الذي أصبح في كافة مراحله تعبيرًا عن الرؤية الصينية لإعادة تأطير الإسلام داخل المجتمع (تصيين الإسلام)، وبذلك أُلغيت أي صورة من صور التعليم الأهلي، سواءً المسجدي أو عن طريق المدارس الأهلية التي كانت تُقدم العلوم الإسلامية في إطار شبه حداثي، وتُدار بطريقة فضفاضة يغلب عليها الطابع المجتمعي على الحكومي، وأضحت المدارس الإسلامية في مراحل التعليم ما قبل الجامعي كلها خاضعة للدولة، وتُدرِّس -تقريبًا- نفس المناهج التي تُدرَّس في المدارس الحكومية الأخرى، مع التشديد على أهمية تعليم اللغة الصينية وثقافتها للتلاميذ.

كما أن معاهد التعليم العالي الإسلامية خاضعة لإدارة صارمة من قبل الجمعية الإسلامية الصينية التابعة للحكومة، والتي تُخضِع التعليم للوائح والقواعد الصينية، وتجعل لغة الماندرين أساس تأهيل الطلاب والدعاة في هذه المرحلة، والذين يُعدون فيما بعد ليكونوا أبواقًا للحزب والحكومة في المساجد التي سيتولون إدارتها.

وخلاصة القول: إن السياق الذي وُجد فيه التعليم الإسلامي في الصين هو سياق مُتحدٍ بكل ما تعنيه الكلمة من معنى: مُتحدٍ للأُسر التي ترغب في تعليم أولادها مبادئ الإسلام ولا تستطيع القيام بذلك لا عن طريق المدارس، ولا المساجد، ولا حتى البيوت أحيانًا، ومتحدٍ لمن يرغب في إكمال دراسته في العلوم الشرعية داخل الصين، إذ يتوجب عليه الانصياع الكامل للرواية الصينية بشأن الإسلام، وخدمة الحزب قبل الإسلام، ومن ثمّ يعني الالتحاق بهذه المعاهد التخلي مبدئيًا عن قيم إسلامية أصيلة. ومع ذلك، يبذل المسلمون كافة جهدهم للبقاء مسلمين في ظل بيئة إلحادية تعادي كل ما له علاقة بالدين، وتعتبره تهديدًا لنسيجها القومي والاجتماعي.

معركة الأخلاق والموجات المضادة.. جمعية التسلح الخلقي نموذجًا

د. ناجية عبد المغني سعيد*

مقدمة

نعيش في عالم تسوده الحروب والصراعات الدامية والعنف والضغوط الاقتصادية والأزمات الاجتماعية وفقدان العدل والأمان، فضلا عن التفكُّك العائلي والفساد والطمع والجشع واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان ممَّا يسبِّب الحزن واليأس والقلق، بل وأحيانًا الاكتئاب الذي قد يدفع إلى الانتحار أو الإدمان أو الانحراف والعذاب النفسي، إلا أن هناك أناسًا يمتازون بعمق الإيمان ورباطة الجأش والقدرة على جهاد النفس والعطاء والإصلاح، استطاعوا أن يغيّروا ما بأنفسهم من مظاهر ضعف، ويكتشفوا ما لديهم من مواطن قوة، فمضوا بخطوات ثابتة على طريق الأمل والتغيير للإصلاح، طريق الأمن والسلام والعقلانية.

قال تعالى: (**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**) [الرعد: ١١].

وقال أيضًا: (**وَالْعَصْرِ ● إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ● إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**) [سورة العصر].

وقال جلَّ شأنه: (**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**) [الأنعام: ٨٢].

يعرف «التسلُّح الخلقي» منذ نشأته على أنه: أسلوب حياة لا يمكن أن تلتحق به أو تستقيل منه، فإما أن تعيش به أو لا تعيش به، فالتسلُّح الخلقي فكر وفلسفة وخلق إيجابي ودعوة للارتقاء بالسلوك البشري وللتواصل الإنساني، من خلال دعم القيم الأخلاقية المشتركة والتمسُّك بها.

كما يعرف على أنه أسلوب للحوار والتفاهم والتواصل والالتقاء الفكري والروحي وتعبئة الجهود والتضافر من أجل التغيير للأصلح بدءًا بالنفس عملًا بقول الله تعالى: (**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**) [الرعد: ١١].

واستلهامًا من العبارة الشهيرة للمهاتما غاندي "كن التغيير الذي تأمل أن تراه في العالم"... فإن التسلُّح الخلقي فرصة للتجمُّع في الخير، ودعوة للعمل الجماعي وروح الفريق. وترى المنتمين لفكر التسلُّح الخلقي أسرة كبيرة ممتدَّة تتخطَّى حواجز الأجيال والمناسيب الاجتماعية والاقتصادية، لا تميز فيها بين غني وفقير ولا أبيض ولا أسود ولا شيخ ولا شاب، بل أسرة متماسكة متفاهمة تحترم الكبير وتوقره وترعى الصغير وتشجعه. الانتماء فيها ليس لأشخاص وإنما لقيم ومبادئ، والقيادة فيها ليست لأفراد وإنما أولًا وأخيرًا لله عز وجل رب العالمين والهادي إلى الصراط القويم. وبناء عليه؛ فالمستقبل الأفضل الذي نأمله يكون على خمسة مستويات، من الشخصي أو الذاتي إلى العالمي:

- نفس آمنة مطمئنة.
- حياة أسرية سليمة.
- بيئة آمنة ونظيفة.
- مجتمع سليم متماسك ومتراحم.
- عالم تسوده العقلانية والسلام.

أولا- خلفية تاريخية

الحركة العالمية للتسلُّح الخلقي وجذورها العقائدية:

ظهر التسلُّح الخلقي في النصف الأول من القرن العشرين كحركة للتغيير وتماسك الأسرة البشرية، بدءًا من الذات إلى

* استشاري الإسكان وعمارة البيئة وإدارة الموارد، نائب رئيس جمعية التسلح الخلقي المصرية وجمعية خريجات الجامعة المصرية.

العالم. جوهر الحركة بسيط ومباشر يتعلق بإحياء القيم الأساسية والتمسك بها ملخصة في الأمانة، والنقاء، والإيثار والمحبة، وهذه القيم مشتركة في جميع الرسالات السماوية، وإعادة اكتشاف معجزة تلقِّي الهداية والمعونة من الله عز وجل عن طريق الإصغاء للصوت الداخلي في فترات الصمت (سكون)، ومشاركة الآخرين من الأسرة والفريق، أي استلهام حكمة الله للتغيير الذي يبدأ من النفس.

أسَّس الحركة الدكتور "فرانك بوخمان Frank Buchman" (١٨٧٨-١٩٦١) السويسري الأصل، وجده الأكبر هو "تيودور ببلياندر Theodore Bibliander" (١٥٠٩-١٥٦٤) أول من ترجم القرآن الكريم إلى لغة أوروبية.

يعتقد الدكتور فرانك بوخمان أن كل أيديولوجية تتبنَّى فلسفة وحماسة وخطَّة، وبمرور الزمن أصبح التسلُّح الخلقي قوة للتغيير والمصالحة بين الشعوب بعد الحرب العالمية الثانية مثل فرنسا وألمانيا، وبين العمال والإدارة مثلما حدث في بريطانيا، وكذلك بين السكان الأصليّين والمستوطنين الجدد في الأمريكتين وأستراليا، وبين المحاربين من أجل الحرية ودعاة التمييز والقمع مثل روديسيا (زيمبابوي) وجنوب أفريقيا، فهي باختصار تسعى إلى فَضِّ المنازعات وتضميد جراح الحروب.

ولقد ظلَّ التسلُّح الخلقي فترة من الزمن صحبة إيمانية عابرة للأجيال وقاهرة لحواجز الزمان والمكان، مع الاقتناع بأن التغيير الفردي سيدفع للتغيير المجتمعي، كيفما أكون تكون أمتي ويوجد في العالم ما يَفِي باحتياجات البشر ولا يوجد ما يفي بأطماعهم.

وقد ركَّزت أدبيات التسلُّح الخلقي على إعادة بناء الإنسان كاستراتيجية لإعادة بناء العالم، وتجلَّى الاهتمام بسلامة الأسرة والاهتمام بالأطفال وكذلك الشباب، وتبقى النزاهة الشخصية المفتاح للعمل الفعَّال، لأنه لا يمكن أن يعيش الفرد معوجًّا ويفكِّر سويًّا.

نشأة الجمعية المصرية وروابطها الدولية:

جمعية التسلُّح الخلقي المصرية جمعية مستقلَّة تتَّفق في أصولها الفكرية مع حركة التسلُّح الخلقي العالمية، التي تبلْورت فكرتُها بعد الحرب العالمية الثانية بهدف التسلُّح بالأخلاق بعد المعاناة الشديدة التي عانَى منها العالم كله بسبب الحرب، وتقوم الحركة على مبدأ تصالُح الإنسان مع الله ومع نفسه ومع غيره من البشر، دون النظر إلى اختلاف جنس أو دين أو عرق أو أي اعتبارات أخرى، وذلك بالتمسُّك بالأخلاق الحميدة المتمثِّلة في أربعة معايير أساسية تحكم السلوك والأخلاق، هي: المحبة والأمانة والطهارة والإيثار في صورها المطلقة، كالنجم القطبي الذي تهتدى به السفن في البحار والعابرون في الصحراء رغم أنهم لا يصلون إليه، وكان نهجها قلوب وبيوت مفتوحة Open hearts, open homes. وفي عام ٢٠٠١ سُجِّلت الحركة في الأمم المتحدة بمسمَّى Initiatives of Change (IofC) أو "مبادرات التغيير" كرابطة عالمية لها صفة استشارية، وتضم في عضويَّتها جمعيات قومية تشكِّل فرقَ تنسيقٍ إقليمية.

وتهدف الرابطة العالمية إلى:

- مصالحة الشعوب من خلال علاج جروح الماضي.
- تقوية الأسس الأخلاقية والروحية للديمقراطية.
- تشجيع القيادات الملتزمة بالمبادئ الأخلاقية في الصناعة والتجارة والحياة المهنية.
- خلق ثقافة الاهتمام بالغير ومقاومة مناخ اللوم والأنانية ومعالجة جذور الفقر والفساد.
- بناء الإحساس بالمجتمع المحيط وبعث الأمل في العالم.
- صياغة ونسج وتدعيم العلاقات الإيجابية بين الناس بمختلف ثقافاتهم ومعتقداتهم.

وقد ظهر الاحتياج لإنشاء وإشهار جمعيات محلية وعالمية تحمل فكر التسلُّح الخلقي وتدعو له وتعمل به مع تطوُّر المجتمع العالمي وتطوُّر أساليب العمل ومناهج الإصلاح الاجتماعي، ومع اتِّساع رُقعة العمل والتحرُّك والانتشار وزيادة الفاعلية؛ حيث أصبحت تلك الدعوة من خلال قنوات وهياكل تنظيمية محددة وبرامج عمل متعدِّدة ومتنوِّعة، بل ومنتديات متخصِّصة، مثل

منتدى الفن من أجل التغيير وبرنامج "التحرك من أجل الحياة" وبرنامج "أجندة للمصالحة"، وقد سبقتها حوارات إقليمية وعالمية متخصِّصة أيضًا، مثل "الحوار من أجل التنمية" الذي كان يُعقد في الهند سنويًّا، و"حوار حضارات وأديان البحر الأبيض المتوسط" الذي كان يعقد في سويسرا ثم جزيرة مالطة، ثم "الحوار بين المسلمين وغير المسلمين" الذي عُقد في كو بسويسرا عام ٢٠٠٢ عقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ المفجعة وتوابعها من سوء فهم وسوء تعامل مع المسلمين، ثم تلاه في نفس العام حوار ثان في "تيرلي جارث" ببريطانيا.

وقد ارتأى البعض إيجاد اسم جديد للحركة يسهل فهمه في ظلِّ التغيُّرات العالمية، واتُّفق في عام ٢٠٠١ على اسم جديد سُجِّلَتْ به كرابطة عالمية عضو في الأمم المتحدة ولها فروع في أنحاء العالم باسم "مبادرات التغيير" وذلك مع الاحتفاظ بل والالتزام والاحتفال بالقيم والمبادئ الأساسية للحركة وتاريخها العريق وإنجازاتها في مجال المصالحة والإصلاح والحوار والتواصل الإنساني وتوظيف كافة الإمكانيات من أجل الارتقاء بالعنصر البشري بدءًا من الأفراد مرورًا بالأُسر والجماعات، وصولًا إلى الأسرة الإنسانية الكبيرة عبر المجتمعات المحلية والمجتمعات الإقليمية، مثل التجمُّع والعمل على الصعيد الأفريقي أو العربي أو على صعيد البحر الأبيض المتوسط، مع الحرص الشديد على العمل الإنساني والتشاور كذلك على الصعيد العالمي من خلال المؤتمرات السنوية المتعدِّدة والمتعاقبة في المركز العالمي بكو بسويسرا أو الإعداد لها والمشورة العالمية في أماكن أخرى مثل الهند، ولبنان، وجاميكا، وبريطانيا، ورومانيا... إلخ.

إن من أعظم ما توصَّل إليه فكر التسلُّح الخلقي هو الاتفاق على الالتزام بفترات صمت فردية أو جماعية تتميَّز بالتجرُّد والتطهُّر النفسي تعقبها مشاركة بالأفكار والآراء وتبادل للمشاعر في ضوء هداية الله عز وجل. وكثيرًا ما تُوَظَّفُ فتراتُ الصمت هذه لتصفية أي موقف أو سوء فهم أو مشاعر سلبية أو تذليل عثرات أو عقبات قد تظهر على طريق العمل الجماعي، فكلُّنا بشرٌ ولا تخلو تفاعلاتُنا من تلك المشاعر وردود الأفعال الوقتية، ولكنَّنا بفضل الله وبروح الفريق ومجاهدة النفس نستطيع أن نعلو فوق الصغائر ونصحح الأمور ونقتل الفتنة في مهدها، خاصة أن التسلُّح الخلقي بمثابة نهر جارف من الحب الفياض River of love يطرد ويزيل أيَّ عراقيل، وذلك باللجوء إلى الله والرجوع إليه وقياس التصرُّفات بالمعايير الأخلاقية المجرَّدة التي تتلخَّص في الأمانة والمحبة والطهارة وإنكار الذات أو الإيثار والتي أضاف البعضُ إليهم العدل.

وقد نشأ التسلح الخلقي في مصر كفكر مستقل يتوافق مع الفكر العالمي الذي تبلور بعد الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ وحمل ذلك الاسم أملًا في تجنُّب حرب عالمية ثالثة. فظهرت كحركة إصلاحية لمعالجة جروح الماضي ومداواتها ولفضِّ النزاعات سلميًّا تجنُّبًا لتصعيدها ودرءًا للفتنة والدمار الشامل من خلال الاتفاق على التمسُّك بالقيم الأخلاقية المشتركة والتسلُّح بها ومجاهدة النفس للارتقاء بها والتدريب على التفكير الإيجابي والمشاعر الإيجابية والعمل بهدي الله مع إخلاص النية وسلامة الضمير والوعي المستنير. وقد امتدَّ ذلك إلى المصالحة وتقريب وجهات النظر بين العمال ورجال الأعمال في بريطانيا مثلا، وبين أصحاب رؤوس الأموال وبين من هم أقلُّ حظًّا، وبين الشمال والجنوب، وبين البيض والسود في جنوب أفريقيا وروديسيا، وبين القبارصة الأتراك والقبارصة اليونانيِّين في قبرص... إلخ.

وقد أُشْهِرَ وسُجِّلَ التسلُّح الخلقي في مصر كجمعية أهلية منذ مارس عام ١٩٨٨ لتفعيل ذلك الفكر وتلك الروح الطيِّبة بما يتلاءم وظروف المجتمع المصري وثقافتنا العربية الأصيلة وبهدف إذكاء صحوة أخلاقية تبدأ بالنفس وتمتدُّ للأسرة الصغيرة وتدعم تماسُكَها إلى الأسرة الكبيرة، فتدعم نسيجَها الوطني على أساسٍ من القيم المشتركة والانتماء المشترك لهذا الوطن العزيز علينا جميعًا، وكذلك التواصل الإنساني والحوار الحضاري والثقافي؛ تدعيمًا لدور مصر الرائد في المنطقة وفي العالم. وكان عبده سلام مدير الصحة الأسبق أول رئيس للجمعية المصرية ويرأسها حاليا الأستاذ أحمد عبد الخالق حسونة نجل أمين عام جامعة الدول العربية الأسبق.

ويمكن بلورة رسالة "التسلح الخلقي" في مصر بأنها العمل على تحقيق الصحوة الأخلاقية، من منطلقات إيمانية، للتغيير نحو الأفضل، ويتحقَّق ذلك من خلال:

- دعم الإخاء الإنساني على صعيد المجتمع المصري وتعميق وحدة النسيج الوطني.
- دعم الإخاء الإنساني على الصعيد الإقليمي والعالمي.
- تعميق الالتزام بالقيم الإنسانية المستمدة من الإيمان بالله.
- ترسيخ روح الانتماء والمواطنة داخل المجتمع المصري.
- إجراء البحوث وعقد الندوات واللقاءات وورش العمل في مجال نشاط الجمعية أو المشاركة فيها.
- نشر مبادئ الجمعية بمختلف وسائل التوعية والإعلام.
- مد جسور الحوار مع الجمعيات والمؤسسات ذات الاهتمام المشترك محليًا وإقليميًا ودوليًا.
- الارتقاء وتنمية المجتمعات المحلية على أساس من القيم الأخلاقية.

واستمرَّت المسيرة وظلَّت الشعلةُ مضيئةً بحمد لله وفضله رغم رحيل غالبية الرعيل الأول من المؤسِّسين للجمعية، إلا أن التسلُّح الخلقي كأسرة عابرة للأجيال امتدَّ واستمرَّ وقوي وانتشر والحمد لله وزاد قوة وفاعلية بتعاونه مع جمعيات أخرى ومراكز بحثية وهيئات قومية مثل وزارتي الخارجية والشباب والمجلس المصري للشؤون الخارجية، وجامعة الدول العربية، ومركز الدراسات الحضارية وحوار الثقافات بجامعة القاهرة، ومكتبة الإسكندرية من خلال منتدى الإصلاح العربي، ومعهد دراسات السلام، وجمعية خريجات الجامعة وهي عضو في الرابطة الدولية للخريجات ومقرها جنيف بسويسرا، ولجنة زكاة مجمع التوبة للخدمات الاجتماعية المشهرة في بنك ناصر ومؤسسة عمارة الإنسان، وأيضًا مجلس التفاهم العربي الغربي، ومنتدى شركاء التنمية، والجمعية العربية لمناهضة الإرهاب ودعم ضحاياه، وإدارة التنمية الثقافية بالجامعة الأمريكية، وجريدة وطني، والمركز الكشفي العربي، وجمعية خدمات المقطم، وغيرها.

وقد واكبت الحركة العالمية والجمعية العالمية في مسيرتها التطورات المجتمعية العالمية، وسعتْ إلى تلبية الاحتياجات المرحلية وتطوير أدبيَّاتها بما يتناسب والمتطلبات الجديدة عن طريق المشورة الجماعية والاتفاق والوفاق، مثلما حدث في لقاء الهند ولقاء قبرص وغيرهما.

وأيضًا فالجمعية المصرية مع صدور قانون الجمعيات الجديد قد وفَّقت أوضاعَها ونوَّعت من أنشطتها وتبنَّت مبادرات جديدة وتجاوبت مع المتغيِّرات، سواء على الصعيد المحلى أو الإقليمي أو العالمي (مثل مبادرة "مؤسسة عمارة الإنسان" ومبادرة مجمع التوبة للإغاثة والتنمية والتنوير، وحديثًا مبادرة النيل شريان الحياة.. قناة للسلم والرخاء". وكان لتنوُّع المنتمين إلى أسرة الجمعية وتميُّزهم الفضل الكبير في إكساب العمل المرونة والتنوُّع والثراء الفكري، في ظلِّ الترابط الأسري والالتقاء الروحي للمجموعة، ونأمل أن تستمرَّ المسيرة وأن تتَّسع رقعة العمل وأن تزداد فاعليَّته بما يتناسب ومتطلَّبات المرحلة الحالية والمستقبلية وأهلا ومرحبًا بالمبادرات الإيجابية والمقترحات، سواء للتفعيل أو التمويل بما يتناسب وآفاق العمل ورحابته، ونرجو أن تُثْمِرَ المشاركة في اللجان المختلفة للجمعية في دفع المسيرة وتطوير النشاط والله الموفق لما فيه الخير والسداد.

ثانيًا: التحديات المعاصرة وكيفية مواجهتها

أ) التحديات المعاصرة

اتَّسع منظور التسلُّح الخلقي مع ظهور قضايا وتحديات جديدة الاهتمام بالنزاهة في الاقتصاد العالمي والاهتمام برعاية البيئة، والقيادة الأخلاقية النزيهة والحكم الرشيد، والاهتمام بحقوق الإنسان والديمقراطية، والاهتمام بالعدالة، والإنذار المبكِّر للصراعات وتجنُّبها، والاهتمام بالأمن الإنساني والعيش المشترك في عالم متعدِّد الثقافات.

وتتمثَّل التحديات المعاصرة في الآتي:

- التيارات الانحلالية التي تبتلع الشباب المعاصر خاصة في

الدول الأوروبية.

- ظهور فجوة بين الأجيال وانكماش التبرُّعات التي كانت تساعد على القيام بالعمل والاستمرارية والاضطرار للتخلِّي عن العديد من المراكز والمقار أو بيعها، والتي كانت تحتوي نشاط الحركة وتُيَسِّرُه.

- انكماش حركة التأليف والإنتاج الأدبي والفني المنتمي لفكر التسلُّح الخلقي وقيمه.

ب) أساليب المواجهة التي يمكن الاعتماد عليها من خلال أدوات ومنهجية التسلح الخلقي: (تحالف الضمير الإنساني)

تغيَّرت وتطوَّرت أدوات ومنهجية التسلُّح الخلقي عبر السنين، فقد اعتمد التسلح الخلقي كثيرًا على القلوب المفتوحة وكذلك البيوت المفتوحة، وقد أثبتت المشاركة والاهتمام والرعاية بالأشخاص عِظَمَ فاعليَّتها، وقد سمحت اللقاءات السنوية والموسمية المفتوحة في مراكز التسلُّح الخلقي بكو بسويسرا وبانشجاني في الهند وفي غيرها بتبادل الخبرات والتخطيط المستقبلي والاتفاق على أعمال مشتركة والتشبيك والتعاضدية وبث الطاقة الإيجابية. وهي خصائص ملموسة في لقاءات التسلُّح الخلقي. وظلَّ الفن أداةً متكاملةً للتغيير والإلهام عن طريق الأغاني والأفلام الطويلة والوثائقية والرسومات الكاريكاتورية والمسرحيات والعروض متعددة الوسائط وغيرها. وأسْهمت ورش العمل والحوارات واللقاءات التشاورية واللقاءات السنوية والمنتديات المتخصِّصة التي تتناول قضايا محدَّدة والدورات التدريبية والتدريب الداخلي... إلخ في اكتساب مزيد من المؤمنين بالحركة والمساندين لها والمتطوِّعين بها، كما أعطت فرصًا متنوِّعة للتشبيك.

المشاريع والبرامج ومبادرات العمل المشترك:

استوجب تغيُّر الاحتياجات وظهور التحديات تطويرَ البرامج القائمة وكذلك تقديم استجابات جديدة للمستجدَّات، فعلى سبيل المثال تم تنفيذ الدورة التدريبية لقيادات شباب العالم World youth leadership course التي بدأت في أواخر الستينيات من القرن العشرين، وتطوَّرت إلى برنامج كو سكولرز Caux Scholars في أوائل القرن الواحد والعشرين. ونتج عن برنامج "المرأة صانعة السلام" حلقات "السلام للمرأة Women peace Circles". وفي عام ٢٠١٢ تبنَّت المشورة الدولية ودشنت ثلاث مبادرات للعمل المشترك. وتم عقد لقاءات خاصة برجال الصناعة والإعلام والمزارعين من خلال المؤتمرات السنوية، كما وفَّر معهد الحكم الرشيد في نيودلهي التدريب للآلاف بالتعاون مع مركز التسلُّح الخلقي في "بانشجاني". وقد اعتمد التسلُّح الخلقي في السنوات الأولى على التبرُّعات من الأفراد الملتزمين والداعمين، والربط مع الأجهزة المتوافقة والحركات والعمل المشترك والفاعليات، وبمرور الزمن اضطرَّت هيئات "التسلح الخلقي" إلى بيع أو تأجير بعض المنشآت التي كان قد تبرَّع بها أثرياء داعمين للتسلُّح الخلقي أو مشتراة من قبل الأفراد الملتزمين. فمسرح ومركز الفنون بويستمنستر وتيرلي جارث قرب تشيستر تمَّ بيعهما في بريطانيا واستبدل بمركز "جرين كوتس". وجراند هوتيل بكو في سويسرا بيعت وتمَّ تأجير "مونتين هاوس" أو "بيت الجبل" لمعهد فندقة خلال العام الأكاديمي، ممَّا قيد استخدام المكان وحصَره في الأجازة الصيفية وأجازة عيد الميلاد.

ومركز التسلُّح الخلقي في "بانشجاني" بالهند بُني من التبرعات حتى من ذوي الدخل المحدود، المساندين للتسلح الخلقي. وما زال مستمرًّا حتى الآن.

وقد سمح التسجيل في الأمم المتحدة بتخصيص تمويل ومساعدات إضافي، إن الثقة في هداية الله وتدبيره تبقى ميزة واضحة للتسلُّح الخلقي، فحينما يهدي يدبِّر "When God guides he provides".

الفاعلية والتغيير الإيجابي

لقد أثبت التسلُّح الخلفي أو (مبادرات التغيير) فاعليَّته على العديد من المستويات من المستوى الشخصي إلى المستوى العالمي كما ذكرنا. والهداية الربانية والبركة مفتاح نجاح التسلُّح الخلقي، فحينما ينصت الإنسان يلهمه الله وحينما يطيع المرء يوفقه الله. اجعل اللهَ معلِّمك اتركْه يوجِّهْك، خذ وقتًا للإنصات وشجاعة للطاعة والصوت الداخلي يناديك، فإرشاد الله ليس إلغاءً للعقل أو المنطق وإنما استنارة له.

سألت فتاة والديها: ما الفرق بين إرشاد الله والضمير؟ رَدَّ والداها: ليس هناك فارق، لكن الطفلة الصغيرة أجابت: إن الضمير يوضِّح لنا ما هو الصواب وما هو الخطأ، ولكن إرشاد الله وهدايته يبيّن لنا ما هو الأصلح بين صائبين. تصف الدكتورة سحر برنجي أخصائية التنمية البشرية بالسعودية منهجية التسلُّح الخلقي بمثَّلث: التطهر، والتزود بالشحنة، والاعتصام بالله. أما الأستاذ رامز سلامة من لبنان فطالما وصف التسلُّح الخلقي على أنه الارتقاء الذاتي الذي يسمح بتلاقي القلوب والعقول، فيقول: نرتقي لنلتقي. وقد أضافت المهندسة المعمارية تيفولي توفيق من مصر أن الالتقاء يساعدنا على الارتقاء فنلتقي للترقّي.

وقد انبثق عن التسلُّح الخلقي بلبنان حركة نسائية أسَّستها السيدة ميري شفتري والسيدة لينا حمادة، تُدْعَى "لنلتقي" وقد ساعدت هذه الحركة على تجميع النساء والشباب من خلفيات وأطياف منوَّعة، وكسر حواجز الخوف والرهبة وتعزيز الشفاء والتماسك بعد الحرب الأهلية التي استمرَّت خمسة عشر عامًا. لقد استطاع التسلح الخلقي في حالات الأزمات والمواقف الحرجة إحداث الإنجاز والخروج من المأزق، لأن العجز الإنساني هو بداية للتدخُّل الربَّاني، فمن قناعات التسلُّح الخلفي أن العجز الإنساني هو بداية الإعجاز الرباني.

مراتب النفس وسلم الارتقاء والسمو الروحي والأخلاقي

كيف نصل إلى مرحلة النضج الإنساني؟؟!!

دعونا نتعرَّف على مراحل النضج والارتقاء:

النفس الأمارة - النفس اللوامة - النفس المطمئنة - النفس الراضية - النفس المرضية

مرحلة النفس الأمارة ينطبق عليها ما ورد في الحديث الشريف "خير الخصلتين أبغضهما اليك"، أما مرحلة النفس المطمئنة ينطبق عليها قوله صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئتُ به"، ويكون "قلب المؤمن دليله" كما في المثل الشعبي وكما ورد في الحديث الشريف "استفت قلبك وإن أفتوك وإن أفتوك" فتكون الاستنارة والبصيرة (**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ● ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ● فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ● وَادْخُلِي جَنَّتِي**) [الفجر: ٢٧-٣٠].

عند استخدام الخرسانة المسلحة يُنخل الركام بالمناخل بمقاسات التدرُّج الركامي من الأكبر إلى الأصغر كذلك، وعند السموِّ النفسي نتخلَّص من الخصال والعيوب الكبيرة ثم الأصغر ثم الأصغر.

وفي علم النفس الإسلامي يقال: احذر أعداء النفس الأربعة القوى الغضبية كالثور الهائج والقوى الخبيثة كالثعلب المكار والقوى الشهوانية كالخنزير الشره والقوى الربوبية كالأسد المغرور.

ويرى الصوفية أن مراحل النضج الروحي ثلاثة: التخلي والتحلي والتجلي أي التخلي عن كل ما يخالف الفطرة السليمة ويمرض أو يعمي القلوب أو يذهب بنقائها والتحلي بكلّ الصفات الحميدة التي ترتقي بالنفس وتغذّي الروح وتحافظ على سلامة القلب فيأتي التجلّي والهدي الرباني ليُنير لنا الطريق.

ثالثا: مبادرات و إنجازات على مدى ٣٥ عاما (١٩٨٨ - ٢٠٢٣)

على مدار ٣٥ عامًا قامت جمعية التسلُّح الخلقي في مصر بإقامة عدد من المشروعات التنموية، نذكر بعضًا منها فيما يلي:

١- مشروع مجمع التوبة للإغاثة والتنمية والتنوير

يقع المشروع بحي عين شمس شمال شرق القاهرة ويقام على قطعة أرض موهوبة من الراحلة الكريمة الأستاذة عنايات الحكيم إحدى مؤسسات جمعية التسلُّح الخلقي المصرية، والمشروع عبارة عن مجمع خدمات يهدف إلى التنمية والتكافل والإغاثة والتنوير وإعمار القلوب بتقوى الله وتزكية النفس وعبادة الله. وتشرف عليه لجنة زكاة مجمع التوبة وبعض من سكان المنطقة. وقد وقَّعت لجنة الزكاة عقد مشاركة مع مقاول محلي وبدأ بالفعل تشييد البناء منذ شهر سبتمبر ٢٠١٩. ويشتمل المشروع على: مكتبة عامة وقاعات للندوات والمحاضرات وقاعة للاجتماعات ومشغل للنساء ودار حضانة

ومستوصف طبي ودار للضيافة وللمسنين وكافيتريا وجمانزيوم هذا فضلا عن مصلى للرجال وآخر للنساء.

٢- مشروع بيت العائلة بالجيزة:

يهدف المشروع إلى الحفاظ على بيت العائلة واستخدامه كمركز ثقافي تنويري ومركز للوثائق ومكتبة، وقد كان بالفعل مركز إشعاع وتنوير واستضافة على مدى ستين عامًا وأكثر. وقد أطلق عليه مسمَّى بيت العائلة د. إيناس برسوم في عام ٢٠٠٢ بعد رحيل قاطنيه الأستاذ عبد المغني سعيد وحرمه الأستاذة عنايات الحكيم رحمهما الله في فبراير ٢٠٠١، وهما من أعمدة وروَّاد ومؤسِّسي التسلُّح الخلقي في مصر. وقد شهد هذا البيت عبر السنين استضافة العديد من أسرة التسلُّح الخلفي المصرية والعربية والعالمية، وبه وثائق وكتب وأفلام وأسطوانات ومقتنيات رمزية للأسرة المصرية والعالمية.

٣- ترجمة قصص الأطفال الخاصة بالتسلُّح الخلقي إلى اللغة العربية

المساهمة في تقديم ونشر وترسيخ القيم الإنسانية العليا، والأخلاق والفضيلة والسلوكيات القويمة في الأطفال والنشء بمصر والدول العربية.. كما حَثَّتْ عليها الأديان وكما تتبنَّاها منذ إطلاقها جمعية مبادرات التغيير العالمية. وجارٍ حاليًّا ترجمة مجموعة من قصص الأطفال الهادفة والقيِّمة من تراث التسلح الخلفي العالمي مثل: الأسر السعيدة - البالونات السحرية - الناس القاطرة. وذلك استعدادًا لطبعها ونشرها بعد الحصول على موافقة مبادرات التغيير العالمية واستخدامها في المدارس وفي محو الأمية وتعليم اللغة، وما نأمل فيه السعي لتحويل تلك القصص إلى رسوم متحركة.

وتتضمَّن القصص والأفلام منهج "المهارات الثلاث" الذي نشأ في الهند وتم تطويره في المملكة المتحدة The Other 3Rs، ويتكوَّن المنهج من تسع وحدات تغطي ثلاثة موضوعات:

١- المسؤولية: وتتطرَّق إلى المسؤولية الاجتماعية وإلى المسؤولية الشخصية، ودور الفرد في خلق مجتمع متلاحم وأهمية وجود هدف للحياة.

٢- العلاقات: وتتعلَّق بالثقة والالتزام والتواصل في مجال الأسرة، وفيما يتعلق بالغيرة والأنانية والتسامح بين الأصدقاء. وتتناول مناقشات وأسئلة خاصة بالأخلاقيات وكذلك التسامح والانصات والمصالحة في المجتمع.

٣- الاحترام: ويتطرَّق إلى احترام الذات، والتعرف على الملكيات الشخصية، واحترام الآخر ويشمل القبول والتفاهم والتوقُّع، وكذلك التطرُّق إلى ذوي الاحتياجات الخاصة وقيمة كل شخص، وقدسية الحياة حتى للجنين.

وقد تم بفضل الله وبالتعاون مع الفنان القدير أ.د. محمد العلاوى (صديق الجمعية) التواصل مع قسم الجرافيكس بكلية الفنون الجميلة التابع لجامعة حلوان للتعاون على إنجاز المشروع مع إشراك الطلبة والطالبات بإشراف الأساتذة المتخصِّصين، وتمَّ الاتفاق على زيارة الكلية وبلورة المشروع بالقريب العاجل بإذن الله.

٤- منتدى الفن للتغيير

تم تنظيم وإقامة منتدى "الفن للتغيير" بالتعاون مع أكاديمية المرام التي تشاركنا حاليًّا مقر الجمعية ومن ثمرات هذا التعاون تحديث وإعادة تقديم ملحمة "مصر أم الدنيا"، وإخراج وتقديم ملحمة "منجم الذهب" أو "ربيع الصحراء" باللغتين العربية والإنجليزية.

٥- تفعيل مبادرة محو "الأمية بالأخلاق":

وقد أطلقت هذه المبادرة د. لطيفة فهمي منذ سنوات، وتم إعداد مطبوعات تستخدم فيها لغرس وتدعيم القيم الأخلاقية، وتنظيم وإقامة دورات للإعداد للأسرة وإذْكاء الوعي بالحياة الأسرية السليمة والسعيدة.

٦- إطلاق مبادرة "نهر النيل شريان الحياة":

تمَّ التواصل مع بعض أشقائنا في مبادرات التغيير بدول حوض النيل للإعداد لفيلم وثائقي تعريفي مشترك عن طبيعة وبيئة هذا النهر العظيم شريان الحياة، والحضارات التي قامت على ضفافه، والشعوب التي تسكن في واديه، لعلَّ ذلك الفيلم

يكون أداةً للترابُط وبناء الثقة وتجنُّب النزاعات حول هذا النهر المشترك. وذلك من باب الدبلوماسية الشعبية، وتمَّ التواصل مع المجلس المصري للشؤون الخارجية ومعهد الدراسات الاستراتيجية وبحوث دول حوض النيل بجامعة الفيوم بهذا الخصوص.

٧- نعد كتيبًا مصوَّرا باللغتين العربية والإنجليزية عن رموز القيادات النزيهة في مصر والوطن العربي الذين تبنُّوا وعاشوا مبادئ التسلُّح الخلقي وطبقوها في حياتهم فكان لهم إثر طيب في مجتمعاتهم.

فما أحوجنا للتعرف على هذه النماذج المضيئة والملهمة لمواصلة مسيرة الإصلاح والتغيير الإيجابي، ويمكن تضمين ذلك في الموقع الإلكتروني العربي المنتظر إنجازه وتدشينه بإذن الله.

٨- إعداد وإنتاج فيديوهات فنية هادفة تتضمَّن أشعارًا ولوحات فنية مع خلفية موسيقية بتصريح من الموسيقار عمر خيرت وذلك باللغتين العربية والإنجليزية، يمكن تضمينها في الموقع الإلكتروني العربي لمبادرات التغيير بإذن الله.

مثل فيديو أنشودة "موطني" مع ترجمة إلى اللغة الإنجليزية ومتضمنة لوحات فنية معبرة، تعاون في إنتاجه د. عبد المحسن فرحات وم. حمد الله فرحات وم. هبة الله مريم (مايو ٢٠٢١) أثناء الحرب على قطاع غزة.

وفيديو "السكينة الحقيقية / True Serenity" من تأليف وتلحين د. ناجية عبد المغني سعيد وغناء د. داليا يونس وموسيقى م. أبانوب يني، وقد شاركنا به في يوم السلام العالمي في سبتمبر ٢٠٢١ بدعم من فريق التنسيق العربي لرابطة مبادرات التغيير، وأيضًا فيديو "يا ساكن في نور" تأليف د. عبد المحسن فرحات وترجمة د. ناجية عبد المغني وتجميع لوحات م. حمد الله فرحات وغناء شادي نزار والشابة نهى وموسيقى وتجميع تقني م. أبانوب يني، وقد قُدِّمَ عبر Zoom في ندوة "الفن من أجل التغيير" ضمن احتفاليات مبادرات التغيير بالعيد السبعيني لمركز المؤتمرات بكو (أكتوبر ٢٠٢١)، وفيديو "الإخوة على نهر النيل" غناء د. دعاء عدنان وتجميع لوحات د. ناجية عبد المغني وإخراج تقني م. أبانوب يني، وأنتج في نوفمبر ٢٠٢١.

٩- توثيق مسيرة التسلح الخلقي / مبادرات التغيير في مصر والوطن العربي سواء بالكتابة لتضمينها في مطبوعات أو رقميًّا في موقع إلكتروني أو عن طريق الفيديوهات والأفلام الوثائقية أو عروض Power Point.

الخاتمة:

معًا لغد أفضل يسوده السلام المستدام القائم على الحق والعدل، وختامًا فإننا نؤكِّد أن عالمنا المعاصر يحتاج إلى المزيد والمزيد من فكرٍ ومنهجيةٍ وإلهامِ التسلُّح الخلقي للصمود في مواجهة الانحلال وللتخفيف من معاناة البشر وتحقيق مستقبل أفضل يتميَّز بالنفس المطمئنة والأسرة المتماسكة والبيئة الآمنة النظيفة والمجتمع المتماسك السليم وبعالم تسوده العقلانية والسلام. "اللهم أنزل علينا السكينة فيما لا نستطيع تغييره والشجاعة لتغيير ما نستطيع تغييره والحكمة للتمييز بينهما".. آمين.

المقاومةُ المعرفيَّة للعَلمانيةِ الملحدة: حواراتُ الإسلامِ والعلم

سلمى حسب الله*

المقاومةُ في عصرِ الانْبطاح:

إذا تأمَّلتَ العالمَ اليومَ تجدُه غرفةً صغيرة؛ بل يمكنُ أن ينكمشَ إلى حدِّ وضعِه في جهازِك أو هاتفِك المَحمول، وأصبحتِ الهيمنةُ على العقولِ أيسرَ للقوةِ السائدة، وأضحَى الغزو الأجنبيُّ لا يكسبُ أرضًا فحسْب؛ بل يجتاحُ الأفكارَ والعقول.

والغزو الفكريُّ أكثرُ خطورةً لأنَّ الخسارةَ لا تتمثَّلُ في فقدانِ أرضٍ؛ بل تشملُ فقدانَ ما عليها من أجيالٍ من البَشر، وأهمُّ من ذلك أن يفقدَ الإنسانُ نفسَه، ولأنَّ الغرب صنَّاعُ حضارة اليوم، ولهُم الريادةُ في التقدُّمِ الهائلِ في العلم والتكنولوجيا بما في ذلكَ وسائل الاتصالات، فلديْهم مقاليدُ كلِّ شيء في لعبةِ تَداول المَعلومات، وظهورُ الملاحدةِ بين شبابِ المجتمعات الإسلاميةِ وجَهْرُهم بكُفرهم منذ بداية الألفيةِ الثالثة لم يأتِ من فراغ، ممَّا جعلني أنتبهُ من سنين، ظنًّا منِّي أن المشكلة تَكْمُنُ في انتشارِ الفكر الإلحادي، ولكنْ عند دراسة أبعادِ المشكلة منذُ عام ٢٠٠٥، وجدتُ أنَّ الإلحادَ في حدِّ ذاته ليسَ المشكلةَ الأساسية، ولكنَّه أحدُ شواهدِ المشكلة، والمشكلة أساسُها الانبطاحُ لكلِّ ما هو غربي. تجدُ أبناءَ النُّخبة في مجتمعِنا اليوم لا يتحدَّثُونَ إلا الإنجليزية، والرُّموزُ في نفوسِهم مستوردةٌ كاستيرادِ الملبَس والمأكل. سألتُ حفيدَ أختي ذاتَ ليلةٍ عن مَثَله الأعلى فأجابَ - دونَ تفكير- بيل جيتس! لم يكنْ سببُ فرط اندهاشي كراهيتي لبيل جيتس، فأنا لا أكرَهُ الرجل، ولستُ متحقِّقة بما يَجول حولَه من نظرياتِ المؤامرة، ولكنَّ اندهاشي كان سببُه خلاءَ الساحةِ الإسلامية الرَّاهنة من تقديمِ رمزٍ يَحيَا في نفوس أبنائنا. وقد أثارَ ذلك الموقفُ سؤالًا في نفسي: إلى أيِّ مدًى يسيطر علينا الفكرُ الغربي؟ والردُّ قد يبدو معلومًا للوهْلة الأولى، ولكنْ في حقيقة الأمرِ هو غيرُ ذلك كما سأوضحُ في الفقرةِ التالية.

إلى أيِّ مدًى يتوغَّلُ فينا الفكرُ المادي؟

منذُ أعوام مضتْ كنت أتلقَّى دروسًا في المعهدِ البريطانيِّ بهدف تقويةِ اللغة الإنجليزية، اعتادتِ المعلمةُ في آخرِ كلِّ حصةٍ أن تعرض علينا أمرًا لدراستِه ومناقشته في الحصةِ التاليةِ كنوعٍ من أنواع الحثِّ على استعمال اللغة. في هذا اليوم تحديدًا، طلبتْ منَّا دراسةَ سلوك الإنسان، والبحثَ في أيٍّ من العاملين يشكلُه؛ هل هو صفاتُه الموروثة وجيناتُه، أم ظروفُه المحيطة والبيئة، Nature versus Nurture، وبالفعل ذهبَ كلٌّ منَّا يدرس ويبحثُ ويستخرج معلوماتِه من الإنترنت، واختلفتْ رؤى كثيرٍ من العلماء والفلاسفة حولَه، إذ يتَّخذ أتباعُ الفطرة Nativists موقفًا مَفاده أنَّ معظمَ سلوكيات الإنسان نتاجُ صفاتِه الموروثة، ومن ناحيةٍ أخرى يَتَّخِذُ التجريبيُّون Empiricists الموقفَ المقابلَ وهو القائلُ بأنَّ معظمَ السلوكيات تنتجُ عن التعلُّم، وكثيرٌ من العلماء يتَّفقون على أنَّ سلوكَنا نتاجُ العاملَيْن معًا؛ جيناتنا وما نكتسبُه من خبرات، ولكنِ اختلفوا في تحديد النِّسَب، وبدأتُ أقيِّمُ ما قيلَ من كلِّ الأطراف، ولكن وجدت ضَميري يُكَبِّلُ قلمي؛ إذ رفضت تمامًا أن يكون الإنسانُ مُسَيَّرًا يتحرَّكُ على حسب صفاته الموروثةِ أو ظروف بيئته؛ تَعالى اللهُ الملكُ الحقُّ على أن يحاسبَنا على ما ليس لنا يدٌ فيه، ولذلك جاءَ ردِّي في الحصةِ التالية صادمًا لأني رفضت المُعطيات، وقلتُ بأعلى صوتٍ إنَّ الصفات والظروفَ لا تشكِّلُ السلوك، وإلا فلنُغلق كلَّ مَحاكم الأرض، وكلَّ المحافل التي نقدِّرُ فيها كلَّ مَن تفوقَ في مجال ما، لأنَّهم مسيَّرون، ليس عليهم ذنبٌ فيما اقترَفوه، ولا لهُم الفضلُ فيما وَصلوا إليه من نُبوغ، واستعنتُ بمثال: شبَّهتُ فيه الإنسانَ بالسيارةِ، وقلتُ هبْ أنَّ الصفاتِ الوراثيةَ في هذه الحالة هي موديلُ السيارة، مرسيدس أو فولكس أو فيات، أيًّا كانت، وهبْ أنَّ البيئة والظروفَ هي طريقةُ صيانتِها

---

* كاتبة وروائية مصرية.

ونوعُ الوقود المقدَّم لها، وهبْ أنَّ هذه السيارة سارتْ في اتجاهٍ معاكس، أو خالفتِ الإشارة؛ هل مِن المنطق أن نقولَ إنَّ الدافع وراءَ هذا هو أنها مرسيدس، أو أنَّ هناك عيبًا في نوعِ الوقود المقدَّم إليها؟ بالطبع هناك مَن يقودُ هذه السيارةَ وإن لم نرَه، قائدٌ يتحكَّم فيها، ويختارُ إمَّا أن يحترم قوانينَ المرور أو يُخالفها، تمامًا كالنفس التي بداخلِ الإنسانِ لها مُطلقُ الحرية في اختيار كلِّ ما هي مسؤولةٌ عنه، فالصفاتُ الوراثية والظروفُ المحيطة ما هي إلَّا أدواتٌ مساعدةٌ أو مُثبِّطة، وأضواءٌ كاشفة تكشف ما في داخل النفس، والنفسُ تظلُّ حرةً كما أقرَّتِ السماء.

عندما وجدت زملائي جميعَهم ذهبوا إلى أنَّ الجينات أو الظروفَ هي التي تشكِّلُ السلوك، انتهتُ إلى أننا نتقيَّد بمُعطيات الغرب دونَ تفكير، وندورُ في فَلكهم. تذكرتُ -أيضًا- ما درسْناه في مادةِ العلوم في المرحلة الإعدادية؛ الطاقةُ لا تَفنى ولا تُستحدَث من عَدم، كنَّا نردِّدُ العبارةَ غيرَ مُدركين أنها ببساطةٍ مستحيلةٌ؛ فكلُّ شيء خُلق من عَدم، وكلُّ شيء هالكٌ إلا وجه الله، وكذلك إذا سألتَ طبيبَ مخٍّ وأعصاب في مصرَ عن الوعي سيقول إنَّه نتاجُ المخ كما وردَ في دراساتِهم المادية البَحتة، وعلى الرغم من أنَّ هناك علماءَ غربيِّين بدؤوا في دحْض هذه الرؤية، ويَشهدون أنَّ الوعي لا يمكن إدراكُه بالعلم، وقد بُنيَت حجَّتُهم على دراساتٍ في ظاهرةِ الاقتراب من الموت Near Death Experience وصحوة الموت Terminal Lucidity وغيرهما من شَواهد، ولكنَّ النظريةَ المادية ظلتْ هي السائدةَ رغمَ خروج البعض عن الرَّكْب.

وهكذا تتحكَّم الرؤيةُ المادية السائدة فينا ما دامَ انكمشَ دورُنا حتى أصبحنا مجرَّدَ مُتَلَقِّين، نَستقي ما يروِّجونَه لنا من العلم، وليس لنا دورٌ فعَّال في النهوضِ والارتقاء، وقد يحتجُّ معترضٌ بدعْوى أنَّ ما أقوله لا يمتُّ للعلمِ بِصِلة، فادِّعاءُ وجود نفسٍ حرَّة داخلَ الجسد ليس عليه دليلٌ، ولكن ما ساقتني إليه عَقيدتي أنه عمليةُ اكتشافٍ تسمح لنا بربطِ الحقائق المَعزولة لفهْم العالم الطبيعي فهمًا أوسع، ومن ثمَّ تَطويعُه وإحداثُ التقدمِ والارتقاء.

معَ الأسف، ظننتُ مثلَه أنَّ العلمَ الغربي محايد، وعلماءهم مَوضوعيُّون؛ حتى بدأتُ في أبحاثي، وإليك عزيزي القارئ ما توصَّلتُ إليه.

هل العلمُ الذي نَستقيه من الغربِ حياديٌّ بالفعل؟

أعلمُ أنَّ كثيرًا من الناس -وكنتُ ضمنَهم- يرونَ أنَّ الحياديةَ صفةٌ ملازمة لسلوكِ العالِم؛ لأنها ركنٌ أساسي لاكتمالِ المنهج العلمي، فالبحثُ العلمي لا ينجحُ إذا انحازَ عالمٌ إلى رأيٍ على حسابِ الآخر، وكان طبيعيًّا وأنا في سنٍّ صغيرة أن أرى أنَّ كلَّ ما يهمُّ العالِم -على سبيل المثال- معرفةُ مكوِّنات جزيء الماءِ بدقةٍ، بصرْف النَّظر عن كوْنه من ذرَّتي هيدروجين وذرة أكسجين أو غيرها. ولكن بعدَ مرور أعوامٍ طِوال، وأثناءَ قيامي بعمل الفيلمِ الوثائقي "ما بعد الحياة Beyond Life"، والذي تطرَّقَ إلى ظاهرةِ الاقتراب من الموت، وجدت انقسام الأطباء حول الظاهرة؛ فريقٌ يؤمن أنَّ ما يراه المريضُ أثناءَ التجربة ما هو إلا هَلوسة، أرجعَها البعضُ منهم إلى سببِ نقص الأكسجين الذي يصلُ إلى الدماغ Anoxia، وآخرون -وهُم أقلُّ عددًا- يرؤن أنَّ الظاهرةَ خارج نطاقِ العلم، وليس لديهم تفسيرٌ علمي لها، وكلٌّ له دليلُه، ولكنْ عند التحقُّق وجدت أنَّ الفريقَ الأول يؤمن أنَّ المخَّ يخلقُ وعيَه، بينما يؤمنُ الفريقُ الآخر أنَّ الوعي لا يمكن تفسيرُه بالعلم، فأدركتُ وقتَها أنَّ العالِم قبل أن يكون عالمًا فهوَ إنسان، ونحن كبشرٍ ننحازُ لما نراه صوابًا، فشدَّة ومقدارُ الانحياز يختلفان من شخصٍ إلى آخرَ ولكنَّهما موجودان، هذا ما حدثَ لأينشتاين عندما رفضَ العَشوائيةَ التي أظهرتْها مِيكانيكا الكمِّ لاعتقاده أن كلَّ شيء يجب أن يكون مُحَدَّدًا، وبمقدار. وقال جُملتَه الشَّهيرة "إنَّ الله لا يُلقي النرد"، وقد دفعَه إيمانُه للبحث عن مُتغيرات يصعب رصدُها، وكانت -في اعتقادِه- تفسِّر الأشياءَ التي تبدو عشوائية، وقد أدَّى ذلك إلى بذلِ مزيدٍ من الجهد والدراسة والوقت؛ لإثباتِ شيء لم يتمكَّنْ من إثباته، لا نعلم مدَى صحةِ فرضيَّته التي بُنيَت عليها قناعاته، ولكنها قد تكون حقيقيةً وتفتقرُ إلى دليلٍ أو إثبات، وسوف يظهرُ بعد.

ومن ناحيةٍ أخرى، استنتجَ العالمُ فرانسيس كريك حين أرادَ حلَّ مُعضلة ظهورِ الحياة على الأرض؛ استنتاجًا مَبنيًّا على إلحاده، فرأى أنَّ أشكالَ الحياة قد وصلتْ إلى الأرض من الفضاءِ الخارجي، إما محمَّلةً عبر جزيئاتٍ صغيرة تطفو في الفضاءِ بين

النجوم، والتقطتْها الجاذبيةُ الأرضية، وإمَّا أنها أُحْضِرَتْ إلى الأرض قديمًا عنْ طريق مُسافري الفضاء فيما يسمَّى فرضية بانسبيرميا Panspermia!

وهكذا أدركتُ انحيازَ العلماء غير المتعمَّد لصالح قَناعاتهم الشخصية، ولكنني لمستُ -أيضًا- في بحثي نوعًا آخرَ من الانحياز؛ وهو انحيازٌ مُتعمد تضيع فيه حرية العالِم إذا تَطَرَّقَ إلى أمورٍ شائكة تهزُّ عرشَ المادية والإلحاد، فأثناءَ إنتاج أحدِ مشاريعي كنتُ على تواصلٍ مع فيزيائي من الولايات المتحدة عبرَ الإنترنت لأسْتشيرَه في أمور تخصُّ فيزياءَ الكم Quantum physics، وقد رأيت رأيَه مفيدًا للغاية، وشعرتُ بإيمانه وقوَّة حجتِه العلمية أثناءَ ردِّه على أسئلتي واستفساراتي من خلال مراسلات عدَّة. وأخيرًا، طلبتُ منه أن أجْري معه حوارًا، ففاجأني برفضِه رغمَ قَناعته التامَّةِ بالمشروع، وأهمية الأسئلة التي تناقشُ علاقةَ العلم بالله، وعللَ موقفَه بأنه يخشى أن يفقدَ وظيفتَه المؤقَّتة كباحثٍ في مرحلةِ ما بعد الدكتوراه؛ لأنَّ الأساتذة في الجامعة التي يعملُ بها يهمِّشونَ هذا النوعَ من الأسئلة، ويعتقدون أنها دليلٌ على عدم جديَّة الفيزيائي، وطلبَ إرجاءَ هذا اللقاء على الأقلِّ حتى حصوله على منصبٍ في هيئة التدريس!

كما نرى، يوحي هذا الموقف بإلجامِ ألسنةِ المؤمنين من طلبةِ العلم في المحيطِ العلمي من جرَّاء انحيازِ السواد الأعظَم من العُلماء لقَناعاتهم وموقفِهم المؤيِّد للعلمانية والفكر المادي، وفي الواقع، ليس المؤمنُ وحدَه مُلجمًا؛ وإنما أيُّ مُتشككٍ في الرؤية المادية المَفروضة والمُسيطرة يتمُّ إسكاتُه، مما دفعَ بعضَ العلماء المعارضين للفكر العلماني إلى تأسيسِ لجنةِ جاليليو Galileo Commission في عام ٢٠١٧ بهدف توسيع النَّظرة العالمية للعلم بما يتجاوزُ افتراضاتِها الماديةَ المحدودة، وتضمُّ ٣٠ مستشارًا يمثِّلون ٣٠ جامعةً حولَ العالم، وفي تقريرِها السنوي الذي نُشر في مايو ٢٠١٩، أوضحَ الدكتور إيان ماكجيلكريست Dr. Iain McGilchrist -وهو طبيبٌ نفسي وكاتبٌ وباحثٌ سابق في جامعة أكسفورد- أبعادَ المشكلة وأسبابَ عدم استقلاليةِ العلم، مشيرًا إلى أنَّ العلم في وقتِنا الحالي أصبحَ حرفة، يعتمدُ على آلاتٍ وأجهزة باهظةِ الثمن، لا يستطيع أيُّ شابٍّ اقتناءها، ولذلك لا يستطيعُ الخروجَ عنِ المألوف وإلا سيخسرُ كلَّ شيء، ويرى ماكجيلكريست أنَّه بدون التفكيرِ بشكلٍ مختلفٍ لا تتحقَّق الاكتشافاتُ العظيمة. لقد تمَّ إجراءُ معظمِ اكتشافات العلم الكبرى في الماضي لأنَّ العلماء كانوا مُستقلِّين، يعملون بمعدَّاتٍ أساسية (بسيطة)، وغالبًا ما يكونونَ بمُفردهم، وهو يرى أنَّ هذا يَصعبُ تحقيقُه في الوقت الحاضر، حتَّى إن المذيعين والصحفيِّين المهتمِّين بالتقدم العلمي يَخافونَ من الظهور بمظهرِ الحمْقى بإعطاء أيِّ مِصداقية لأيِّ شيءٍ آخرَ غير العلمانية.

وقد لَفَتَ ما ذكرَه الدكتور إيان ماكجيلكريست نظري إلى أنَّ السيطرة العلمانيةَ قائمةٌ على مجموعة من أنظمةٍ بها جوائزُ ومقالاتٌ تنشَر في مجلات علميةٍ مرموقة، وآلاتٌ باهظةُ الثمن يُحرَم مِن استخدامها كلُّ مَن غرَّد خارجَ السرب، فأصبحتِ العلمانية ثقافةً وعُرْفًا، وأنظمةً سائدة، مَن يخرج عنها سيفقدُ -على أقلِّ تقدير- احترامَ الآخرين في مجتمعِه العلمي، وسوف يطلَقُ على أفكاره العلم الزائف Pseudoscience، ولذلك فإنَّ الخروجَ عن القطيع يحتاج إلى قوَّة.. قوة تُلازِم مَن يقرِّرُ أن يتحرَّر من أغلال الفكرِ المادي، قوة لا تقتصرُ على صلابةِ وصبرِ وإيمان الشخصِ فحسْب؛ بل يجبُ أن يكونَ في علمِه فذًّا، بل استثنائيًّا، لا نظيرَ له.

والإرهابُ ليس من الضَّروري أن يكون في صورةِ تعذيب واضطهادٍ وقمْع، بل قد يكون في صورٍ أخرى كتَهميشٍ وحرمان المُضطهَد من التدرُّج في الكوادرِ العلمية، ورفضِ نشْر أبحاثه في المجلاتِ العلمية الرائدة، واحتقارِه واستبعادِه عمومًا من المجتمع العلمي. على سبيل المثال، فَقَدَ جونتر بيكلي -الذي عملَ لمدة ١٧ عامًا كمنسِّقٍ لعَنبر الحشرات الأحفورية في متحفِ الدولة في التاريخ الطبيعي في شتوتجارت بألمانيا- عملَه جرَّاء تصريحٍ له على صفحتِه الخاصَّة على الإنترنت بأنه بدأ يشكُّ في آلياتِ نظرية داروين، قالَ لي في حوارٍ أجريتُه معه أثناءَ العمل في برنامج (خطوة أقرب): "إذا نظرنا إلى العلمِ الحديث فغالبًا ما يعتقدُ الناس أنَّ المناخ العلميَّ عادلٌ تمامًا، ولا يوجَد اضطهاد

فيه، فهناك حريةُ البحث وحريةُ العلم وحريةُ التدريس، قد يكون ذلك صحيحًا في بعض المجالاتِ غيرِ المثيرة للجدل؛ ولكنَّ الأمر يختلف في المجالاتِ المثيرة للجدل، فليس صحيحًا أنَّ بإمكانك طرحَ أيّ سؤال؛ فبعضُ الأسئلة غيرُ مسموحٍ بها، وأيضًا ليس صحيحًا أنه يمكنك قولُ كلّ شيء دون مواجهةِ مشاكل، وخاصَّةً إذا كنتِ تشكّين في الداروينيةِ بشكل عام، المشاكلُ ليست مقتصرةً على منظورِ الخلقيّين أو شيء من هذا القبيل، ستلحقُ بكِ المشاكلُ حتى إذا كنتِ عالمةً طبيعيَّة من التيار الرئيسي وتشكَّكتِ في النموذج السائدِ للطفرة العشوائية والانتقاءِ الطبيعي، وربما لديك بعضُ التساؤلات المُختلفة، كيف يمكن أن يعملَ هذا تمامًا بدون إلهٍ أو أيّ شيء آخر! ستُواجهين مشاكل. إذن، فالحريةُ جميلة في العلمِ من الناحية النظرية، ولكنها لا تمارَسُ من الناحية التطبيقيةِ على الأقلّ في بعض المجالاتِ المثيرة للجدل". وبعدَها سردَ لي كيف بدأ يفقد صلاحياتِه إلى أنِ انتهى به الأمرُ أنِ استُبعد عن وظيفتِه نهائيًّا بمجرَّد أنه بدأ يشكُّ في آليات نظريةِ داروين!

وقد علمتُ من ديفيد لوريمر David Lorimer وهو أحدُ مؤسِّسي مؤسسة كاركتر إديوكيشن Character Education في أسكتلندا، ومديرُ برامج الشبكة العلمية والطبية، والرئيسُ السابق لمؤسسة Wrekin Trust وجمعية سويدنبورج؛ أنَّ الهيمنةَ العلمانية قد طالت مواقعَ يثقُ فيها الكثيرونَ على الإنترنت مثل ويكيبيديا، ولقد لاحظتُ ذلك بنفسي، كلَّما بحثتُ عن شيء ما في هذا الموقعِ أراه يعرضُ المعلوماتِ بشكلٍ يؤيد الفكرَ العَلماني. على سبيل المثال، إذا بحثتَ في السماواتِ السبعِ ستجدُه ينصُّ في الصفحة الإنجليزية[1] على الآتي:

"In religious or mythological cosmology, the seven heavens refer to seven levels or divisions of the Heavens. The concept, also found in the ancient Mesopotamian religions, can be found in Judaism and Islam"

في علمِ الكونيات الديني أو الأسطوري، تشيرُ السماوات السبع إلى سبعةِ مستوياتٍ أو أقسامٍ من السماوات. ونجدُ هذا المفهوم -أيضًا- في ديانات بلادِ ما بين النهرين القديمة، ويمكن العثورُ عليه في اليهوديةِ والإسلام.

كما نرى فإن صياغة المعلومة تُشعرُك أنَّ السماوات السبع ما هي إلا أساطيرُ الأوَّلين!

وقد التقيتُ جون سانفورد John Sanford -وهو عالمُ وراثة نباتاتٍ أمريكي، وأستاذٌ في جامعة كورنيل لأكثرَ من ٢٥ عامًا، ومؤلفُ كتاب Genetic Entropy- وكان ملحدًا، وهَداه علمُه إلى الإيمانِ بالله، وقد صرَّح لي بالآتي: "إذا كنتِ تريدينَ أن يعتبرَك زملاؤك عبقريةً فعليكِ أن تنحني لداروين، وإذا لم تفعلي فسيتمُّ إقصاؤك، والعديدُ من مؤيّدي التصميم الذكي Intelligent design، والعديدُ من الأشخاص الذين يروّجون للخلقِ المُباشر، بغضّ النظرِ عن مدى جودةِ علمِهم؛ يتمُّ تجنُّبهم في صمت، وغالبًا ما يتمُّ طردُهم، وبالتالي فهو في الأساس انهيارٌ للحرية الأكاديمية، وعمليةُ فسادٍ نراها، يجبُ أن تُجربها حتى تصدِّقيها".

كما قال لي الدكتور حسن عزازي رئيسُ قسم الكيمياء في الجامعة الأمريكية آنذاك، وكان يتحدَّث عن بحثٍ نُشر في مجلة علميةٍ تدعَى بلوز وان PLOS One، وفي هذا البحث وصفَ مؤلفونَ صينيون اليدَ البشرية وقدرتَها على القبضِ على الأشياء المختلفة، مثلَ الإمساك بالسكين، أو الكرة؛ بأنها مُصمَّمة بشكلٍ متقَنٍ للغاية، ثمَّ ذكرَ المؤلفون في نهاية البحثِ أنَّ التصميم المعقدَ لليد قد يشيرُ إلى مصمِّمٍ مُبدع، وقد أدَّت تلك الخلاصةُ إلى غضبِ الكثيرين الذين اتَّصلوا بهيئة تحريرِ المجلة يُطالبونَهم بسحبِ البحث، وفي النهايةِ اعتذرَ المؤلفون عن ذكرِ المبدع![2]

كما ترى -عزيزي القارئ- لقد علمتُ من خلال بحثي أنَّ

(1) Seven heavens, Wikipedia, last edited on 14 December 2023, available at: https://en.wikipedia.org/wiki/Seven_heavens

(2) AuthorAlison McCook, Hands are the "proper design by the Creator," PLOS ONE paper suggests, Retraction Watch, 2 March 2016, available at: https://bit.ly/3v3wNMW

المجتمعَ العلمي العالميَّ ليس حرًّا كما يدَّعون، وقد يحتجُّ معترضٌ قائلًا: وما الضررُ في أن يكون الفكرُ العلمانيُّ سائدًا مادام يدفعُ إلى التقدُّم والتطورِ التِّكنولوجي الذي نَجني ثمارَه بارتقاءِ أسلوبِ حياتنا؟ ومِن هنا شعرتُ بضرورةِ تقييمِ حجَّة ذلك المُعترض في الفقرة التالية.

هل الهيمنةُ العلمانية تؤدّي إلى الارتقاء؟

- **التقييم من حيث المستوى الفكري:**

ولأنَّ نظريةَ التطور هي العمودُ الفقَري للإلحاد -ومن ثمَّ للعلمانية- فالنظريةُ تعطي للمُلحد تفسيرًا لتنوُّع الكائنات، وإنْ أغفلت سببَ الوجود الأوَّل للحياة على الأرض، فلاقت النظريةُ دعمًا لا مثيلَ له في المجتمع العلمي الغربي، ويتم محاربةُ كلِّ عالِم يناهضُ النظرية، وإن دعَّمَ رأيَه علميًّا؛ فهلِ الانحدارُ من القردة العليا، واعتبار الإنسان حيوانًا ناطقًا يعدُّ ارتقاء؟ ومن شدَّة انبطاحِنا، فإن بعض المؤمنين العرب ساروا على نَهج مؤمِني الغرب، كتَبوا الكتبَ والمقالاتِ لتفسير جديدٍ للقرآن حتى يتلاءمَ مع داروين ونظرية التطور!

تجد أنصارَ النظرية يؤمنونَ بتميزِ عرقٍ على غيره، بحُكم ما جاءَ به داروين، وإنِ ادَّعوا غيرَ ذلك، يقول داروين في كتابِه نشأة الإنسان The descent of man في صفحة ١٧٣: "في فترةٍ ما في المستقبل، ليست بعيدةً إذا ما قيسَتْ بالقرونِ سوف تبيدُ الأجناسُ المتحضرةُ من الإنسان الأجناسَ المتوحشةَ في جميع أنحاء العالم وتحلُّ محلَّها. وستكون الفجوةُ بين الإنسانِ وأقربِ الأنواع إليه أوسَعَ لأنَّها ستكون بين الإنسانِ الذي نأملُ أن يكون أكثرَ تحضُّرًا من القوقازي، وبعض القرود في مستوى قردِ البابون، بدلًا من أن يكونَ كما هو الحالُ الآن بين الزنجي أو الأسترالي والقردة والغوريلا".

كما نرى، يتخيَّل داروين أن الفجوةَ بين الإنسان المتحضِّر وأقربِ أسلافه التطوريّين سوف تتَّسع عندما يقوم الأوروبيون البيضُ المتفوقون بإبادةِ الأجناس "المتوحِّشة" في بقيةِ العالم واستبدالهم بها؛ حيث إنَّ الفجوةَ ستكون في نهايةِ المطاف بين الإنسان المتحضِّر وبعضِ القرود بدلًا ممَّا هيَ عليه الآن بين الأفريقي أو الأسترالي والغوريلا. لاحظْ في تعبيرِه كلمة "زنجي"، وفي عُرفِه أنَّ كلَّ الأجناس -ما عدا الجنس القوقازي- أجناسٌ متوحِّشةٌ، وستُبَاد، هل قرأتَ حوارًا عنصريًّا أكثرَ بذاءةً من هذا بمعايير اليوم؟ ولكنَّ نظريته ألقتِ الضوءَ على ركائز الهَيمنة الغربية من احتقارِ الآخر، واستباحة استيطانِ أرضِه، وانتهاك عرضِه واستعباده. والبونُ شاسعٌ -عزيزي القارئ- إذا ما قمْنا بمُقارنة هذا الفكر بما جاءَ به القرآن، (**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**) [الحجرات: ١٣]، وقول الرسول عليه أفضلُ الصلوات والسلام: "لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا لأبيضَ على أسودَ، ولا لأسودَ على أبيضَ؛ إلَّا بالتَّقوَى".

هذا بالإضافة إلى أنَّ الفكرَ العلماني يختزلُ الإنسان، ويختزل القيمَ والمعاني الجميلة، فالإنسانُ ليس إلا جسدًا يتكونُ من عناصر: الأكسجين والهيدروجين والنيتروجين والكربون والكالسيوم والفوسفور، وغيرها، ولأنَّ هذا الجسد يهرمُ ويَشيخُ تجدُ الإنسانَ يفقد كثيرًا من وضعِه واحترامِه إذا ما تقدَّم به العمر، كآلةٍ هرمَتْ وشاخَت، ولم يعدْ لها استخدام، غيرَ أن ما لا يدركه كثيرون أنَّ ما بداخل هذا الإنسان المسنِّ جوهرٌ لا يَشيخ، وعلى الرَّغم من اتخاذِ كلِّ الأسبابِ التكنولوجية التي تعينُ المسنَّ على الحياة، إلا أنَّه مُهمَّش بين أهله والمجتمع، يُصارع شيخوختَه في أغلب الأحيان وحدَه، وكذلك المرأةُ أصبحت سلعةً تبورُ كلما تقدَّم بها العمر.

كما اختزلتِ النظرةُ المادية الإحساسَ بالجمالِ ليصبح مجردَ رغبةٍ في البقاء عن طريقِ التزاوج، مُتجاهلين الإحساسَ بجَمال الكلمة، وجَمال اللَّحن، وجَمال القيمة، وجَمال الأمومةِ والصداقة والإنسانية، وجَمال المشهد، واخْتزلت التضحية أيضًا إلى النَّقيض، وأصبحتْ تُفسَّر بأنها المصلحةُ العُليا للجماعة، مُتعلِّلين بأنَّ المجموعةَ التي تُضحِّي تبقى، والبقاءُ للأقوى، حتى حريةُ الاختيار -في عُرفهم- تعدُّ وهمًا!

وذلك لأنَّ الجمالَ والتضحية وحريةَ الاختيار ليس لهم تفسيرٌ في النظرة المادية؛ بل حقيقةُ وجودهم تناهضُها وتهزُّ الأرضَ من تحت أركانِ فلسفتها، فهُم يدَّعون أن وجودَنا نتاجُ عملية آليةٍ ميكانيكية بَحتة لا مكانَ لاختيارٍ متعمَّد فيها، أو

جمال أو تضحية، ولذلك وجبَ إنكارُهم بفلسفاتٍ عقيمة، وحريةُ الاختيار تحديدًا تعدُّ إشكاليةً لديهم، فهي لا تناهضُ فلسفتَهم فحسب؛ بل تحمِّلهم المسؤوليةَ التي يريدونَ أن ينْفضوها عن كاهِلِهم، حتى نتعاطفَ مع المثليّين -على سبيل المثال- بدعوى أنَّ جيناتهم هي التي تتحكمُ فيهم.

لم يستطعْ مروِّجو النظرةِ المادية الوقوفَ أمام تكوين الإنسان الفِطري؛ فالإنسانُ بطبيعته يحتاج إلى الاتصالِ بالسماءِ لتطمئنَّ نفسُه، ولذلك عانَى الإنسانُ الغربي من استبعادِ الدين بل احتقاره أحيانًا، ممَّا دفعَهم إلى البحثِ عن وسائل أخرى -غير الدين- في محاولةٍ للوصول إلى الذاتِ وفهمِها، وقد أدَّى ذلك إلى اختلاقِ طرقٍ وبدَع، ومِن أبرزها حركةُ العهد الجديد New Age Movement التي ظهرت في أمريكا في ستينيَّات القرن الماضي، وقد قالَ عنهم القسُّ دان دوبروي، كاهنُ الكنيسة الكاثوليكية بأوتاوا بكندا، في لقاءٍ يخصُّ فيلم (ما بعد الحياة): "وتنادي هذه الحركةُ بأننا لم نعدْ نحتاج إلى إله، بل إنَّ كلًّا منَّا يستطيع أن يجدَ الله في نفسِه لأن الله روحٌ ونحن كذلك، فإذا توغَّلت داخلَ نفسك بالاستعانةِ بأسلوبٍ معينٍ عثرتَ على الله، ولذلك نجد أتباعَ حركة العهد الجديد يستخدمونَ أساليبَ عديدة؛ منها اليوجا وعلم التنجيم والتنويم المغناطيسي والعلاج باللَّمسات والبلورات، ويؤمنون أنَّهم باستخدامِهم هذه الوسائل سيصلونَ لإحساسِ الطاقة، أو ذلك الإله بداخلهم".

والعجيبُ أنَّ "التنمية البشريةَ" التي يروِّج لها العالمُ اليوم على أنَّ فيها الخلاصَ من المشاكل، والتي أراها البديلَ العصريَّ للدين، تنادي -أيضًا- بأشياء قريبةٍ من ادِّعاءات العهد الجديد، على سبيل المثال (قانون الجذب Law of Attraction)، الذي ينصُّ على أننا نمتلك قوةَ الله فينا، فيُمكننا أن نجذبَ إلينا كلَّ ما يخطرُ ببالِنا أيًّا كان، ومِن خلال أفكارنا يمكنُنا تحويلُ الطاقة المتغيرة التي تشكل كلَّ شيء إلى واقعٍ ملموس، فلوْ كنت فقيرًا ورغبتَ في تغيير ذلك؛ كلُّ ما عليك أن تفكِّرَ في الثراء، وسوف تُبَثُّ أفكارُك هذه كطاقةٍ إيجابية إلى الدنيا التي ستَتفاعل معك كردِّ فعلٍ لهذا البث، وتجذبُ إليك كلَّ ما يحقِّقُ لك هذا الثراء.

وهكذا من خلال قانون الجذب، تم اختزال السعي والاستعانة بالله، إلى مجرد رغبة تبث في الكون!

لقد انتشرتْ فكرةُ قانون الجذب في العديدِ من الكتب والأفلام، وأشهرُها كتابٌ وفيلم يَحملان نفسَ العنوان (السِّر The secret) وقد لاقى الكتابُ نجاحًا باهرًا، وتُرجمَ إلى عِدَّةِ لغاتٍ من بينها العربية، وأقاموا له الندواتِ الثقافيةَ والمآدبَ في شتَّى بقاع الأرض ومِن بينها مصر، واستشهدَ به عددٌ لا بأس به من مدرِّبي ومعلِّمي التنمية البشرية؛ بهدفِ زرعِ طاقة إيجابيةٍ في النفوس، وإليكم أقوالًا مِن بين أقوالٍ عديدة ذكرتْ في كتاب (السِّر) على هذا المنوال:

"معظمُ الناس يعرفون أنفسَهم من خلال أجسادِهم المحدودة، ولكنك لستَ هذا الجسدَ المحدود، فأنتَ تحت المِجهر (الميكروسكوب) مجالٌ من الطاقة، وإذا سألتَ فيزيائيًّا، ما سببُ وجود العالَم سيقولُ لك الطاقة، حسنًا صفْ لي هذه الطاقة، الطاقةُ لا تَفنى ولا تُستحدَث، وإذا ذهبتَ إلى رجلِ دينٍ وسألته مَن خلق العالَمَ فسيقولُ لك الله، وإذا سألتَه صفْه لي فسيقولُ لك دائمًا كانَ ودائمًا يكون، لا يمكنُ أن يَفنى، كما ترى وصفًا واحدًا، ولكن مصطلحاتٌ مختلفة"(١).

"أنتَ اللهُ في جسدٍ مادي. أنتَ روحٌ في الجسد. أنتَ الحياةُ الأبدية التي تعبِّر عن نفسها فيك. أنتَ كائنٌ كوْني. أنتَ القادر، الحكيم، الكامل، الرائع، المبدع، الخالق، وتخلق واقعَك على هذا الكوكب"(٢).

يجبُ أن أشيرَ إلى أنَّ هناك -أيضًا- مِن بين أقوالهم ما يُفيد، فأنا لستُ ضدَّ الاستفادةِ ممَّا ينفعُ من الحضارة الغربية، كما فعلَ عالمُنا الجليلُ الشيخ محمَّد الغزالي في كتابِه الرائع (جدِّد حياتك) عندما كان يرجعُ إلى ما وصلَ إليه الكاتبُ الأمريكي والمفكر ديل كارنيجي Dale Carnegi ما دام يتفقُ معَ ما جاء في

(1) Rhonda Byrne, The secret, (New York: Beyond words publishing, 2006), pp. 158-159.

(2) Ibid., p. 164.

القرآنِ والسنة، ولكنَّني ضدُّ أن نأخذَ كلَّ ما وَصلوا إليه بما فيه من شططٍ ونَستبدلُه بديننا القيِّم.

- **التقييمُ من حيث المستوى العملي:**

"إذا لم يكنِ الإله موجودًا فكلُّ شيء مباح" (فيودور دوستويفسكي)

في ظلِّ الهيمنة العلمانية وطمْسِ الدين ضاعتِ الأخلاقُ وإن ادَّعوا غيرَ ذلك، فترى علمَهم وتفوقَهم يُكرَّس في صناعة الأسلحةِ المحرَّمة، وانتشارِ الفيروسات، ووسائل للتتبُّع والتصنُّت، وتقييد الحريات، وإذلال الناس والتحكُّم في ثرواتهم، وافتعال أسبابٍ للحروب واجتياح أراضٍ بعيدة، واستعباد الشعوبِ في مختلف أنحاءِ العالم، والتدخُّل في شؤونهم الداخلية، قد رأينا ذلكَ كلَّه في فيتنام وأفغانستان، والعراق، وفلسطين، وغيرها.

والضررُ تعدَّى الحروبَ والدمار، وطالَ نواحٍ أخرى لا تخطُر على بال، مثل العلاج النفسي، فالرؤيةُ المادية البَحتة ترى أنَّ الإنسانَ ما هو إلا جسد، وتَتجاهلُ النفسَ فيه، وتُرجئ المرضَ النفسي إلى اضطرابٍ كيميائي في المخ، ومن ثمَّ إنهاكه بعَقاقير لتُحدث توازنًا في بعض المواد الكيميائية، ولكن نجدُ فيما بعد أن هذه العقاقيرَ أفسدتْ أكثرَ ممَّا أصلحت؛ لأنها تخطَّت جزءًا مهمًّا في الإنسان؛ ألا وهو نفسُه التي بين جنْبَيْه، ماذا لو كانتِ العلةُ في النَّفس، وينعكس تأثيرُها على المخِّ باضطراباتٍ في إفراز موادِّه الكيميائية؟

ومعَ الأسف، في بلادنا -حيث الانبطاحُ الكامل- لا يَجرؤ طبيبٌ أو دارس على تقييمِ ما نستوردُ منهم من علم. أمّا غربًا، فقد بدأت بعضُ الأصوات تُنادي بالتغيير، ففي مقالٍ بعنوان: لماذا العقلُ أكبرُ من المخ؟[1] (مُغالطة اختزالِ علم النفس في علم المخِّ والأعصاب) كتبَ ستيف تيلور -وهو محاضرٌ أوَّل في علم النفس بجامعةِ ليدز بيكيت Leeds Beckett- "إذا كان الاكتئابُ مرتبطًا بانخفاض مستوى السيروتونين في المخ (على الرغمِ من عدم إثباتِ هذا الارتباط بأيِّ حالٍ من الأحوال) فقدْ يكون هذا بسبب أنَّ حالةَ الاكتئاب تسبِّب مستوًى منخفضًا من السيروتونين، بدلًا من أنَّ انخفاض مستوى السيروتونين هو الذي يسببُ الاكتئاب. والاكتئابُ قد يكون ناجمًا عن عواملَ وجوديةٍ أو معرفية -مثل الافتقار إلى الإحساس بالهدف والمعنى، أو بسبب أنماط التفكير السلبية- فمِن السهل أن نرى كيف تنشأ حالةُ الاكتئاب أولًا كحالةٍ نفسية، والتي يكون لها بعدَ ذلك تأثيراتٌ عصبية. إنَّ معالجةَ المشاكل النفسية كمشاكل طبيةٍ هو أمرٌ مُضلِّل مثل استخدام العلاج النفسي لعلاج إصابات الجسم".

وذكرَ في المقال نفسِه -أيضًا- عنِ الأدوية ما يلي: "ويبدو أنه يوجَد في بريطانيا حيث أعيشُ وعيًا متزايدًا بأنَّ الأدويةَ النفسية فاعليتُها محدودة، وأنه حتى عندما يبدو أنَّها تُقَلِّلُ الأعراض، غالبًا تفوق آثارُها الجانبية السلبية فوائدَها، يزداد أعدادُ الأطباء النفسيِّين وعلماء النفس الذين يدْعمون العلاجاتِ غيرَ الطبية Non medical therapies ليس فقط العلاج المعرفي السلوكيCognitive behavioral therapy CBT ولكن اليقظة الذهنية Mindfulness وحتى أشكال العلاج البيئي Ecotherapy".

نَراه يبحث عن طرقٍ أخرى للعلاج غيرِ العقاقير، وقد ذكرَ الدكتور مصطفى محمود قبلَه بزمَن: "كلُّ عقاقير الأعصاب تداوي شيئًا، وتفسدُ معه ألفَ شيء آخر. وهي تُداوي بالوهْم، وتريح الإنسانَ بأن تُطفئ مصابيحَ عقله وتنوِّمه وتخدِّره وتُلقي به إلى قاعِ البحر موثوقًا بحجرٍ مُغْمًى عليه شبه جثة، أما كلمةُ لا إله إلا الله فإنها تطلقُ الإنسانَ من عقاله، وتحرِّره من جميع العبودياتِ الباطلة، وتبشِّرُه بالمغفرة، وتنْجِيه من الخوف، وتحفظُه من الوسواس، وتؤيّدُه بالملأ الأعلى، وتجعله أطولَ من السماء هامَةً، وأرسخَ من الأرض ثباتًا... فمَن استودع همَّه وغمَّه

(1) Steve Taylor, Why the Mind Is More Than the Brain.. The fallacy of reducing psychology to neurology, Psychology Today, 18 January 2017, available at: https://bit.ly/4asCx2K

عند الله باتَ على ثقة، ونامَ ملء جفنيه".

لا أنكرُ المرضَ النفسي، وأعلم أنه كأيِّ مرضٍ يصيب المؤمنَ وغيرَه على سواء، ولكن أختلفُ مع الرؤية الماديةِ في علاجه، فهُم ينكرون جوهرَ الإنسان، وذِكْرُ الله في عُرفهم يعدُّ جهلًا، وأتفقُ مع ما ذكرَه عالمُنا الدكتور مصطفى محمود، وأرى أنَّ الوقايةَ المثلى لجميع أمراض النفس تتمثَّلُ في القرب من الله، وإحياءِ قرآنِه فينا؛ إذ يقول اللهُ تعالى في كتابه الكريم (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**) [يونس: ٥٧]، وأعتقدُ كلَّ الاعتقاد أنْ لو كان المسلمون لهم الريادةُ في العلم اليومَ لوَضعوا الثقةَ في الله ورحمتَه كعلاجٍ وقائي لكلِّ الأمراض النفسية.

وهكذا تجد الغربَ بعد استبعادِ الدين، واختزالِه في شعائر تمارَس داخلَ كنائسهم؛ أنهكوا أنفسَهم في بحثٍ عن بدائلَ مثل: اليوجا، والتنويم المغناطيسي، والمانترا، والعلاج بالموسيقى، وغيرها من بدَعٍ قد تُشعر الإنسانَ براحةٍ مؤقتة كراحةِ شاربِ الخمر أو مُتعاطي المخدر، ولكنَّ الراحةَ الحقيقية، والاتزانَ الحقيقي للإنسان؛ يدركها المؤمنُ، وهي في قربِه إلى ربه، ولكنْ مع الأسف، بسببِ الهيمنةِ العلمانية تجدُ شبابَنا يلهثُ وراءهم، وأصبحوا مُقَلِّدين، غافلين عنِ الكنزِ الحقيقي الذي بين أيديهم.

ولأنَّ الدين هو البوصلةُ الحقيقية لاستقامةِ الحياة على الأرض فإن تَجَاهُلَهُ أَسْفَرَ عن ظهورِ ما يُدْعَى حركة "ما بعدَ الإنسانية Transhumanism"، وتؤكدُ هذه الفلسفة أنَّ الإنسان يمكن أن يخضعَ لجميع أنواع التعديلات الجسديةِ باستخدام العلمِ والتكنولوجيا، وذلك من أجل تحسينِ النَّوع البَشري تدريجيًّا بالقضاءِ على الشيخوخة وتَعزيز القدرات الفكرية والجسدية والنفسية للإنسان، كما نرى، فهُم يكرّسون ما وَصلوا إليه من علمٍ في الهندسة الوراثية والذكاء الاصطناعي، وغيره، لتغييرِ خلق الله، ويعملون ضدَّ الطبيعة، ويَنزعونَ الإنسانيةَ من الإنسان، ويقول اللهُ تعالى فيهم: (.. **لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا، وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا**) [النساء: ١١٨-١١٩].

من أجل الإنسانية

العلمُ والتِّكنولوجيا أدَاتانِ مثلُ أيِّ أداة؛ كسكّينٍ إذا انتزعَها مُجرمٌ استخدمَها في قتلِ بريء، وإذا نالَها صالحٌ فكَّ بها قيدَ أسير، ولذلك أدعو اللهَ لا من أجل المظلومين والمُستضعفين في شتَّى بقاع الأراضي الإسلامية فحسب؛ بل من أجلِ الإنسانيةِ كلِّها، أن تنحصرَ هذه الهيمنةُ العلمانية، وأن نردَّ هجمتَها الشَّرسة، ولكن نعلمُ أنَّ الدعاء وحدَه لا يكفي، واللهُ يأمرنا بالعملِ والجهاد، وأن نعقلَ ونتوكَّل، ولذلك أوصي بالآتي:

١) **الانتباه:** على المريضِ أن ينتبهَ إذا ما عانَى من مرضٍ ما حتى يبحثَ عن سُبُلٍ لشِفائه. ولا نخلطُ الشواهدَ بالمرض، كالذي يُعالج تَسُوَّسَ ضرسِه بقرصٍ مُسَكِّنٍ ليُذهِب الصداع، والمرضُ الذي ابتُلينا به هو انبطاحٌ كاملٌ للحضارة الغربية الحالية بكلِّ أشكالها -سياسيًّا وثقافيًّا واقتصاديًّا- ومِن شواهد المَرض تحدُّثُ أولادِ النُّخبة باللغة الإنجليزية، ورَكاكةُ اللغة العربية وازْدراؤها، والاحتفالاتُ الصّاخبة والمُبالَغ فيها بأعيادِ الغرب، واحتقارُ كلِّ ما هو إسلامي، وربْطه بالتخلُّف أو الإرهاب، ومُحاولة تفسير القرآن ليتواءمَ مع ما جاءَ به دارون، وظهورُ الفكر الإلحادي بينَ شبابنا على أنه فكرٌ تَنويري، واتجاهُ بعضِ الشباب إلى المانترا واليوجا، وفتح بعض المراكز للتنويم المغناطيسي لتَحقيق السلام مع النفس، واللجوءُ إلى التنمية البشرية كحلٍّ أوْحد للمشاكل. ومِن شَواهد الانبطاح أيضًا التَّطبيع، وعدمُ الاهتمام بالقضية الفلسطينية، بل وإسنادُ مسؤولية الجرائمِ الصهيونية إلى المَنكوبينَ من إخواننا، كلُّ هذا فكرٌ غربيٌّ غزَا العقولَ بسببِ الانبطاح الذي ليسَ له مثيل.

٢) **علاجُ المرض:** وذلكَ عن طريق الآتي:

أ) **التقدم:** لا سبيلَ إلا أن تنهضَ الأمةُ من سُباتها، وأن نأخذَ بأسباب النهوضِ بالعلم، والتحرُّر من كلِّ ما يُكبِّلنا.

ب) **التحررُ من التَّبعيَّة:** وذلك في كلِّ مَناحي الحياة، سياسيًّا وعلميًّا وتكنولوجيًّا وثقافيًّا واقتصاديًّا، وهذا لن يتمَّ إلا بتحقيقِ النقطة السابقة؛ ألا وهي النهوضُ والأخذُ بأسباب

التقدُّم، والاستعانةُ بأولي العلمِ والخبرة في كلِّ المجالات لوضْعِ خارطةِ طريقٍ في كلِّ تخصصٍ للتحرُّر من هَيمنتِهم، ومن ثمَّ الانطلاق.

ج) **الاتحاد:** البعدُ عن كلِّ ما يُحدث فُرقةً بينَنا، فالغربُ استوعب الدرسَ؛ وأنشأ اتحادَ ألمانيا الشرقية والغربية، واتحادَ الدول الأوروبية تحت مظلَّةِ الاتحاد الأوروبي European Union رغمَ اختلاف ألسنتهم! أمَّا نحن، فنزدادُ فُرقةً ومَقْتًا؛ هذا شيعي، وهذا سنِّي، هذا سلفيٌّ، وهذا متصوِّف، ولا أنسى عندما التقيتُ إحدى الفتياتِ العرب منذُ سنين، وقالت بالحرفِ الواحد إنَّ عداءها للشيعةِ أشدُّ من عَدائها لإسرائيل! تعجَّبت منها، وشعرتُ أننا قد نَسينا أنَّ الحدودَ بين بلادنا وهميةٌ وُضِعَت بيدِ العدو، كما نسينَا قولَ الله تعالى: **(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا)** [آل عمران: ١٠٣].

د) **فهمُ جوهرِ الدين والعملُ به:** ويبدأ من تغييرِ نَظرتنا لأنفسنا من ذلٍّ وانهزامٍ إلى عزَّةٍ وقوة، فالعزةُ لله وللمؤمنين، وتجديدُ ثقتنا بالله، وإحياءُ مراقبته فينا؛ لأنَّك إذا رصدت تَعاملاتِنا تَجدُنا في غربةٍ دينية رغمَ حفظِنا للقرآن والسنة، وترديدِهما ليلَ نهار، فأحوالُنا أبعدُ ما تكون عمَّا جاء به الوحي، والأمثلةُ كثيرةٌ في ميدانِ العمل والتجارة، وميدانِ الأسْرة والمجتمع، حتَّى في المرور!

هـ) **تقديمُ الرموز والبدائل:** وقد كنَّا نفتقرُ الرموزَ في صورة شخصٍ أو مجتمع، والمجتمعاتُ الإسلامية في عصرنا بعيدةٌ -في رأيي- كلَّ البُعد عمَّا جاء به الإسلام، فالإسلامُ جاء ليحرِّرَ الإنسان، والمجتمعاتُ الإسلامية استعْبَدت شعوبَها على كلِّ المستويات، وما زالت مُستعْبَدَةً وإنْ أقاموا الحفلاتِ والمسارحَ ظنًّا منهم أنها دليلُ الحريات، وأخيرًا قدَّم إخوانُنا في غزة -بإيمانِهم وتحرُّرهم رغمَ حصارِهم- رمزًا عظيمًا لشبابِ الأمة الإسلاميةِ كلِّه، وسيظلُّونَ صحوةً للإنسان المسلم؛ بل للعالمِ أجْمع.

و) **التجديد:** إعادةُ تفسير بعضِ آيات القرآنِ وبعضِ الأحاديث، وخاصَّة ما يخصُّ العلم، والتي اجتهدَ علماؤنا في زمنِهم على تَفسيرها، فقدَّموا أقصى ما توصَّلوا إليه في عَصرهم، أعلمُ حساسيةَ الحديثِ عن التجديد، في زمنٍ رغبَ أعداءُ الإسلام في زَعزعةِ أركانِه تحت مظلَّة تغييرِ الخطاب الديني، ولكنَّ هذا لا يعني أن نتركَ القديمَ على حالِه، وإن كانتْ أخطاؤه تُزعزعُ إيمانَ بعض الشباب.

وما ذكرتُه يعدُّ اجتهادًا قد يتَّفق البعضُ فيه معي، وقد يَختلف، وقد يطوِّر، وقد يُضيف؛ ولكنْ دَعونا نتَّفق ألا نَتنازعَ بسببِ اختلافِ رأي؛ لأنَّ المشكلةَ عَويصة، وتحتاجُ إلى اتِّحادنا، وتَماسُكنا، واجْتهادِنا، وتقبُّلِنا للآخر حتى نتحرَّرَ من استعبادِهم، ونخرجَ بسلامٍ من زمنِ الانبطاح، وقد وعَدَنا اللهُ بنَصره إذا نَصَرْناه، ومَن أصدقُ مِن الله قيلًا: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)** [محمد: ٧].

الدفاع عن الذات: نماذج من جهود مكافحة الإسلاموفوبيا في الغرب

محمد علي إسماعيل*

مقدمة:

تتصاعد ظاهرة الإسلاموفوبيا في الغرب مدفوعةً بصعود جماعات يمينية متطرفة وحركات قومية وشعبوية، كرست الكراهية عبر الخطابات العنصرية. لم تظهر الإسلاموفوبيا فجأةً كرد فعل على صعود تنظيم "داعش" في العراق ٢٠١٤، أو على وقع هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، بل إن العداء للإسلام له جذور تاريخية عميقة، لعل أبرزها الحروب الصليبية وحروب ما عُرف بالاسترداد المسيحي للأندلس، وقد تم إنعاش هذه الظاهرة عقب التدفق الكبير من المسلمين على الغرب في أواخر القرن العشرين، والثورة الإيرانية ١٩٧٩، ثم جاءت الهجمات ضد مركز التجارة العالمي والبنتاجون في ١١ سبتمبر والهجمات الإرهابية (المنسوبة لمسلمين) اللاحقة في أوروبا لتكرس الأمر.

وفي السنوات الأخيرة، تطورت الإسلاموفوبيا من ظاهرة تقوم في أساسها على تقديم صورة نمطية مختزلة للإسلام والمسلمين نتيجة عدم معرفة الآخر بالإسلام فقط، إلى ظاهرة ذات حمولات استشراقية تعمل على تعزيز المخاوف من الإسلام نفسه، والعمل على تشويه أي فعل إسلامي عن طريق وصمه بـ "الإرهاب والتطرف". لم تقتصر هذه الظاهرة على الغرب فقط، بل باتت تشمل دولًا إسلامية وعربية تعمل على خلق حالة رُهاب من "نسخة حركية سياسية إسلامية" تسعى إلى ربطها بالإرهاب والتطرف؛ وذلك للحيلولة دون حدوث أي عملية تغيير ومن ثم الحفاظ على الأوضاع الراهنة.

وإزاء هذه الموجة من العداء للإسلام والمسلمين، يقوم هذا التقرير برصد الجهود التي تبذلها المنظمات الإسلامية في الغرب (في كلٍ من الولايات المتحدة وأوروبا) لمكافحة تلك الظاهرة، وهي جهود متنوعة تبدأ من رصد ومراقبة وسائل الإعلام وما تنشره، مرورًا بتسجيل حوادث التمييز والكراهية بهدف التعامل معها قانونيًا وسياسيًا وتقديم الدعم لمن تعرض لحوادث كراهية، فضلًا عن إصدار الدراسات والبحوث واستطلاعات الرأي لمناقشة الأمر، وصولًا إلى تقديم صورة إيجابية عن الإسلام والمسلمين ومحاولة التعايش. هذا على أن يبدأ التقرير أولا برصد أبرز مؤشرات الإسلاموفوبيا في الغرب.

أولًا- الإسلاموفوبيا في الغرب:

تتنامى مظاهر الإسلاموفوبيا في الغرب وتتنوع بين خطابات الكراهية، والتشريعات واللوائح التمييزية ضد المسلمين، والاعتداءات الفردية وصولًا إلى الهجمات المروعة على المساجد في باريس، وسان برناردينو في كاليفورنيا، وكرايست تشيرش في نيوزيلندا، الأمر الذي يُشير إلى تصاعد حالة العداء للإسلام والمسلمين وأنها لم تعد مجرد حالة "فوبيا" أي خوف بل عداء وكراهية يتم تكريسها عبر خطابات وسياسات وقوانين.

في الولايات المتحدة الأمريكية، ومع صعود إدارة ترامب، ازدادت عمليات الإسلاموفوبيا وتم إضفاء الطابع القانوني والمؤسسي على تلك العمليات، حيث أصدر ترامب قرارًا تنفيذيًا بمنع رعايا سبع دول إسلامية من دخول الولايات المتحدة[١]، معتبرًا أن المهاجرين قد يكونون بمثابة "**حصان طروادة**" الذي يسمح للإرهابيين بدخول الولايات المتحدة لتنفيذ هجمات إرهابية. إلى جانب العمليات الإرهابية التي نفذها منتمون لداعش[٢]، أدت تصريحات ترامب وأركان إدارته إلى تأجيج

---

* باحث في العلوم السياسية.

(١) ترامب يعلق برنامج قبول اللاجئين والدخول من ٧ دول إسلامية، رويترز، ٢٨ يناير ٢٠١٧، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/5E9J70v

(٢) المسلمون في أمريكا يغالبون تداعيات اعتداء سان برناردينو، وكالة الأنباء الكويتية، ١٤ ديسمبر ٢٠١٥، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/xpIZ2AM

التعصب ضد المسلمين، وتوالت أحداث الكراهية والعنف ضد الأقلية المسلمة في الولايات المتحدة[١]. وأشارت دراسة قام بها "**مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية- كير**" بأن جرائم الكراهية ضد المسلمين في الولايات المتحدة ارتفعت بنسبة ١٥ بالمئة خلال العام ٢٠١٧ في زيادة للعام الثاني على التوالي، حيث سجل المجلس ٣٠٠ جريمة كراهية ضد المسلمين خلال العام ٢٠١٧، مقابل ٢٦٠ جريمة كراهية في العام ٢٠١٦[٢].

عقب فوز بايدن في الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٢١، وبعد دخوله البيت الأبيض بساعتين، وقَّعَ مجموعة من الأوامر التنفيذية، منها وقف حظر السفر الذي فرضته إدارة الرئيس السابق دونالد ترامب على دخول رعايا دول عربية وإسلامية للولايات المتحدة. وجاء في نص الأمر التنفيذي الذي أصدره بايدن بإلغاء الحظر "إلى جانب مخالفة قيمنا، فإن هذه الأوامر والإعلانات التنفيذية قد قوضت أمننا القومي، لقد عرّضوا للخطر شبكتنا العالمية من التحالفات والشراكات"[٣]. لكن على الرغم من ذلك، فإن تداعيات ذلك الحظر ما زالت مستمرة، فضلًا عن المناخ السياسي المتقلب في الولايات المتحدة الذي أدامه ترامب، حيث جعل من المقبول اجتماعيًا أن تكون معاديًا للمسلمين بشكلٍ علني[٤].

تصاعد العداء للمسلمين خلال فترة إدارة بايدن إلى أن بلغ ذروته في أكتوبر ٢٠٢٣ عقب عملية "**طوفان الأقصى**"، ففي ١٥ أكتوبر ٢٠٢٣، قُتل الطفل وديع الفيومي، بعد طعنه ٢٦ مرة بسكينٍ على يد مسنٍ أمريكي[٥]. وقال "مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية -كير" إنه تلقى ٧٧٤ طلبًا للمساعدة وتقارير عن حوادث كراهية من المسلمين في جميع أنحاء الولايات المتحدة في الفترة من ٧ إلى ٢٤ أكتوبر ٢٠٢٣، بزيادة قدرها ١٨٢٪ عن أي فترة ١٦ يومًا في العام الماضي. كذلك حذرت **وزارة الأمن الداخلي** في الولايات المتحدة من تنامي التهديدات المتعلقة بالعرب والمسلمين واليهود في الولايات المتحدة جراء ما أسمته الصراع بين "إسرائيل وحماس"[٦].

أما **أوروبا**، فخلال العقد الماضي، اتسع نفوذ الحركات القومية والشعبوية واليمينية المتطرفة، مستغلةً المخاوف بشأن الهجرة والعولمة والإرهاب، ما أدى إلى حصولها على السلطة في النمسا (أكتوبر ٢٠١٧)، وإيطاليا (مارس ٢٠١٨)، بجانب الحكومات القومية في بولندا والمجر وصربيا[٧]. أما في البلدان التي لم يحكمها القوميون بعد، فتنمو حركات اليمين المتطرف أيضًا. في سبتمبر ٢٠١٧، دخل حزب البديل من أجل ألمانيا اليميني المتطرف البرلمان الألماني لأول مرة وأصبح الحزب الثالث في البوندستاج بنسبة ١٢,٦ بالمائة من الأصوات. وأيضًا، ولأول مرة منذ نهاية الديكتاتورية الإسبانية برحيل فرانسيسكو فرانكو ١٩٧٥، حصل حزب "فوكس" اليميني المتطرف على ٥٢ مقعدًا من أصل ٣٥٠ مقعدًا، بنسبة ١٥,١ بالمائة[٨]، في

(1) Michael E. Miller, Attacks on Muslims across the country as Trump rhetoric puts them in 'the line of fire,' congressman says, Washington post, 10 December 2015, Available at: https://2u.pw/yW4FjBW

(2) DEEPA BHARATH, Hate crimes against American Muslims up 15%, says CAIR, Orange County Register, 23 April 2018, Available at: https://2u.pw/uRAwQAt

(٣) محمد المنشاوي، إلغاء بايدن حظر السفر.. ماذا يعني؟ وكيف استقبله مسلمو أميركا؟، الجزيرة نت، ٢٢ يناير ٢٠٢١، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/hLNsb

(4) Decades after 9/11, Muslims battle Islamophobia in US, Aljazeera, 11 September 2022, Available at: https://cutt.us/gxMXZ

(5) Angela Yang, Dennis Romero, Marlene Lenthang and Mirna Alsharif, 6-year-old Palestinian American boy is killed in anti-Muslim attack in Illinois, authorities say, NBC News, 16 October 2023, Available at: https://cutt.us/dDT8y

(6) DHS Statement on Israel-Hamas Conflict, The Department of Homeland Security, 18 October 2023, Available at: https://cutt.us/ncw8q.

(7) Enes Bayrakli and Farid Hafez, European Islamophobia Report 2018, SETA, Available at: https://2u.pw/zyF6OLB

(٨) محمد بصل، انتصار جديد للشعبوية في أوروبا.. قصة حزب فوكس أكبر المستفيدين من الانتخابات الإسبانية، الشروق، ١٢ نوفمبر ٢٠١٩،

الانتخابات التشريعية المبكرة لعام ٢٠١٩.

ينبغي ملاحظة أن أجندة الأحزاب والحركات اليمينية المتطرفة تفرض نفسها على اليساريين والديمقراطيين الاجتماعيين في البلدان التي لم تستحوذ فيها على السلطة بعد، حيث إن الأحزاب الليبرالية والوسطية الأوروبية غير قادرة على مواجهة الخطاب القومي الصاعد بقوة. وفي المقابل، تستلهم بعض تلك الأحزاب الخطاب اليميني المتطرف لأغراضٍ انتخابية[١]. كما تعمل الأحزاب والحركات اليمينية المتطرفة على الاستفادة من الغضب الاجتماعي تجاه السياسات القائمة[٢].

ويُعد المسلمون الضحايا الأبرز لصعود المجموعات اليمينية المتطرفة في أوروبا. في **المملكة المتحدة**، تم تسجيل (٣٤٥٩) حادث كراهية ضد المسلمين في الفترة بين عامي ٢٠٢١/٢٠٢٢، وهو ما يشكل ٤٢٪ من إجمالي جرائم الكراهية ضد أصحاب الأديان المختلفة والذي سجل (٨,٧٣٠) جريمة. كما سجلت الاعتداءات على دور العبادة ارتفاعًا ملحوظًا بنسبة ٤٢٪ على السنوات الثلاث السابقة[٣]. أما في هولندا، فإن ٦٧ بالمائة من إجمالي حوادث التمييز الديني التي تم إبلاغ الشرطة بها كانت مرتبطة بمسلمين. وأخيرًا، في الدنمارك، فإن ٣٨٪ من ١٦٤ جريمة كراهية ذات دوافع دينية استهدفت المسلمين في عام ٢٠٢١[٤].

ثانيًا- جهود المنظمات الإسلامية في مكافحة الإسلاموفوبيا في الولايات المتحدة الأمريكية

تتميز منظمات المجتمع المدني الإسلامي في الولايات المتحدة بالتنوع والاختلاف شأنها شأن غيرها من المنظمات في الغرب. فهناك العديد من المنظمات التي تتعاطى مع مشاكل الفقر واللجوء والحقوق المدنية والسياسية وغيرها، لكن ما يعنينا هنا هي المنظمات المعنية بشكلٍ حصري أو جزئي بمسائل الإسلاموفوبيا، ومن أبرز هذه المنظمات، **مركز دراسات الإسلاموفوبيا** (ISC)[٥]، **ومجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية** (CAIR)[٦]، **ومعهد السياسة الاجتماعية والتفاهم** (ISPU)[٧]، **والمجلس الإسلامي الأمريكي (AMC)** وغيرها من المنظمات التي تعمل على رصد الظاهرة ومقاومتها بسبل شتى سوف نوضحها عند الحديث عن بعض المنظمات تفصيلا كأمثلة.

١- مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية (CAIR):

يُعد مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية (كير) من أبرز المنظمات الإسلامية الفاعلة في التعاطي مع ظاهرة الإسلاموفوبيا في الولايات المتحدة الأمريكية. تأسس (كير) في واشنطن عام ١٩٩٤ كمنظمة تُدافع عن الحقوق المدنية للمسلمين في الولايات المتحدة، مع إيلاء اهتمام كبير بالعلاقات العامة والتواصل مع وسائل الإعلام لتقديم صورة "تتحدى الصور النمطية للإسلام والمسلمين"[٨]. توسع المجلس على مدار

متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/AGEhxW5

(1) Farid Hafez, Street-level and government-level Islamophobia in the Visegrád Four countries, Taylor and Francis online, 06 Nov 2018, Available at: https://2u.pw/MdgTxJ2

(2) Enes Bayrakli and Farid Hafez, European Islamophobia Report 2018, Op. cit.

(3) Hate crime, England and Wales, 2022 to 2023 second edition, Official Statistics, 02 November 2023, Available at: https://2u.pw/WmnnSQL.

(4) Enes bayrakli and Farid Hafez, European Islamophobia Report 2022, Islamophobia Report, Leopold Weiss Institute, Available at: https://2u.pw/mFCWoXr

(٥) موقع مركز دراسات الإسلاموفوبيا، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/LUtnS

(٦) موقع مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/KZUMQ

(٧) موقع ومعهد السياسة الاجتماعية والتفاهم، متاح عبر الرابط التالي: https://www.ispu.org/about-us/

(8) The Council on American-Islamic Relations as Defined by Its Actions and Statements over 15 Years of Community Service, CAIR, Available at: https://2u.pw/UnKf1xa

ثلاثة عقود ليشتمل على حوالي مائتي موظف في اثنين وثلاثين مكتبًا إداريًا في المدن الأمريكية الكبرى في تسع عشرة ولاية، وتعمل الفروع الإقليمية للمنظمة ككيانات مستقلة من الناحية القانونية[١].

بالإضافة إلى رصد جرائم الكراهية ضد المسلمين، تقدم هذه المكاتب خدمات قانونية في مجالات مثل الحقوق المدنية والهجرة والأمن الداخلي، ويعمل المجلس على ست ملفات أساسية لكل منها إدارة داخل المجلس، وهي: إدارة الاتصالات الوطنية، والتقاضي الوطني والحقوق المدنية، وتكنولوجيا المعلومات، الناس والثقافة، والأبحاث، والمناصرة وإدارة الشؤون الحكومية[٢].

نستطيع أن نُجمل جهود (كير) في مكافحة الإسلاموفوبيا، في عددٍ من الآليات، أولها رصد الظاهرة عبر "قسم مراقبة الإسلاموفوبيا" داخل المنظمة، ويناط بذلك القسم جمع حوادث الكراهية والعنف التي يتعرض لها المواطنون المسلمون في الولايات المتحدة، بالإضافة إلى مراقبة وكشف شبكة الأفراد والمنظمات التي تقود حملات الكراهية والتنميط ضد المسلمين. الآلية الثانية تأتي عبر إدارة "التقاضي الوطني والحقوق المدنية" من خلال تقديم المناصرة والدعم القانوني لمن تعرضوا لجرائم الكراهية. الآلية الثالثة تقوم بها "إدارة الشؤون الحكومية" من خلال مراقبة التشريعات والأنشطة الحكومية، وتنظيم حملات تسجيل الناخبين المسلمين. رابع تلك الآليات تقوم به "إدارة الاتصالات الوطنية" التي تُعنى برصد الصور النمطية التي تبثها وسائل الإعلام، بهدف مكافحة تلك الصور وتقديم صورة دقيقة عن الإسلام.

بمراجعة موقع المجلس وصفحاته على وسائل التواصل الاجتماعي، نجد أن مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية يتعاطى مع ظاهرة الإسلاموفوبيا أولًا -وبشكلٍ مكثف- عن طريق إصدار بيانات الإدانة والتنديد عند وقوع أي من حوادث الكراهية ضد المسلمين. كذلك يصدر المجلس بيانات للإشادة والترحيب بالمواقف الداعمة للمساواة والداعمة لحقوق المسلمين، فضلًا عن البيانات التي يدعو فيها صناع القرار باتخاذ مواقف وخطوات ضد المتطرفين والإرهابيين سواء داخل الولايات المتحدة أو خارجها[٣].

كما يُصدر المجلس تقريرًا سنويًا بشأن الإسلاموفوبيا -غير متاح سوى أربعة تقارير على موقع المجلس لسنوات ٢٠١١، و٢٠١٣، و٢٠١٩ و٢٠٢٢- يتناول التقرير حالة الإسلاموفوبيا خلال العام، مستعرضًا عدد حوادث الكراهية التي قام بتسجيلها ورصدها، وكذلك شبكة تمويل المنظمات والأفراد المتطرفين المعادين للإسلام والمسلمين، ويُقدم التقرير توصيات أغلبها يكون موجهًا لمنظمات المجتمع المدني والمؤسسات الدينية[٤].

٢- مجلس الشؤون العامة الإسلامية (MPAC):

أُسس مجلس الشؤون العامة في عام ١٩٨٨، كلجنة للعلاقات العامة للمركز الإسلامي في لوس أنجلوس[٥]. يُقدم مؤسسو مجلس الشؤون العامة الإسلامية المجلس باعتباره "منظمة إسلامية وطنية أمريكية"، عملت على الانخراط في الهوية "الإسلامية الأمريكية"، حيث يرى مؤسسها الدكتور ماهر حتحوت أن هذا الانخراط في السياسات الوطنية، والبعد عن الاستقطاب الذي تقوم به الدول الإسلامية والمنظمات هو الكفيل بتجميع المسلمين تحت مظلة جامعة في الولايات المتحدة

(1) M. A. Muqtedar Khan, Political Muslims in America: From Islamism to Exceptionalism, Wiley Online Library, 09 March 2015, Available at: https://2u.pw/W9qaomK

(٢) إدارات ومديري مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/MJQge

(3)Ibrahim Hooper, CAIR Calls on Biden Admin to Stop West Bank Violence After Attacks on Christian Clergy, CAIR, 28 December 2023, Available at: https://cutt.us/Latx5.

(4) Monitoring and Combating Islamopobia, islamophobia, Available at: https://cutt.us/d1d7k

(٥) تاريخ تأسيس مجلس الشؤون العامة الإسلامية، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/cVJxfdM

الأمريكية[١].

ينصب عمل المجلس على أربع مجالات: مكافحة الإسلاموفوبيا في الولايات المتحدة، والتصدي لجهود بعض الوكالات الأمريكية التي تنتهك الحقوق الدستورية للمسلمين، والعمل مع حكومة الولايات المتحدة للحد من التطرف بين الشباب المسلم، والمساعدة في تشكيل سياسة خارجية تدافع عن المصالح الوطنية للولايات المتحدة دون شيطنة الإسلام والمسلمين[٢].

من خلال مراجعة موقع المجلس، نجد أنه يعتمد ثلاث آليات في مجال مكافحة الإسلاموفوبيا في الولايات المتحدة، فأولًا المجلس نشط في إصدار البيانات والتقارير على غرار مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية سواء في إدانة الاعتداءات على المسلمين أو الإشادة بمواقف وسياسات تُعزز من قيم العدل والتسامح، كذلك يدعو المجلس المسؤولين خاصةً الإدارة الأمريكية باتخاذ خطوات من شأنها الحد من المظالم التي يتعرض لها المسلمون في الولايات المتحدة أو خارجها، على سبيل المثال ينخرط المجلس بشدة في مطالبة الإدارة الأمريكية باتخاذ إجراءات سريعة لمعالجة المظالم الجسيمة التي يتعرض لها سكان غزة، والتعصب المتزايد تجاه المجتمعات المسلمة والعربية في الولايات المتحدة[٣].

إلى جانب البيانات، فإن المجلس قد طور عددًا من البرامج والمشاريع لمكافحة ظاهرة الإسلاموفوبيا، وتقديم صورة دقيقة عن الإسلام وللتعايش بين المسلمين وغيرهم من الأمريكيين خاصةً المسيحيين الإنجيليين. وفي هذا السياق، أطلق المركز "**مشروع بذور الخردل**" لعقد لقاءات وورش عمل بين المسلمين الأمريكيين والمسيحيين الإنجيليين لمعالجة المفاهيم الخاطئة والصور النمطية[٤]. هناك مشروع آخر قام به المجلس بالتعاون مع التحالف المدني الإسلامي في إلينوي، وهو "شبكة المسؤولين الأمريكيين المسلمين المنتخبين والمعينين"، والتي تعمل على دعم المسؤولين المسلمين الأمريكيين في الحكومة المحلية والفيدرالية، وتعمل من أجل التمثيل العادل في الحياة المدنية والسياسية الأمريكية[٥].

من أبرز الأدلة على انخراط "مجلس الشؤون العامة الإسلامية" في السياسة الأمريكية هو حضوره الدائم في المحادثات السياسية التي تُجريها الإدارة الأمريكية وأجهزتها، آخر تلك الجلسات التي حضرها قادة المجلس كانت جلسة استماع مع كبار مستشاري إدارة بايدن في البيت الأبيض لتقديم استراتيجيات حول كيفية مواجهة الإسلاموفوبيا في الولايات المتحدة على المستويين الحكومي والمجتمعي[٦].

ثالثًا- جهود المنظمات الإسلامية في مكافحة الإسلاموفوبيا في أوروبا

تبذل الجماعات المسلمة في أوروبا جهودًا حثيثة لمكافحة الإسلاموفوبيا، وذلك من خلال مجموعة متنوعة من المبادرات والآليات، حيث تتفاعل العديد من المنظمات مع قضايا الإسلاموفوبيا في الكثير من البلدان الأوروبية، وذلك بالأساس من خلال رصد حوادث الكراهية التي تحدث في هذه البلدان. من أبرز المنظمات الفاعلة في عملية الرصد نجد "**المنظمة الإسلامية لحقوق الإنسان (IHRC)**"، ومنظمة "**رصد الهجمات المعادية للمسلمين**" المعروفة باسم "**Tell Mama**" أي (أبلغ ماما)، و"**مرصد الإسلاموفوبيا في لوكسمبورج (OIL)**".

إلى جانب عمليات الرصد، تقوم تلك المنظمات بإصدار

(١) مقابلة الدكتور ماهر حتحوت مع برنامج "على هدى الله"، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/DgNJxGc

(2) M. A. Muqtedar Khan, Ibid.

(3) MPAC Urges the Biden Administration to Take Swift Action, MBAC, 16 October 2023, Available at: https://cutt.us/DM9It.

(٤) حول مشروع بذور الخردل، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/3X96E

(٥) حول شبكة المسؤولين الأمريكيين المسلمين المنتخبين والمعينين، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/oTNeR

(6) Readout of White House Listening Session on Islamophobia, White House, 03 May 2023, Available at: https://2u.pw/LdTqh8P

بيانات تدين حملات الكراهية، وتصدر تقارير تتناول حالة الكراهية في الدول الأوروبية، وتوجد منظمات تعمل على تقديم المناصرة والدعم مثل "**المجلس الإسلامي في بريطانيا (MCB)**". سوف نستعرض جهود ثلاث منظمات من تلك الكيانات التي تتعاطى مع الإسلاموفوبيا في أوروبا.

١- المنظمة الإسلامية لحقوق الإنسان (IHRC):

منظمة غير ربحية مقرها في لندن، تأسست في عام ١٩٩٧، تسعى إلى تعزيز حقوق الإنسان لجميع الأشخاص، بغض النظر عن دينهم أو عرقهم أو جنسهم أو توجههم الجنسي. تُركز المنظمة بشكلٍ خاص على حقوق المسلمين في العالم، وتعمل على حماية حقوقهم في حرية الدين والتعبير والتجمع. كما تعمل المنظمة كجماعة ضغط وتنظم الاحتجاجات من أجل مناصرة القضايا الإسلامية أو المسلمين الذين يتعرضون لاضطهاد في فلسطين وميانمار واليمن[١].

تعمل المنظمة على مكافحة الإسلاموفوبيا من خلال:

- **رصد الظاهرة:** يتيح موقع المنظمة ملء استمارة لمن تعرضوا لجريمة كراهية أو اعتداء، وتؤكد المفوضية علي سرية معلومات المُبلِغ وعدم نقلها لأي طرفٍ ثالث[٢].
- **تقديم دراسات وفق منظورات أكاديمية:** تنطلق دراسات المنظمة وفق منظور أكاديمي طوره سعيد ر.أميلي، الذي يُجادل بأن هجمات الكراهية والجرائم وأعمال التميز ليست أفعالًا عشوائية لأفرادٍ مختلين، بل أن الأشخاص الذين يرتكبون مثل هذه الأعمال تستفزهم بيئة من الكراهية تسببها السياسة ووسائط الإعلام والقوانين التي تستهدف مجتمعًا مكروها.
- **مؤتمر الإسلاموفوبيا:** منذ عام ٢٠١٤، نظمت المنظمة الإسلامية لحقوق الإنسان مؤتمرًا سنويًا في المملكة المتحدة لمناقشة القضايا الرئيسية فيما يتعلق بالإسلاموفوبيا الهيكلية والمؤسسية. تناولت تلك المؤتمرات عددًا من القضايا مثل الإسلاموفوبيا المؤسسية، والحروب الثقافية، واستكشاف التحولات في القوة العالمية وتأثيرها على التفكير المعادي للإسلام وغيرها[٣].
- **جوائز الإسلاموفوبيا:** تقوم المنظمة بعقد احتفالٍ سنوي لتوزيع جوائز بشكلٍ ساخر على أكثر الشخصيات المعادية للمسلمين، أو الذين تسببوا في حوادث كراهية خلال العام، يهدف الحفل إلى السخرية من المتطرفين لتقويض العنصرية عبر السخرية. كما يتم جمع التبرعات من الجمهور والحضور.

٢- مشروع رصد الهجمات المعادية للمسلمين (Tell Mama):

تم إطلاق مشروع "**رصد الهجمات المعادية للمسلمين**" في ٢١ فبراير ٢٠١٢ من قِبل مجموعة من النشطاء المسلمين المهتمين بقضايا الإسلاموفوبيا[٤]، وذلك بهدف رصد وتوثيق الهجمات المعادية للمسلمين في المملكة المتحدة، وتوفير بيانات تفصيلية عن طبيعة الحوادث والأدوات المستخدمة وغيرها من المعلومات، التي يُبلغ بها من تعرضوا لهجمات ويقوم المشروع بتسجيلها لديه[٥]. كما يقدم المشروع الدعم الاستشاري لضحايا الإسلاموفوبيا، بالإضافة إلى دراسة القضايا والدعم النفسي والمناصرة القانونية[٦].

تعمل المنظمة كذلك على إصدار بيانات لتوضيح حجم الظاهرة بشكلٍ دوري، وذلك للتحذير من استفحال

(١) موقع المنظمة الإسلامية لحقوق الإنسان، متاح عبر الرابط التالي: https://www.ihrc.org.uk/about-us/

(٢) صفحة الاستمارة، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/KhrCxeG

(٣) صفحة مؤتمر الإسلاموفوبيا، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/JrsR0dV

(4) TELL MAMA- Mesuring Anti-Muslim Attacks Launched Today, CST, 21 February 2012, Available at: https://2u.pw/88u3VZd

(٥) صفحة الاستمارة التي تتيحها المنظمة لرصد حوادث الإسلاموفوبيا، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/8t3fdYY

(٦) تقول المنظمة أنها تقدم تلك الخدمات بشكل مجاني، متاح عبر الرابط التالي: https://tellmamauk.org/our-services/

الإسلاموفوبيا خاصةً عند وقوع أحداث كبيرة تؤثر على تنامي المخاوف إزاء المسلمين، كما حدث مؤخرًا عقب عملية "طوفان الأقصى"، حيث سجلت المنظمة تصاعدًا حادًا في حملات الكراهية ضد المسلمين، في الفترة ما بين ٧ أكتوبر و١٣ ديسمبر ٢٠٢٣، مقارنةً بنفس الفترة مع العام السابق[١]. كما تُقدم المنظمة تدريبات أمنية وقائية لموظفي المساجد في المملكة المتحدة، تتضمن تلك التدريبات تقديم المشورة والتدريب للتعامل الأمثل في مواجهة عناصر اليمين المتطرف ممن ينوون شن هجمات على المساجد أو أعضاء الجالية المسلمة[٢].

وأخيرًا، فإن المنظمة تصدر عددًا من التقارير والدراسات التي تناقش فيها قضايا متعلقة بظاهرة الإسلاموفوبيا، كان أخر هذه التقارير ورقة بعنوان "**عقد من الكراهية ضد المسلمين**" تناولت فيه عرض الهجمات على المسلمين خلال الفترة من (٢٠١٢-٢٠٢٢)، وقدمت الورقة قراءة في الأرقام وأعطت تفسيرًا لها[٣].

تقرير آخر بشأن "**الشبكة المعقدة من الكراهية اليمينية المتطرفة المعادية للمسلمين**"، تم فيه تناول "**أندرو ليك**" الإرهابي اليميني الذي هاجم مركز للمهاجرين في مدينة دوفر الساحلية بجنوب إنجلترا بإلقاء ٣ قنابل حارقة عليه. وبعد تتبع وفحص عميق، وجد المركز أن "أندرو ليك" قبل الهجوم كان على تواصل مع عددٍ من الحسابات ذات التوجه اليميني المتطرف على وسائل التواصل الاجتماعي[٤].

٣- مرصد الإسلاموفوبيا في لوكسمبورج (OIL):

أُنشئ المرصد في يناير ٢٠١٨، بهدف مكافحة جميع الأعمال والسلوكيات ذات الطابع المعادي للإسلام، ومساندة ضحايا الإسلاموفوبيا من خلال تقديم الدعم والمتابعة القانونية والنفسية لهم، وكذلك أي دعم أو متابعة أخرى قد تحتاجها الضحية. فضلًا عن إجراء البحوث العلمية والقانونية، وإجراء التحقيقات، وكتابة التقارير المتعلقة بغرض الجمعية، وإقامة اتصالات وتسهيل التبادل مع المنظمات الوطنية والأجنبية ذات الصلة بمكافحة الإسلاموفوبيا[٥].

يُتيح المرصد من خلاله موقعه ملء استمارة لمن تعرضوا لجريمة كراهية أو اعتداء وكذلك للشهود على وقائع الكراهية[٦]، كما يصدر المرصد تقريرًا غير دوري يتناول فيه حالة الإسلاموفوبيا، ويُتيح الموقع الخاص بمرصد الإسلاموفوبيا تقريرين على موقعه الأول لعام ٢٠١٩[٧] والثاني لعامي ٢٠٢٠ و٢٠٢١[٨].

خاتمة:

استهدف التقرير رصد ظاهرة العداء للمسلمين في الغرب، والجهود والآليات التي اتخذتها المنظمات الإسلامية لمكافحتها أو الحد منها. فيما يتعلق بتفشي ظاهرة العداء للإسلام في الغرب، فقد وجدنا أن تلك الظاهرة ترافقت مع ما يمكن أن نطلق عليه "**عصر صعود القومية والشعبوية**" في العالم. في الغرب، تمكنت المنظمات والأفراد المعادون للمهاجرين بشكلٍ عام وللمسلمين بشكلٍ خاص من فرض أجندتهم التمييزية على

(1) Tell MAMA recorded 1,432 anti-Muslim cases between Oct 7 and Dec 13, TELL MAMA UK, 20 December 2023, Available at: https://2u.pw/pzpbbAf

(٢) حول تدريب موظفي المساجد، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/WFG6TvE

(3) A Decade of Anti-Muslim Hate, TELL MAMA UK, 20 July 2023, Available at: https://2u.pw/2H4BN8S

(4) The Tangled Web of Far-Right Anti-Muslim Hate, TELL MAMA UK, 03 November 2022, Available at: https://2u.pw/DDfDvjw

(٥) صفحة التعريف بمرصد الإسلاموفوبيا في لوكسمبورغ، على الرابط التالي: https://islamophobie.lu/qui_sommes_nous.php

(٦) استمارة الإبلاغ عن فعل معادي للإسلام والمسلمين، على الرابط التالي: https://islamophobie.lu/signaler.php.

(٧) تقرير مرصد الإسلاموفوبيا في لوكسمبورغ لعام ٢٠١٩، على الرابط التالي: https://2u.pw/zSjsZni.

(٨) تقرير مرصد الإسلاموفوبيا في لوكسمبورغ لعامي ٢٠٢٠ و٢٠٢١، على الرابط التالي: https://2u.pw/v5KGZXP.

القوى الليبرالية واليسارية، وأصبحت الحركات اليمينية المتطرفة والأحزاب السياسية المعادية للإسلام أكثر شعبية. الأمر الذي أدى لظهور تحديات كبيرة أمام المسلمين في الغرب والمنظمات التي تتعاطى مع الإسلاموفوبيا، والتي يمكن أن تظهر في أشكال مختلفة، بما في ذلك جرائم الكراهية والإساءة اللفظية والإقصاء الاجتماعي.

أما بخصوص الجهود التي تبذلها المنظمات الإسلامية للتعاطي مع ظاهرة الإسلاموفوبيا، فوجدنا أن تلك الجهود قد تنوعت بين رصد ومراقبة وسائل الإعلام وما تنشره، وتسجيل حوادث التمييز والكراهية من خلال إتاحة استمارات على مواقع المنظمات والمراصد المعنية بالظاهرة، وذلك بهدف التعامل معها قانونيًا وسياسيًا وتقديم الدعم لمن تعرض لحوادث كراهية، فضلًا عن إصدار الدراسات والبحوث واستطلاعات الرأي لمناقشة الظاهرة وتفكيكها وتقديم استراتيجيات حول السبيل الأفضل لمكافحتها، بجانب تقديم صورة إيجابية عن الإسلام والمسلمين.

كذلك قامت بعض المنظمات بتقديم تدريبات لموظفي المساجد حول التعامل مع الهجمات الإرهابية لعناصر اليمين المتطرف على المساجد والمسلمين. منظمات أخرى عمدت إلى إقامة ندوات، ومؤتمرات، وحلقات نقاش مع أفرادٍ مختلفين في العقيدة، بهدف تعزيز التعايش والفهم بين المسلمين وغيرهم داخل المجتمعات الغربية.

إن صعود المجموعات اليمينية واليمينية المتطرفة في الغرب كما أدى إلى صعود مخاطر جمة وتحديات جسيمة في مواجهة المسلمين، فإنه قد ولَّدَ فرصة أمام المسلمين لعرض رؤيتهم، خاصةً مع تخصيص العديد من الدول الغربية لموارد لمكافحة الظاهرة بعد تناميها بشكلٍ مثل تهديدًا لمؤسسات الدولة كما حدث في الولايات المتحدة عقب اقتحام مبنى الكابيتول، في ٦ يناير ٢٠٢١، قُبيل إعلان نتيجة الانتخابات الرئاسية. إن الإرهاب اليميني آخذ في التنامي، حيث بلغت الهجمات المرتبطة باليمين المتطرف ٦٠ في المائة من الحوادث الإرهابية في الولايات المتحدة. وشهدت أوروبا في عام ٢٠١٩ زيادة في عدد الاعتقالات المرتبطة بالإرهاب اليميني للعام الثالث على التوالي. وشملت الاعتقالات جهات فاعلة منفردة وشبكات، مثل جماعة إرهابية فرنسية خططت لتنفيذ هجمات على المسلمين، وشبكة إيطالية سويسرية تمكنت من الحصول على أسلحة متطورة، بما في ذلك صاروخ جو-جو[1].

وفي هذا السياق، من الممكن أن نقدم بعض المقترحات لتفعيل دور منظمات المجتمع المدني الإسلامي في الغرب في مواجهة ظاهرة الإسلاموفوبيا، ومن تلك المقترحات:

١- **تكثيف الجهد البحثي**: من الضروري تطوير جهد المراصد والمراكز البحثية في الغرب في التعاطي مع الظاهرة، وذلك من خلال تنويع التقارير والدراسات التي تصدر عنهم؛ فلا يتم الاكتفاء بالبيانات أو بالإصدارات السنوية، وإنما التوسع في إجراء الدراسات والبحوث الميدانية والمسوحات الخاصة بسياق وحجم تعرض المسلمين للتمييز وخطاب الكراهية والاعتداءات النفسية والجسدية، على أن يتم نشرها بشكلٍ دوري.

٢- **إصدار تقرير سنوي بمشاركة أكثر من منظمة حول الإسلاموفوبيا**: يرصد الظاهرة ويقدم توصيات لمكافحتها على نطاقٍ واسع، بما يساهم بشكلٍ كبير في مكافحة الإسلاموفوبيا وتعزيز الفهم والاحترام المتبادل بين المسلمين وغير المسلمين.

٣- **تعزيز الحملات الإعلامية**: وهذا بهدف زيادة الوعي بخطر الإسلاموفوبيا، وتعزيز الصورة الإيجابية للإسلام، وتصحيح المفاهيم الخاطئة، وتقديم أعمال درامية تعكس الصورة الحقيقية للإسلام والمسلمين.

٤- **عقد مؤتمرات دولية حول ظاهرة الإسلاموفوبيا**: وذلك من أجل تسليط الضوء على هذه الظاهرة، ومناقشة سبل مكافحتها.

٥- **إنشاء شبكة عالمية للمراكز والجمعيات التي تعمل**

(1) Rising Right Wing Violence Impacts Western Countries in 2021, Vision of Humanity, Available at: https://2u.pw/JLgpQs9

على مكافحة ظاهرة الإسلاموفوبيا: على أن يتم إنشاء مكتب متخصص لمكافحة الإسلاموفوبيا يكون مسؤولًا عن وضع السياسات، وتنفيذ البرامج في هذا المجال.

الشذوذ والتحول الجنسي بين الهجوم والمقاومة: حالة المسلمين في الغرب

عمر سمير*

مقدمة:

إن دخول نظريات الجندر والنوع الاجتماعي والجنسانية إلى مرحلة معرفية ترتقي فيها حد التحول إلى أيديولوجيا ودين جديد للعقل الغربي ودولته القومية الحديثة، قد فرض من التحديات على هذه المجتمعات ما استوجب مراجعات فكرية قوية لنظرياتٍ عدة، تتعلق بالنسوية والرؤية للذات والفرد والجنسانية بشكلٍ عام. وبالطبع، فإن العديد من هذه الرؤى والاقترابات تتعارض كليةً مع المنظور الإسلامي الذي يرى الجسد ملكًا لخالقه فقط، ويرى أن ثمة ميزان عدالة وحساب أخروي بعيدًا عن الفردانية المفرطة التي ذهبت بها القيم الرأسمالية والليبرالية الغربية إلى أقصى مدى.

تُواجه الأسرة التي هي نواة المجتمعات الإسلامية ووحدة التحليل الأساسية في المجتمع العربي الإسلامي تحديًا رئيسيًا يتعلق بمحاولة فرض قضايا الجندر والتحول والنوع الاجتماعي بتفاصيله من زاوية النظر الغربية فرضًا يتداخل فيه السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وهو تحدٍ وجودي لدى الأقليات المسلمة في الغرب. فلقد فُرض الأمر على التعليم وجرى تقنينه ودسترته؛ بحيث يتحول لنوعٍ من الإجبار للجميع على احترام هذه الرؤية الغربية المتهاوية للنوع الاجتماعي مفرطة الفردانية والمبتعدة عن كل ما هو جماعي، حتى بدأت المجتمعات الغربية نفسها تدرك خطورة ما وصلت إليه، وبالذات في الدول ذات الاتجاهات المحافظة القوية. في هذا الإطار، فإننا نحاول في هذا التقرير الإجابة عن تساؤل حول طبيعة التحديات التي تثيرها قضية الشذوذ والتحول الجنسي على الجاليات المسلمة في الغرب، ورصد وتحليل آليات التعامل مع هذه التحديات من قبل الجاليات.

أولًا- فرض الشذوذ كتحدٍّ واختبار ثقافوي أيديولوجي:

أية تناقضات مع الطبيعة العلمانية للدولة وحياد مؤسساتها تجاه الأديان والمعتقدات تعبر عنه المواقف الغربية إزاء قضية المثلية؟ بدأت العديد من الدول الأوروبية منذ مطلع الألفية في تقنين الشذوذ الجنسي وزواج المثليين، وكانت هولندا هي الدولة الأولى التي أقرت هذا النوع من الزواج في عام ٢٠٠١، ووفقًا لتقرير لقناة دي دبليو عربية، فإنه حتى عام ٢٠١٧ كانت قائمة الدول التي تُقنن زواج المثليين تضم ٢٥ دولة، وتوجد في القائمة الدول التالية: الأرجنتين، بلجيكا، البرازيل، كندا، كولومبيا، الدانمارك، المملكة المتحدة، فرنسا، ألمانيا، إيسلندا، إيرلندا، اللوكسمبورج، مالطا، هولندا، نيوزيلندا، النرويج، البرتغال، سكوتلندا، جنوب أفريقيا، أسبانيا، السويد، الولايات المتحدة، والأوروجواي، كما تسمح بعض الولايات في المكسيك بهذا الزواج[1].

الأمر لم يقتصر فقط على التقنين للممارسات، بل فرضها على الثقافة كجزءٍ منها يجب احترامه وإعطاؤه صفةً استثنائية بفرض تقبله على الجميع منذ الصغر، وهذا عبر البرامج التليفزيونية والأفلام والمسلسلات، بحيث أصبحت منصات مثل نتفليكس وبعض منتجي الأفلام والمسلسلات لكل الأعمار يتبنون القضية بشكلٍ ملفتٍ للنظر، فلم يعد يخلو فيلم خلال العقدين الماضيين تقريبًا من مشهد أساسي حول المثلية، على نحوٍ يحولها سياسةً عامةً للقائمين على الإنتاج والتوزيع. وعلى سبيل المثال، تم تداول مقطع فيديو عبر منصات التواصل، تؤكد فيه رئيسة المحتوى الترفيهي في شركة ديزني الأمريكية،

---

* باحث في العلوم السياسية.

(١) بعد انضمام أستراليا.. ما هي الدول التي تسمح بزواج المثليين؟، موقع قناة دي دبليو عربية، بتاريخ ٢٠١٧/١٢/٧، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/48gAI7Q

كيري بيرك، النية لتقديم ٥٠٪ من شخصياتها الكرتونية من المثليين وغيرهم من المختلفين عرقيًا وجنسيًا، بحيث لا يكون ظهورهم فقط في مشاهد عابرة ولكن يُصبحون أبطالا للقصص[١]. وكأن ديزني تقول لجمهورها الصمت أيها الأوغاد، نحن ندافع عن حرية المثليين وممارساتهم.

الملاحظ هنا، أن الدول التي أقرت قوانينها مبكرًا شرعية هذا النوع من الزواج هي الأكثر تطرفًا في مواجهة الإسلام والأكثر تطرفًا في حوادث الإسلاموفوبيا، وعلى رأسها هولندا التي لديها رئيس حزب معارض رئيسي ونائب برلماني (هو جيرت فيلدرز) يشن الحملات شبه الموسمية ضد الإسلام ونبيه "صلى الله عليه وسلم"، ويرى أن الإسلام يتناقض كليًا مع الحرية والمساواة والقيم الغربية ويتخذ مواقف شديدة التطرف ضد المهاجرين.

وبشكلٍ عام، فقد ازداد في السنوات الخمس الأخيرة سُعار الترويج للشذوذ الجنسي في الغرب ليصل إلى حدٍ تجاوز فيه مجرد التشريع، وإقحامه في المناهج التعليمية للأطفال، وفتح باب التحول الجنسي أمامهم ضمن ما يُعرف بـ "التوعية الجنسية"[٢].

وبهذا التصور الغربي للمسألة الجنسية تطورت الظاهرة الخاصة بدعم المثليين أو حمايتهم، من مجرد مطلب حقوقي فئوي يحمل لافتة "الحرية الفردية" إلى "خطاب أيديولوجي رسمي" Official ideological discourse حيث استُغِل سياسيًا من قِبل الأحزاب والحركات الليبرالية اليمينية واليسارية على السواء في الغرب. واتجهت دول عدة إلى تشريع زواج الشواذ قانونيًا، وإعادة تعريف مفهوم الأسرة في الدساتير؛ بحيث يشمل (أبوين من نفس الجنس + أطفال)[٣]، في تحدٍ كبير لقيمٍ غربية سادت لقرونٍ حول احترام الأسرة كوحدة تحليل أساسية في دراسة الدولة الحديثة والمجتمع المعاصر.

الأمر لم يقف عند حدود الدولة القومية الغربية، وإنما امتد ليشمل المنظمات الدولية ومحاولة فرضه على أجندتها بشكلٍ فج باعتباره إحدى المسلمات، وقد تم إطلاق حملة "أحرار ومتساوون" بعد جهد عام من قِبل مكتب المفوضة السامية لحقوق الإنسان وشركاء الأمم المتحدة في يوليو ٢٠١٣ في كيب تاون، بجنوب أفريقيا. وركزت الحملة على الحاجة إلى كلٍ من الإصلاحات القانونية والتعليم العام لمواجهة ما يسمونه "رهاب المثلية الجنسية"، فيما يُعتبر السلوك المثلي جريمة جنائية في أكثر من ثلث بلدان العالم عددًا وثلثيها أو أكثر سكانًا. لقد أطلق مكتب الأمم المتحدة لحقوق الإنسان الحملة باعتبارها أول حملة "توعية عالمية عامة" ترمي إلى رفع مستوى الوعي والاحترام والمساواة للمثليات والمثليين، ومزدوجي الميل الجنسي، ومغايري الهوية الجنسانية، بحسب موقع الأمم المتحدة.[٤]

ثانيًا- التعليم والمؤسسات الدينية كمجال حيوي لنشر تلك القيم:

بعد تحويل الشذوذ لأيديولوجيا وخطاب رسمي، وبُعيد اتباع سياسة تطبيع الشذوذ كسياسة تدل على الانفتاح والتقدمية واستخدامها على نطاق واسع لابتزاز الأقليات المهاجرة من مجتمعات لا تقبل مثل هذه السلوكيات، فإنه بإدخالها **للتعليم** حتى سن مبكرة جدًا للأطفال باعتبار النوع خيارًا شخصيًا وليس أمرًا فطريًا، وجدت المجتمعات المسلمة وعموم المهاجرين من بلدان لا تقبل ثقافتها هذا الشذوذ أنفسهم في مأزق إما القبول بالنمط التعليمي الرسمي كحق عام ممزوج بهذه القيم الشاذة مع محاولات لمعالجة تأثيراته على أسرهم وأطفالهم، أو الانطواء ومحاولة البحث عن أنظمة تعليمية منزلية بديلة.

المشكلة هنا أن العديد من البلدان تجعل الذهاب للمدرسة إلزاميًا، فبينما تقر بحق الطفل في تحديد جنسه تُنكر عليه

---

(١) Megyn Kelly Reacts to Leaked Videos of Disney Execs Talking LGBTQIA+ Issues and Kids, 30/03/2022, available at: https://bit.ly/41LozFl

(٢) عمر الشيخ، "تطبيع الشّذوذ" خطوٌ نحو الحرية أم ركض نحو العدمية؟!، مدونات الجزيرة، بتاريخ ٢٠٢٣/١٠/٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3tEyznl

(٣) المرجع السابق.

(٤) الأمم المتحدة تطلق حملة "أحرار ومتساوون" لتعزيز حقوق المثليين ومزدوجي الميل الجنسي ومغايري الهوية الجنسانية، أخبار الأمم المتحدة، بتاريخ ٢٠١٣/٧/٢٦، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/47kcgAY

قدرته العقلية وقدرات أهله البالغين في تقرير ذهابه إلى المدرسة من عدمه، فالتمدرس فعل أصيل في الدولة الحديثة كآلية لتحقيق الاندماج والانصهار في ثقافة قومية. ولا شك أن هذا يتناقض كليًا مع قيم الحرية والتنوع وقبول الآخر ذاتها، والتي تُستخدم للدفاع عن حقوق الشواذ باعتباره خيارًا شخصيًا حرًا، وهو التناقض الثاني بعد فشل محاولات إثبات أن هذا الشذوذ هو أمر علمي بحت، حيث لم يثبت العلم الغربي الحديث بعد وجود جين لنوع ثالث غير جينات الذكور والإناث، وبالتالي تجد ادعاءات العلمية وعلموية هذا الطرح نفسها في مأزق علمي وفلسفي بالأساسيات وليس الفرعيات.

وهذا التناقض يُراد له أن ينتقل للدولة ذاتها، فهي كدولة "علمانية"، إذا تعاملنا مع المصطلح من منطق علمي تحليلي بحت، لا تجد في أصولها ما يُبرر الدفاع المستميت عن هذا الشذوذ كأمر علمي طبيعي، ولا تجد في الفلسفة والتراث السياسي للدولة الليبرالية بأيديولوجياتها وتفرعاتها أساسًا للدفاع عنه كخيار شخصي. ومن ثم، بالمضي قدمًا في هذه الخيارات الشخصية المنحرفة والدفاع عنها هي أوجدت نمطًا سلوكيًا مما لا يمكن الدفاع عنه، وبالطبع هو يحتاج إلى سياسات عامة للتعامل معه، ويحتاج لسلطة تفرض احترامه، وثروة تمول التعليم بشأنه، وربما التبعات الصحية والاقتصادية لهذه الخيارات المتطرفة. وهو ما يستفز الغالبية الساحقة وهم دافعي الضرائب الرئيسيين في تلك الدول، وبالتالي لديهم الحق في الاعتراض على إنفاق أموالهم على تعليم لا يُلبي احتياجات أبنائهم وقيمهم المحافظة.

وبالنسبة للتعليم، اتجهت عدة دول لتقنين تعليم المثلية الجنسية والتحول الجنسي وتفاصيلهما ضمن "الثقافة الجنسية" نزولا للصفوف الأولى من المدرسة، فعلى سبيل المثال القانون الجديد الذي أقرت فيه الحكومة البريطانية إلزامية تعليم ثقافة العلاقات الجنسية المثلية للطلاب في المدارس، وعدم السماح لأولياء الأمور الرافضين لتلك الدروس بسحب أبنائهم، هو أيضًا يعتبر أن الاطلاع على هذه الممارسات هي حق من حقوق كل طالب وطالبة، وقد أثار هذا قلقًا عميقًا لدى الملايين من مسلمي المملكة المتحدة[١]. وفي الحقيقة، فإن هذا يتعدى على حرية الطالب وأسرته.

إن التطبيع مع الشذوذ اقتضى فرضه كثقافة عامة أو جزءٍ منها، بل كأيديولوجيا، بحيث أصبح الأمر مفروضًا في النقاشات العامة والتعليم الرسمي، وليس حتى كمسألة جدلية خلافية بل كمسلمة عليك أن تثبت أنك تقدمي بقبولك لهذا الأمر ودراسة وتدريس مقررات تعليمية عنه، لتصبح جديرًا بالمواطنة والإقامة والعمل في تلك البلاد. علمًا أنه لم تعد استمارة عمل واحدة تخلو من أسئلة مفخخة حول هذا الأمر، حتى لطلاب المنح الدراسية الذين من المقرر أن يعودوا لبلدانهم بعد إنهاء دراستهم.

لم يقتصر الأمر على شرعنة هذا الانحراف قانونيًا وتعليميًا وثقافيًا وفرض التطبيع معه مجتمعيًا، بل ذهب الأوروبيون بعيدًا إلى حد محاولة إيجاد **مخرج ديني** لهؤلاء الممارسين لتلك الانحرافات، فها هو البابا فرانسيس، الذي تم تصديره للعالم باعتباره رمزًا للإنسانية والسلام والتسامح وتحويله أيقونة لاتينية للتواصل بين الشمال والجنوب ومختلف الأديان، يُصرح في أكتوبر ٢٠٢١ بأن "المثليون أبناء الرب، ولهم الحق في تكوين أسرة". المشكلة أن هذا الموقف يتعارض مع موقف كنسي سابق، ففي عام ٢٠٠٣، قال مجمع عقيدة الإيمان التابع للفاتيكان إن "احترام الأشخاص المثليين لا يمكن أن يؤدي بأي شكلٍ إلى الموافقة على السلوك المثلي، أو الاعتراف قانونيًا بشراكات المثليين"[٢].

لكن الموقف الجديد للبابا فرانسيس يعتقد أن على الكنيسة دعم قانون شراكة مدنية للمثليين لمنحهم "الغطاء القانوني"، في منطقٍ يتناقض مع جوهر المسيحية كدين سماوي

(١) تدريس المثلية الجنسية في المدارس.. رعب وقلق يجتاحان الجالية العربية، موقع عرب لندن، بتاريخ ٢٠١٩/٧/١٦، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3TJvUmN

(٢) البابا فرانسيس: المثليون أبناء الرب ولهم الحق في تكوين أسرة، بي بي سي عربي، بتاريخ ٢٠٢١/١٠/٢١، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/4aBQbRt

يُشجع على العفة ويُحافظ على الأسرة، كما يتعارض وفكرة الأسرة ذاتها تمامًا، إلا إذا كان الغرض من تكوين الأسرة في الدولة الأوروبية الحديثة هو تحرير الممارسة الجنسية من كل قيدٍ أو شرط لا تقره الإرادة الفردية باعتبار الفرد مركز الكون وسيده، بل والتشجيع على العلاقات الشاذة.

وانتهى الأمر بالبابا من المراوغة ومجاملة الفئات المحافظة في المجتمع إلى تغيير جذري مؤخرًا؛ حيث قام بابا الفاتيكان بالموافقة رسميًا على مباركة "الأزواج المثليين"! وأكدت الفاتيكان رسميًا على السماح للقساوسة بمباركة الأزواج المثليين، بحسب ما جاء في وثيقة جديدة في ١٨ ديسمبر ٢٠٢٣ ويأتي إصدار الوثيقة، بعد يوم من مباركة قس في كنيسة بروتستانتية بإنجلترا، زواج كاهنتين تعملان في نفس الكنيسة[١]. أي أننا لا نتحدث عن انحراف عادي، بل داخل الكنيسة نفسها ويتم مباركته باسم الدين.

ويضطر أحيانًا بعض الأهالي لتغييب أبنائهم في بعض الدروس حتى لا يتعرضوا لجرعات مكثفة من التطبيع القسري مع المثلية، لكن للأسف فإن من لا يمتثل من الأسر المهاجرة لقواعد التعليم والتثقيف الجنسي في بلدان عديدة يُعرض نفسه لعقوبات ويُنبذ الطفل، أو كما في السويد قد يُواجه مطاردة واختطاف أطفاله من قبل دائرة الشؤون الاجتماعية المعروفة وسط المهاجرين بـ"السوسيال". وقد واجهت تصرفات السوسيال عدة احتجاجات على مدار السنوات الماضية، حيث حرمت آلاف الأسر من الحق في تربية أبنائها وفق قيمها، بل وتقوم في العديد من الأحيان بعرض الأطفال للاحتضان الذي هو الحل الوحيد للأسر المثلية، إذ يصبح حلا سحريًا لمعضلة الإنجاب في هذه العلاقات الشاذة.

المشكلة الأكبر هنا أن هؤلاء الأطفال، وهم بعشرات الآلاف إن لم يكن مئات الآلاف، في عموم الغرب الأوروبي والأمريكي قد يواجهون مصيرًا صعبًا، وقد أشار إليه السياسي السويدي أوفه سفيدين، في كتابه "تجارة الأطفال المربحة"، والذي اتهم فيه قيادات في مؤسسة السوسيال بالاتجار في الأطفال واستغلالهم جنسيًا. حيث يشير إلى أنه من الممكن فيما بعد، استخدام الأطفال المختطفين كعمال غير مدفوعي الأجر في مزرعة، أو بيعهم لمدمني الجنس، أو لمشتهي الأطفال من الأثرياء، أو يتم استخدامهم كفئران تجارب في صناعة المستحضرات الصيدلانية[٢].

هذه المخاوف بالإضافة للممارسات الكارثية للسوسيال باعتبار الدولة من تنفق على الطفل، وهي أهم من الأب والأم والعائلة، دعت العديد من مشاهير الجاليات الإسلامية للهجرة العكسية وترك بلدان المهجر والاتجاه لبلدان أخرى سواء تركيا أو ماليزيا أو إندونيسيا أو الخليج[٣].

ثالثًا- أنماط المقاومة التعليمية لهذه التحديات في أوساط الأقليات المسلمة:

بتتبع ردات فعل المجتمعات المسلمة في الغرب، نجد أنه قد تنوعت التفاعلات ما بين محاولات المقاومة لتلك التعديلات القانونية وسياسات الفرض الأيديولوجي للأمر، سواء عبر استخدام الطرق القانونية والسياسية لمواجهتها بالمثل، أو خيارات الهجرة الداخلية والخارجية بحثًا عن ملاذٍ آمن وأماكن أقل تشددًا في إلزام الآباء والأبناء بمقررات دراسية وتثقيفية، أو نمط العودة للأوطان وما يطرحه من تحديات.

ومن أبرز الخيارات التعليمية التي تلجأ إليها الأقليات المسلمة:

تجارب التعلم الذاتي والمنزلي: منذ عدة سنوات يُبشر

---

(١) تغيير جذري.. بابا الفاتيكان يوافق رسميا على مباركة "الأزواج المثليين"!، قناة روسيا اليوم، بتاريخ ٢٠١٣/١٢/١٨، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3S2A7kz

(٢) تحقيق بعنوان ""برعاية الشرطة".. اختطاف أطفال المهاجرين لصالح عائلات سويدية تجني من ورائهم مبالغ طائلة، عربي بوست، بتاريخ ٢٠٢٢/٢/١، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/48y3mB1

(٣) على سبيل المثال يمكن مشاهدة فيديو اليوتيوبر الصحفية المصرية أسماء الشريف التي اضطرت لمغادرة السويد، بعنوان تركت السويد وعارفاكم هتفرحوا لي"،على قناتها على اليوتيوب بتاريخ ٢٠٢٢/١١/١٨، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/47iBJe3

البعض بانتهاء عصر التمدرس التقليدي بالذهاب للمدرسة واتباع مناهج تعليمية محددة، ولهذا دوافع عديدة بعضها يُقدم كحلول للتكلفة العالية للتمدرس التقليدي من أبنية تعليمية وتجهيزات ومصروفات إدارية مبالغ فيها، أو كحل عملي لمسألة تكدس الطلبة بالمدارس التقليدية التي تصل للعمل ثلاث فترات لتخفيض الكثافة الطلابية بالفصول في العديد من البلدان العربية والأفريقية والآسيوية الفقيرة.

وفي ظل الجائحة المتعلقة بفيروس كورونا بين عامي ٢٠٢٠-٢٠٢٢، فإن الانتقال لنمط التعليم الإلكتروني تلقى دفعةً قوية بالتحول للمنصات التعليمية والمدارس الإلكترونية. وهنا، فإن الأمر بالنسبة للأقليات العربية والإسلامية في الغرب يُصبح مثارًا للتساؤل: لماذا لا نتحول لهذا النمط من التعليم الإلكتروني أو التعلم الذاتي؟ وهو ما يوفر في الكلفة ويصبح مخرجًا لمسألة القيم هذه؛ بحيث يصبح من حق الطالب ووالديه اختيار مواد أساسية واجتيازها بما يؤهله للمراحل التعليمية الأخرى، دون إقحام تلك المواد التي تُفرض فرضًا على الجميع والمتعلقة بثقافة الشذوذ.

ولكن يفترض هذا النمط من التعلم وجود حد أدنى للمهارات الرقمية لدى المهاجرين، وإذا أدركنا أن هذه المهارات في بلدان الاتحاد الأوروبي البالغ عددها ٢٧ هي موزعة توزيعًا غير متساوٍ، إذ يتمتع ٥٤٪ فقط من البالغين بمهارات رقمية أساسية على الأقل في عام ٢٠٢١[١]، فكيف هي لدى المهاجرين من بلداننا؟ وكيف بالأمر في إطار محاولة تعليم مناهج بلدان الاستقرار الجديدة؟! الأمر يبدو صعبًا على الوالدين، حيث يقتضي تفرغًا لأحد الوالدين لتولي مهمة المعلم في مراحل التعليم الأولى، أو تقسيم مهام جماعي بين مجموعة من الأسر، بحيث تقوم كل أم أو أب بتدريس مادة يُجيدها الشخص ليصبح لدينا مدرسة مصغرة، وبالطبع فإن توافر المواد الشارحة إلكترونيًا قد يُسهل هذه العملية لكن المتابعة شديدة الصعوبة.

خيار التعليم وفقًا لمنهج البلد الأصلي للمهاجرين: وهو خيار قد يتناسب مع المهاجرين المؤقتين وليس من يُقررون الاستقرار في بلدان اللجوء والهجرة والحصول على جنسياتها، كما يرتبط الأمر بمدى مرونة النظام التعليمي للدولة المضيفة، فإذا ما تجاوزت الدول الغربية فكرة إلزامية التعليم للأجانب عبر الحضور اليومي للمدرسة، فإنه تتاح لدى البعض خيارات مواصلة التعليم وفقًا للمناهج التعليمية لبلدانهم الأصلية، وهو حق يُفترض أن يكون مكفولا، وهو وإن كان لا يُعزز خيارات الاندماج أو الدمج القسري التي تخدم الأهداف الأيديولوجية للدولة الحديثة، إلا أنه خيار منطقي لمن لا يريد أن يتشرب أبناؤه هذا النوع من القيم.

وفي هذا الصدد، تصبح المهمة ملقاة على عاتق البلدان المصدرة للهجرة لإنشاء مدارسها بدول المهجر وتيسير آليات المتابعة والتعلم والامتحان وإصدار ومعادلة الشهادات، بل وحتى تعزيز آليات بديلة للاندماج، بما يضمن عدم تسرب تلك القيم للأطفال في سن مبكرة على أقل تقدير.

وتصبح الدول الأكثر دعمًا لجالياتها في الخارج هي الأكثر قدرة على الحفاظ على هويتهم في مواجهة الحملة الشرسة للأفكار الشاذة. وفي هذا الخيار، نجد أن الصين وروسيا، وهما تتبنيان مواقف صلبة ضد الشذوذ، تواجهانه بسياسات تعليمية في الداخل والخارج، ويمكن الاستفادة من تلك التجارب في مجال التعليم لأبناء البلدين في المهجر.

كما نجد أن الحكومة التركية تُتيح آليات جديرة بالدراسة والبحث لتعزيز الهوية والقيم للجاليات التركية في أوروبا، وبالذات في ألمانيا، حيث تفتتح المزيد من المدارس وتتفاوض لافتتاح مدارس جديدة، وتربط الأمر بما هو متاح لديها من أنشطة للمدارس الأجنبية توسعًا وتضييقًا قدر الإمكان. فبرغم أنه وقبل ١٥٢ عامًا، تأسست المدرسة الألمانية في إسطنبول، لتتبعها مدرستان أخريان في أنقرة وإزمير، إلا أن ألمانيا تماطل في

(١) التكنولوجيا في التعليم: من يضع شروط هذه الأداة؟، موقع اليونسكو، ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3H8RGc5

السماح بافتتاح مدارس تركية، ومؤخرًا تحاول تركيا افتتاح ثلاث مدارس لها في ألمانيا وسط أخذ وردّ حول اتفاقية تمكّن تركيا من إنشاء مدارس في ألمانيا، غير أنّ المسألة أثارت مخاوف كثيرة وانتقادات مختلفة في برلين لأسبابٍ متعددة، منها ما هو اجتماعي، فيما ثمّة أحزاب تشير إلى تبعات قانونية وسياسية[١].

وفي خيارات أكثر راديكالية، وتحديدًا في الغرب الأمريكي، رأينا حادث قيام شاب أمريكي من أصول أفغانية يُدعى عمر متين بفعل متطرف عبر قتل أكثر من ٥٠ شخصًا في هجومه المسلح على ملهى للشواذ في ولاية أورلاندو الأمريكية في ١٣ يونيو ٢٠١٦. وجرت عدة محاولات للربط بينه وبين "داعش"، حيث أشارت تقارير إعلامية إلى أن متين اتصل قبل الحادث برقم هاتف الطوارئ، وأعلن ولاءه لتنظيم الدولة الإسلامية، بينما قالت مصادر إنفاذ القانون حينها إنه "لا مؤشرات مباشرة على أن لعمر متين ارتباطات بتنظيم الدولة".[٢]

وهذا الفعل على ندرته، إلا أن الحادث جرى استحضاره وأدى لنتائج عكسية عبر استغلاله دعائيًا بالتماشي مع فكرة تشريع وتقنين زواج الشواذ، والتي تمت قبلها بعام. ففي يونيو ٢٠١٥، شرّعت المحكمة العليا الأمريكية تزويج الشواذ جنسيًا، في كل الولايات الأمريكية، رغم رفض الكنيسة الكاثوليكية لهذا التشريع الملزم، وهو الموقف القانوني الذي استُحضر في خضم التعاطي مع الحادث. ولكن كثير من الباحثين والمفكرين الإسلاميين حينها أنكروا هذه الجريمة بشكلٍ واسع، وبالذات علماء المهاجر الإسلامية في الغرب مدللين شرعًا وفقهًا وقانونًا على جرمها وإدانتها، حيث استخدم الحادث دعائيًا بقوة من قبل اليمين المتطرف وحملة ترامب. ومثل هذه الحوادث بحسب البعض هي مغذي رئيس لمشروع اليمين والمخابرات الغربية، فالعداء الثقافي يحتاج لإمداده بما يبرر قراراته المتطرفة بحق الأقليات المسلمة، أو يزيدها عنفًا ضد المسلمين من حكومات أو لوبيات ثقافية[٣].

وتأتي الخيارات المتطرفة عادةً كردة فعل على سياسات يمينية متطرفة مدفوعة بالإسلاموفوبيا، حيث إغلاق العديد من المساجد والمدارس الدينية، وهي حملات شبه ممنهجة ضمن أجندة معادية للمسلمين. فوفقًا لبعض التقارير حول حظر المدارس الإسلامية بالسويد، يرى البعض بأن إغلاق المدارس "ليس مرتبطًا بالتعليم، لكن بسبب المناخ السياسي المعادي للمسلمين"؛ إذ أن السياسيين الذين يُطبعون مع ظاهرة الإسلاموفوبيا ويجعلون الحياة أكثر صعوبةً بالنسبة للأقليات، يتحدثون فقط عن مشاكل مع المدارس الإسلامية بزعم "إيقاف التطرف"، وفي هذا السياق تم إغلاق نحو ٢٠ مدرسة تُصنف نفسها على أنها إسلامية أو يملكها مسلمون[٤].

رابعًا- المواجهة المؤسسية والاحتجاجية والتشريعية:

على جانبٍ آخر، هناك **مواجهة مؤسسية** تقوم عليها المؤسسات الكبرى في العالم الإسلامي ومن ضمنها الأزهر الشريف، وقد صدر عن مركز الأزهر العالمي للفتوى الإلكترونية، عدة بيانات مؤخرًا للحديث حول هذا الموضوع. على سبيل المثال، في ديسمبر ٢٠٢١، حذر المركز من المواد الإعلاميَّة التي تستهدف تطبيع الشذوذ الجنسي، وأكد على موقف الأزهر الثابت بأن الشذوذ الجنسي فاحشةٌ مُنكرَة، وانحلالٌ أخلاقي بغيض، ومخالفةٌ لتعاليم الأديان، وانتكاسٌ للفِطرة الإنسانية السَّوية، وإمعَانٌ في الماديّةِ وتقديسِ الأهواء.[٥]

(١) مدارس تركية محتملة في ألمانيا وسط مخاوف من المسّ بالقيم، العربي الجديد، بتاريخ ٢٠٢٠/١/١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/48iRF1g

(٢) عمر متين منفذ هجوم أورلاندو، الجزيرة نت، بتاريخ ٢٠١٦/٦/١٣، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3RJE7EY

(٣) مهنا الحبيل، مافيا الشذوذ.. انحطاط غربي واحتلال للضمير الإنساني، الجزيرة نت، بتاريخ ٢٠١٦/٦/٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/41JGLPW

(٤) بمزاعم الحد من التطرف.. السويد تحظر المدارس الإسلامية (تقرير)، وكالة الأناضول للأنباء، بتاريخ ٢٠٢٢/١١/٢٥، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3H0qTig

(٥) صفحة مركز الأزهر العالمي للفتوى الإلكترونية على الفيس بوك، بتاريخ ٢٠٢١/١٢/٤، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/47k3LWz

كما وصف شيخ الأزهر، الدعوات لتقنين الشذوذ والتحول الجنسي بأنه غزو ثقافي غربي، ووصفه بـ"الغيوم السوداء الداكنة بدعاوى الحقوق والحريات"، وفق بيان للأزهر[١]، والذي لا شك أن له صداه وأثره كمرجعية بالنسبة للأقليات المسلمة في الغرب.

هناك أيضًا عدة **أنشطة احتجاجية وتنسيقية** قام بها نشطاء مسلمون ومؤسسات إسلامية مع تيارات محافظة وقادت لنتائج جيدة، على سبيل المثال وفي العام ٢٠٢٢، احتج العديد من أولياء الأمور في ولاية ماريلاند في اجتماعات مجلس إدارة المدرسة بسبب إطار التثقيف الصحي الذي تضمن مناقشات حول الهوية الجنسية في صفوف المستوى الابتدائي. كما كان هناك جهود لـ "ائتلاف الفضيلة"، وهي جماعة حقوقية تمثل المسلمين في الولايات المتحدة، بالتنسيق مع الجمهوريين للوقوف بوجه مساعي تدريس "منهج الجنس المثلي" بالمدارس الأمريكية. وكان المشرعون الجمهوريون قد اقترحوا، في أكتوبر ٢٠٢٢، قانونًا جديدًا يحظر على المدارس العامة تقديم دروس أو أدبيات للطلاب الصغار تناقش الهوية الجنسية والتوجه الجنسي والأفراد المتحولين جنسيًا. وعلى خلفية دعم جمعيات إسلامية لهذا التوجه الجمهوري، واجهوا اتهامات بتجنيدهم من قبل الجمهوريين ضد مجتمع المثليين والمتحولين، لا سيما فيما يتعلق بقضية التعليم الجنسي ضمن المناهج الدراسية، وقد رفض ممثلون عن المسلمين الأمريكيين هذه المزاعم موضحين بأن هذا موقف عقيدي[٢].

لكن بايدن اليميني الجمهوري نفسه، وقع في ١٣ ديسمبر ٢٠٢٢، قانونًا يحمي زواج المثليين في جميع أنحاء الولايات المتحدة[٣]. ومنذ إلغاء المحكمة العليا للولايات المتحدة جميع حالات الحظر على زواج مثليين جنسيًا عام ٢٠١٥، وإجازته في جميع الولايات الـ٥٠، وطلبها من كل الولايات الاعتراف بتراخيص زواج المثليين من خارج الولايات، أصبحت قضايا الهويات الجنسية إحدى أهم القضايا التي تسبب خلافات حادة واستقطابًا بين الأمريكيين، خاصةً في ظل موقف التيارات المحافظة والأقلية المسلمة، من هنا جاء إصدار عشرات العلماء والنشطاء والخطباء المسلمين بيانًا في مايو ٢٠٢٣، يوضح موقف التعاليم الدينية الإسلامية من هذه التحديات، مع التأكيد على الحق في التعبير بحرية عن معتقداتهم الدينية، والاعتراف في الوقت نفسه بالالتزام الدستوري بالعيش بسلام مع أولئك الذين تختلف معتقداتهم عن معتقداتنا، وجاء عنوان البيان "اختلاف وجهات النظر: توضيح حول الأخلاق الجنسية والجندرية في الإسلام" شاملا يعرض من خلاله موقف التعاليم الإسلامية من قضية الممارسات والهويات الجنسية بالتمسك بالأسس الإسلامية، وبالحق الدستوري في التعبير عن هذه المعتقدات دون التعرض لضغوط وابتزازات "مجتمع الميم".[٤]

خامسًا- في المواجهة الشاملة.. العالم أكبر وأوسع من الغرب:

على الطرف الآخر من العالم، وبينما يسعى الغرب لعولمة ما يسميه "الحركة الدولية للمثليين ومزدوجي الميل الجنسي ومغايري الهوية الجنسانية"، باعتبارها جزءًا من حركة اجتماعية عالمية أو موجة من موجات العولمة، نجد موقفًا روسيًا وصينيًا وآسيويًا أكثر تشددًا تجاه قضية المثلية الجنسية والتحول الجنسي والمنظمات الداعمة لهذه التوجهات.

على سبيل المثال، في الخامس من ديسمبر ٢٠٢٣ وجهت **روسيا** ضربةً مزدوجةً لمنظمات الشذوذ الجنسي، بعد أن سنت

(١) شيخ الأزهر: غزو ثقافي غربي لتقنين الشذوذ والتحول الجنسي، وكالة الأناضول للأنباء، بتاريخ ٢٠٢١/١٢/١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3S22RcS

(٢)" منهج الجنس المثلي" بالمدارس الأمريكية يشعل الجدل.. وأصابع اتهام نحو المسلمين، موقع قناة روسيا اليوم، بتاريخ ٢٠٢٣/٧/٥، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/47pe6AC

(٣) بشّر به قبل ١٠ سنوات.. بايدن يصدر قانونا يحمي زواج المثليين، الجزيرة نت، بتاريخ ٢٠٢٢/١٢/١٤، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/48EmNs4

(٤)محمد المنشاوي، نشطاء المسلمين الأميركيين يوضحون موقف الإسلام من "المثلية الجنسية"، الجزيرة نت، بتاريخ ٢٠٢٣/٥/٢٨، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3NKclag

قانونًا جديدًا بحظر أنشطة هذه المنظمات على كافة الأراضي الروسية، وإدراجها ضمن قائمة المنظمات المتطرفة، في حلقةٍ جديدةٍ من مسلسل الحرب على ما تصفه روسيا بالتوجهات الجنسية غير التقليدية والمنافية للقيم الاجتماعية. ومنذ نهاية عام ٢٠٢٢، نجد أن روسيا فرضت مسؤولية إدارية وجنائية على "الدعاية للعلاقات الجنسية غير التقليدية، والولع الجنسي بالأطفال، وتغيير الجنس بين الأشخاص من كافة الأعمار". وقبل ذلك، كان القانون يقتصر فقط على الدعاية للشذوذ بين القاصرين، وهو الأمر الذي لاقى صدى في بعض دول شرق ووسط أوروبا مع صعود حكومات محافظة، حيث عمل ناشطون في **المجر** على سن قوانين تحظر الدعاية للشذوذ في المدارس، مشيرين إلى ضرورة الاستفادة من التجربة الروسية في تحصين المجتمع تشريعيًا ودعائيًا لمواجهة حملة الترويج للقيم غير التقليدية، أما في **بولندا**، ومع وصول المحافظين إلى السلطة، انخفض مستوى التسامح تجاه الشذوذ[١].

ورغم أن **الصين** سحبت المثلية الجنسية من قائمتها للأمراض العقلية عام ٢٠٠١، لكن لم تقل إنها ليست مرضًا عضويًا، ولا يزال هؤلاء معزولين ومنبوذين في المجتمع الصيني. وهناك عيادات طبية لـ "علاج مرض" المثلية الجنسية، وتعرض بعض العائلات الصينية أبناءها المثليين على عيادات طبية تعمل خارج القانون لـ "علاج" هؤلاء من "مرضهم"، بحسب اعتقادهم وفق تقارير غربية[٢]. ومما تجدر الإشارة إليه على جانب آخر أن الصين تتوسع في المدارس الإلكترونية، وهو ما يُقدم لها إمكانية لحماية أقلياتها في الغرب، كما أنها تجربة يمكن للأقليات المسلمة الاستفادة منها.

خاتمة:

لقد ذهبت الدول الأوروبية والثقافة الغربية السائدة بعيدًا في دعم مسألة الشذوذ والتحول الجنسي والمسألة الجندرية في البحث عن أقصى حرية مطلقة ممكنة، ومحاولة تقنينها وجعلها أكثر من مجرد موضوعٍ في الجدل الخاص، بل أصبحت جزءًا هامًا من الجدل العام والهوية الجمعية لتلك المجتمعات، وأيدولوجيا ذات حيثية معتبرة تفرض نفسها على الإعلام والسياسة والثقافة والفن بشكلٍ لا يمكن تجاهله كتحدٍ كبير، ليس فقط للجاليات المسلمة في الغرب، بل للتيارات المحافظة في كافة الأديان، بل وحتى بالمجتمعات التي يغلب عليها اللادينية أو الإلحاد مثل الصين وغيرها، أو حتى المجتمعات المسيحية الأرثوذوكسية الشرقية كما في روسيا التي استعملت مناهضة الشذوذ والمثلية كجزء من أيديولوجيتها في مواجهة الأيديولوجيا الجنسانية المثلية الغربية في حرب روسيا وأوكرانيا.

على دول اللجوء والدول المستقبلة للمهاجرين مراجعة تناقضات السياسات التي تفرضها سواء في التعليم أو في الفضاء العام للتعامل مع مسألة الشذوذ الجنسي. وسيبقى الأمل في التيارات المحافظة في هذه البلدان كحجر الزاوية الأساسي في مواجهة محاولات فرض هذه القيم على تلك الدول، وربما يصبح على الجاليات المسلمة في تلك البلدان أن تقوم بالتنسيق والتشبيك مع التيارات المحافظة من مختلف الأديان والجاليات المهاجرة الأخرى من أجل ضمان الحق في التعليم من دون إقحام هذه الموضوعات الجنسية، على الأقل على طلاب المراحل التعليمية ما قبل الجامعية وفي مجمل النظام التعليمي بشكلٍ عام كحق أساسي يضمن ألا تفرض أقلية رأيها على الجميع.

لدى الجاليات المسلمة المقيمة في دول ذات نظام لا مركزي ولم تُدخل التشريعات الداعمة لحقوق المثليين في دساتيرها وقوانينها المركزية وتترك حرية الاختيار، لديهم فرص أكبر من أولئك الذين يعيشون في دول مركزية، حيث يمكن للفئة الأولى الهجرة إلى ولايات أقل تشددًا في فرض المسألة ضمن الإطار التعليمي، وتعزيز قدرة الأفراد والأسر على الاختيار الحر للمناهج والمدارس التي يُلحقون أبناءهم فيها.

هذا التحدي الجسيم لمجتمعات الأقليات المسلمة في الغرب

(١) فهيم الصوراني، روسيا تواصل مطاردة الشذوذ وتحظر "الحركة الدولية للمثليين"، الجزيرة نت، بتاريخ ٢٠٢٣/١٢/٥، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3S304R0

(٢) الصين: عيادات طبية لـ"علاج مرض" المثلية الجنسية، قناة فرانس ٢٤، بتاريخ ٢٠١٦/٩/٢٧، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3ttHmIP

يفرض على الدول المصدرة للمهاجرين واللاجئين أن تنسق معًا، سواء في الإطار العربي والإسلامي الرسمي أو غير الرسمي لاتخاذ موقف موحد يربط بين السماح للأقليات الأوروبية والغربية بممارسة شعائرها وطقوسها وحرياتها بالسماح للجاليات الإسلامية بنفس الأنشطة الدينية والتعليمية والثقافية، وهذا من داخل خطاب العلمانية الجوهري المنادي بحياد مؤسسات الدولة تجاه الأديان والمعتقدات والأفكار. هذا الإطار يسمح بنضالٍ قانوني وحقوقي وفكري مناهض لفرض المسألة كأيديولوجيا تفرضها الأقلية مما يسمى بـ "مجتمع الميم" على الأغلبية من بقية المجتمع المحافظ والمهاجرين.

ونؤكد إنه ولئن تداعت الأزمات والتحديات والهجمات على مجتمعات الأقلية المسلمة في الغرب، كما بقية الأمة وشعوبها، وإن بوتيرةٍ أعلى، فإن دورها يكمن في استغلال هامش سياق المؤسسات وحكم القانون والحرية والفضاء التقني والرقمي الذي لا يزال متاحًا بشكلٍ أكبر مما هو عليه في دول العالم الإسلامي نفسها، في محاولات الانعتاق من الاستضعاف وفي مقاومة الهجمات ومواجهة التحديات المختلفة عبر تطبيقات ومواقع تعليمية، وكذلك في فتح مساحات للبناء والتنمية في مجتمعات المهاجر كجزء من عالم المسلمين اليوم، أو حتى نقل ما أمكنها من أفكار تنموية وتقنيات مفيدة في حالة الهجرة العكسية، لكنها ليست حلا يمكن تبنيه عمومًا.

الاقتصاد الديني واستثمار المفاهيم: صندوق الحج الماليزي (تابونج حجي)

مروة يوسف*

مقدمة:

تنشأ المؤسسات حسب حاجة المجتمعات لها، وتتعقَّد بقدْر تعقُّد الحاجات والمجتمعات، ومنذ نشأة الدولة الحديثة في العالم العربي والإسلامي بعد نهاية الاستعمار وهناك فجوة بين حاجات المجتمعات الإسلامية والمؤسسات المستوردة من الغرب. يدرس هذا التقرير إحدى المؤسسات التي نشأت في دولة إسلامية ولتلبية حاجات اجتماعية ودينية تهم المجتمع؛ ألا وهي صندوق الحج الماليزي (تابونج حجي باللغة الماليزية Tabung Haji)، والتي تعني حرفيًّا مدخرات الحج، أو مخزونات الحج، أو خزينته. إن صندوق الحج الماليزي مؤسسة مالية اجتماعية سياسية لتلبية حاجة دينية للمجتمع الماليزي المسلم؛ ألا وهي حج بيت الله الحرام عن طريق مؤسسة مالية.

يدرس هذا التقرير تلك المؤسسة من خلال مدخل المؤسسية الجديدة؛ وذلك للسؤال حول دورها في تلبية الحاجات المجتمعية الدينية، ومساحة هذا الدور من المجال العام الماليزي، خاصة في اتصاله بالمجال الاقتصادي الذي تحتكره الرأسمالية، وما هي الإشكاليات التي يمكن أن يتسبَّب فيها ذلك الاحتكار عبر سنوات عملها، ومدى قبول تلك المؤسسة في المجتمع الماليزي قانونيًّا وماليًّا وشرعيًّا.

تطرح «المؤسسية الجديدة» مساحة أوسع من النقاش حول التفاعلات بين المؤسسات المتنوّعة، الرسمية وغير الرسمية، في المجتمع، من أجل طرح رؤية تكاملية وقراءة ثقافية وتاريخية لوظائف المؤسسات المجتمعية[١].

وفي البداية يجب التأكيد على التنوُّع الإثني في المجتمع الماليزي، حيث يشكِّل الملايو -وهم السكَّان الأصليُّون- نسبة ما يقرب من ٦٩٪ من مجموع السكان، أما الصينيون فتبلغ نسبتهم ٢٢٪، وتبلغ نسبة الهنود وباقي الإثنيَّات ما يقرب من ٧٪. وبناء على ذلك التنوُّع الإثني فهناك تنوُّع في الديانات، فعلى الرغم من أن الديانة الإسلامية هي الديانة الرسمية للدولة، فإن هناك مسيحيِّين وهندوسًا وبوذيِّين[٢]، ما يضع تساؤلات حول فاعلية مؤسسة إسلامية في بلد متنوع الديانات.

أولًا- نشأة الصندوق وهيئاته وعملياته

تعود فكرة إنشاء صندوق للحج إلى الاقتصادي المالي الشهير أنكو عزيز أو أنكو عبد العزيز من جامعة الملايا بالدعوة إلى إنشاء مؤسسة تهتم بادخار الحج بغرض مساعدة الحجاج على تغطية وتوفير تكاليف الرحلة، لتقوم المؤسسة بالادخار وفي نفس الوقت بالاستثمار. وقد عرضت خطة مشروع الصندوق على مجلس الوزراء على عهد "تنكو عبد الرحمن" رئيس الوزراء في ١٩٥٩ فوافق على الخطة، وعرضها على البرلمان الذي وافق أيضًا عليها، وكانت توصية عزيز أن تدخر أموال الحج في

---

* باحثة في مركز الحضارة للدراسات والبحوث.

(١) للمزيد حول أطروحات المؤسسية الجديدة خاصة مدرسة التحليل التاريخي، انظر الآتي:

- د. ريهام خفاجي، المؤسسية المجتمعية الجديدة ودورها في النهوض، محاضرة ألقيت في مركز الحضارة للدراسات والبحوث عبر الإنترنت، يوتيوب، ٩ ديسمبر ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3TRRo11

- د. ريهام خفاجي، المدخل المؤسسي لدراسة النظم السياسية من منظور مقارن: مؤسسات المجتمع المدني والأوقاف نموذجًا، (في): مركز الحضارة والدراسات السياسية (تحرير)، نحو دراسة النظم السياسية من منظور حضاري مقارن: مداخل منهجية، (القاهرة: مفكرون الدولية للنشر والتوزيع، ٢٠١٨)، ص ص ٢٩٨-٣٠١.

(٢) أحمد عبد الباقي، ملامح من التعايش العرقي في ماليزيا: دروس وعبر، موقع الرواية الأولى، ٢٦ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/dEQS3

مؤسسة خالية من الربا حتى يقبل الناس على وضع مدخراتهم فيها، وتقسم الأرباح بين المساهمين على أساس المشاركة، ووافق على ذلك المشروع آنذاك شيخ الأزهر الأسبق الإمام محمود شلتوت، وذلك أثناء زيارته ماليزيا في ١٩٦٢، وقال: "إنها خطة مقبولة شرعًا، وسيجني منها المسلمون نفعًا كثيرًا، وطالب بتنفيذها"[١]. وفي عام ١٩٦٢ بدأ تأسيس المؤسسة الادِّخارية للحجَّاج وبدأت عملها فعليًّا في ١٩٦٣، وانضمَّت إلى هيئة شؤون الحج في ١٩٦٩ وتم إطلاق اسم "هيئة صندوق ادخار وشؤون الحجاج في ماليزيا" عليها[٢].

أنشئت تلك الهيئة بغرض إتاحة الفرصة للمسلمين لادخار أموالهم تدريجيًّا من أجل أداء فريضة الحج، حيث كان من المتعارف عليه أن الناس تدَّخر من أجل الحجِّ بعيدًا عن المؤسسات الرسمية خوفًا من الربا أو يجمعون المال طيلة حياتهم ثم ينفقونه لأداء تلك الفريضة -وهو الحال في كثير من بقاع العالم الإسلامي حتى الآن- ولذلك تحاول تلك المؤسسة تخفيف عبء الادِّخار على الماليزيِّين من أجل الحج. والهدف الثاني من أهداف تلك الهيئة هو تمكين المسلمين من الاستثمار حسب الشريعة الإسلامية، سواء كان استثمارًا في العقارات أو المشروعات الأخرى دون أي شبه ربوية في هذا الاستثمار أو تلك الأرباح. أما الهدف الثالث فهو توفير الرعاية للحجاج داخل الأراضي المقدسة من سكن وصحة وانتقالات وتقديم دورات إسلامية حول كيفية أداء الفريضة وشروطها وصحتها[٣].

- **الإدارة والهيئات المنبثقة عنها**

صندوق الحج هو مؤسسة استثمارية لأموال المودعين وإدارتها في الأنشطة الاستثمارية وتأجير العقارات، معتمدة طبقًا للسياسة الاقتصادية للحكومة الماليزية، وهو مؤسسة تحتكر الخدمات المتعلِّقة بالحج، ومن وجهة النظر التجارية يضمن هذا الوضع الاحتكاري للصندوق تدفقًا متَّصلًا من إيداعات الحجاج كلَّ عام، وبسبب الخدمات التي يقدِّمها الصندوق فإن تكلفة الحج في ماليزيا أقل من تكلفة الحج في الدول الآسيوية المجاورة مثل سنغافورة وإندونيسيا. والصندوق مؤسسة تابعة للحكومة يشرف عليه وعلى الهيئات المتفرِّعة منه مكتب رئيس الوزراء، وعلى الصعيد التشريعي فقد مَرَّ الصندوق بعدَّة مراحل حسب القوانين المنظمة لعمله، ومنها:

- القانون رقم (٨) لسنة ١٩٦٩: وهو القانون الذي تمَّ بوجبه دمج شركة مدخرات الحجاج لمسلمي الملايو مع مكتب شؤون الحجاج، والغرض منه هو تنسيق عمل المؤسستين.

- القانون (١٦٨) تعديل سنة ١٩٧٣: جرى على إثره تعديل خاص بتقليل أعضاء مجلس الإدارة من تسعة وعشرين فردًا إلى عشرة أفراد، وذلك لتسهيل عملية اتخاذ القرار.

- القانون (٥٣٥) لسنة ١٩٩٥: وهذا القانون يمثِّل نقلةً نوعيةً في تاريخ صندوق الحج الماليزي خاصة في توسيع نطاق أنشطة صندوق الحج وتعزيز دوره، فقد سمح له بالقيام بكثير من الأنشطة مثل: الدخول في شراكة مع بنوك وشركات أخرى، وامتلاك وشراء الأسهم، وفتح شركات فرعية وغيرها، وتم تغيير اسم "مجلس إدارة شؤون الحج وصندوق الادخار" إلى "مجلس صندوق الحج" أو "صندوق الحج" أو كما يعرف بالمالاوية "تابونج حاجي" في أغسطس ١٩٩٥[٤].

أما بالنسبة للتنظيم الإداري للصندوق، فكما سبق الذكر، فإنه يُشرف عليه مكتب رئيس الوزراء، وتنبثق عنه ثلاثة

---

(١) د. محمد شريف بشير، "تابونغ حاجي".. ادخار الحجاج، موقع أون إسلام، ١٥ ديسمبر ٢٠٠٤، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/0clU5

(٢) إخلاص باقر هاشم، قياس ادخار الحج في التجربة الماليزية للمدة (٢٠٠٢-٢٠١٤)، مجلة البحوث الاقتصادية والمالية، العدد ٦، ديسمبر ٢٠١٦، ص ١٥٧.

(٣) وقائع قاعة البحث بشأن تنظيم وإدارة هيئة الحج وشؤون الحجيج بماليزيا، (جدة: المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب، ط ٢، ٢٠٠٢)، ص ص ١٢-١٤.

(٤) رقادي روليخة، دور الهندسة المالية الإسلامية في تمويل النظام المالي الإسلامي: دراسة حالة ماليزيا للفترة بين ٢٠٠٣-٢٠١٦، رسالة ماجستير، إشراف: أ. د. مصطفى عبد اللطيف، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير، ٢٠٢٠، ص ص١٢٤-١٢٥.

مجالس: الأول مجلس إدارة الصندوق، والثاني مجلس مستشاري صندوق الحج، والثالث مجلس مستشاري الشؤون المالية، أما مجلس الإدارة فيتفرَّع إلى أربع إدارات تدير الصندوق ونشاطاته سواء التجارية والاستثمارية أو الإشراف على الحج وهي: إدارة شؤون الحج - إدارة شؤون الإدارة والمعلومات - إدارة شؤون المالية والاستثمار - إدارة شؤون الهيئة[١].

- **مساحات الاستثمار للصندوق**

وفي أول سنة استطاع الصندوق جمع مدخرات تعادل (٤٩٦٠٠) دولار أمريكي من (١٢٨١) مودعًا، وكانت الودائع تنمو بشكل سريع جدًّا، وذلك للإقبال الكبير من قبل المسلمين (الملايو) على الادخار في الصندوق، فقد وصلت ودائع هذه الفئة سنة (١٩٩٩) إلى (٢,٢) مليار دولار أمريكي بعد أن وصل عدد المودعين إلى (٣,٥) ملايين مودع، وفي ٢٠٢٢ وصل عدد المودعين في الصندوق إلى ٨,٧ مليون شخص، ووصل عدد الشركات التابعة لصندوق الحج إلى عشر شركات كبرى، وفى جميع المجالات وهي:

١. مزارع صندوق الحج المحدودة.
٢. صناعة السكر لصندوق الحج المحدودة.
٣. شركة الخدمات العالمية لصندوق الحج المحدودة.
٤. الشركة السياحية لصندوق الحج المحدودة.
٥. شركة صيانة الكمبيوتر لصندوق الحج المحدودة.
٦. شركة البناء والمقاولات الدولية لصندوق الحج المحدودة.
٧. شركة التكنولوجيا لصندوق الحج الماليزي.
٨. مزارع بونجايا المحدودة.
٩. مزارع صندوق الحج لولايتي صباح وساواك المحدودة.
١٠. شركة (IMIM) المحدودة.

هذا ويملك الصندوق أسطول نقل بحريًّا خاصًّا لخدمة منتجاته من زيت النخيل[٢]، وعليه، فتتنوع استثمارات الصندوق من الزراعة وإنتاج المنتجات الغذائية، والبناء والتكنولوجيا والسياحة وتتوسَّع أعمال الصندوق مع زيادة الاستثمارات الداخلية والخارجية، ويحرص الصندوق على موافقة استثماراته مع مبادئ الشريعة الإسلامية، لذلك يستعين بخدمات كل من اللجنة الوطنية للإفتاء في ماليزيا ولجنة الرقابة الشريعة الملحقة بالبنك الإسلامي الماليزي[٣].

- **الخدمات التي يقدمها الصندوق:**

١- الدعم المالي للحجيج:

وفيما يخص تغطية تكاليف الحج، فيتيح الصندوق لكل مواطن ماليزي فرصة فتح حساب فيه، كأي حساب مصرفي، ويقوم صاحب الحساب بالإيداع على شكل أقساط حسب رغبته وإمكانيته، وحينما يكتمل في حسابه نصف تكلفة الحج، يصبح على قائمة انتظار الذين اكتملت متطلبات اختيارهم لأداء الفريضة.

وتكلفة أداء فريضة الحج في ٢٠٢٤ سوف تصل إلى أكثر من ٣٠ ألف رنجيت ماليزي، ويكفي المواطن الماليزي أن يوفر في حسابه نصف هذا المبلغ، وسيتكفل "صندوق ادخار الحج" بتقديم النصف الآخر من عائد الاستثمار والمضاربة بأموال المدَّخرين لديه، وعليه سوف يقدِّم الصندوق دعمًا للحجيج في ٢٠٢٤ بما يصل إلى ٥٠٠ مليون رنجيت[٤]، ويتكفَّل أيضًا الصندوق بترتيب وتنظيم تنقُّلات الحجاج بين مكة والمدنية،

(١) عائشة سلاك، دراسة نموذج ماليزيا في المالية الإسلامية: حوصلة خصوصيات وإمكانية التعميم، رسالة دكتوراه، إشراف: محمد البشير لبيق، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير، ٢٠١٥، ص ١٩٩.
(٢) عدنان هادي جعاز، سامي عبيد محمد، الدور التمويلي للمصارف الإسلامية: تجربة ماليزيا، مجلة العلوم الاقتصادية، المجلد العاشر، العدد ٨٨، مارس ٢٠١٥، ص ١١٦.
(٣) وقائع قاعة البحث بشأن تنظيم وإدارة هيئة الحج وشؤون الحجيج بماليزيا، مرجع سابق، ص ص ٣٧-٣٨.
(٤) تابونج حجي يتوقَّع ارتفاع مساعدات الحج إلى ٥٠٠ مليون رنجيت في ٢٠٢٤، موقع أسواق، ٢٣ مارس ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/9HgjF

وتوفير مكان إقامتهم وغذائهم وطعامهم، وذلك حرصًا من الحكومة الماليزية على أن لا يُظلم مواطنوها أو يتعرَّضوا لاحتيال أيٍّ من شركات ومؤسسات السياحة والنقل التجارية[١].

ونتيجة لذلك الدعم للحجيج، فإن جميع سكان ماليزيا من المسلمين لهم حساب خاص في "تابونج حاجي" لحرصهم على تلك العبادة. ويبدأ المواطن الماليزي المسلم الاستثمار في مؤسسة صندوق الحج منذ الولادة، فالوالدان يستطيعان الحصول للمولود الجديد على رقم بإيداع مبلغ بسيط (لا يتجاوز ٢,٥ دولار)، ونتج عن ذلك الاستثمار الطويل لأداء فريضة الحج في تابونج حاجي انخفاض أعمار الحجيج الماليزيين، فبعد أن كان الحج قديمًا يقتصر على كبار السن نتيجة عدم توافر تكاليف الفريضة، أصبح باستطاعة الماليزيين أداء الفريضة بعمر صغير يكونون فيه مهيئين جسديًّا للقيام بمناسكها[٢].

٢- التدريبات المقدَّمة للحجيج:

ثاني أهم الخدمات التي يوفرها الصندوق لمودعيه من طالبي أداء الفريضة هو التدريب على أدائها، حيث يوفر الصندوق أربعة برامج تدريبية خاصة بالحج والعمرة. أولها يكون قبل حوالي ثمانية أشهر من موعد أداء فريضة الحج، ويستمر لمدة سبع عشرة حصة تدريبية. وهو برنامج عام، الالتحاق به متاح لكل من يرغب بالإلمام بتفاصيل هذه الشعائر، وفي نفس الوقت إجباري على من كان دورهم لأداء الحج قد حان، سيتعرَّف المتدرِّب خلال سبعة عشر يومًا على كلِّ ما يتعلَّق بالحج والعمرة من أمور شرعية، وتاريخية، وصحية، وتنظيمية، وشعائرية، وكل ذلك بشكل نظري. أمَّا البرنامج التدريبي الثاني، فهو مكثف، وعلى مدار يومين، وخاص بمن وقع عليهم الاختيار لأداء مناسك الحج، وفي نهايته يخضع المتدربون لامتحان تقديري، ينتقل من يجتازه إلى البرنامج الرابع، أما من لا يتمكَّن من اجتيازه فيخضع للبرنامج التدريبي الثالث، وهو لمدة يوم واحد، ويعتبر مكمِّلًا للبرنامج الثاني وخاصًّا بمن لم يتمكَّنوا من اجتيازه. ويأتي التدريب العملي في البرنامج الرابع، حيث يجتمع جميع الحجاج في مكان واحد، ويمرون على مجسمات تمثل جميع مناسك الحج، فيطبِّقون "بروفات" للطواف، والسعي، والمبيت، ورجم الجمرات. وبهذه البرامج التدريبة، يكون الحاج الماليزي قد ألمَّ بكلِّ ما يتعلَّق بالحج من واجبات ومحظورات، وعرف مسبقًا المخاطر التي يجب عليه اتقاؤها، والالتزامات التي يتوجَّب أداؤها[٣].

- **تقييم تجربة الصندوق**

يُعَدُّ صندوق الحج الماليزي أحد التجارب الناجحة في تحقيق أهدافه، سواء من حيث تسهيل الحج على الماليزيِّين الذي كانوا ينفقون أعمارهم في جمع تكاليف الحج حيث أصبح من اليسير الآن الاستثمار لهم ولأبنائهم منذ الولادة في صندوق الحج لجمع تكاليفه، أو من حيث تقديمه نموذجًا ناجحًا للمصرفية الإسلامية إذ أصبح واحدًا من أكثر صناديق الاستثمار نجاحًا في العالم، فقد بلغت قيمة استثماراته وأصوله في أنحاء متفرقة من العالم قرابة ٥٦ مليار دولار[٤]. ومن جانب آخر، تجاوز الإيداع في هذا الصندوق فريضة الحج، وبدأت كافة الإثنيَّات في ماليزيا الادِّخار فيها، حيث وصل عدد مودعيه ٨,٧ مليون

(١) نور الدين الكواملة، صندوق ادخار الحج الماليزي... نموذج يحتذى به، عربي ٢١، ٧ أكتوبر ٢٠١٥، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/rTJD1

(٢) سناء نصر الله، صندوق ادخار خاص منذ الولادة.. الحج في ماليزيا عبادة ومنافع، الجزيرة نت، ٤ أغسطس ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/kdCvs

(٣) للمزيد حول الدورات والتدريبات التي يشارك فيها الحاج الماليزي قبل أداء الفريضة، انظر:

- نور الدين الكواملة، صندوق ادخار الحج الماليزي... نموذج يحتذى به، مرجع سابق.

- حج "ماليزيا" نموذجٌ متفردٌ في تدريب وتأهيل الحجاج من خلال دورات تطبيقية منذ ٢٠ عامًا، وكالة الأنباء السعودية، ١٩ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/cTecn

- محمود العدم، تابونغ حاجي.. الحج بنكهة ماليزية، الجزيرة نت، ٢ نوفمبر ٢٠١٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/FIsC5

(٤) د. خالد بن هدوب المهيدب، صندوق الحج الوقفي.. ماليزيا أنموذجًا، جريدة الرياض، ١٩ أغسطس ٢٠١٥، العدد ١٧٢٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/V93km

شخص في ٢٠٢٢، يحصلون على أرباح تقدَّر بـ٢,٦٥ مليار رنجيت بعد خصم نسبة الزكاة، وذلك على الرغم من الأزمة الاقتصادية العالمية التي يشهدها العالم عقب جائحة كوفيد١٩[١].

كما كان نجاح الصندوق حافزًا للحكومة الماليزية لإدخال نظم اقتصادية تتوافق مع الشريعة الإسلامية فيه. ففي عام١٩٨١ تم تشكيل لجنة لدراسة الفكرة وتأثيرها، وبناء على ذلك تم إنشاء أول مصرف إسلامي في البلاد عام ١٩٨٣ وهو البنك الإسلامي الماليزي (بنك إسلام)، وصدر بالتزامن معه قانون المصرفية الإسلامية في البلاد، الذي أكَّد على تجنُّب الربا والالتزام بالتعاليم الإسلامية فيما يتعلَّق بالمعاملات المالية، واتَّسع نشاط المصرفية الإسلامية في ماليزيا، حيث قدَّم البنك المركزي الماليزي عام ١٩٩٣برنامج المصرفية الخالية من الربا، ثم برنامج المصرفية الإسلامية عام ١٩٩٩، وتم إنشاء "بنك معاملات"، وتسعى هذه المصارف بالتعاون مع الجامعات هناك إلى ابتكار أدوات إسلامية في تمويل المشاريع من خلال ما يعرف بالصكوك، وهي البديل الإسلامي للسندات التقليدية، ونتج عن ذلك زيادة في عدد البنوك الإسلامية العاملة في البلاد إلى ٢١ مصرفًا[٢]. ويميّز ماليزيا عن غيرها من الدول أن هناك هيئة شرعية تابعة للمصرف المركزي تحدِّد مدى شرعية هذه المعاملات.

ومن جانب رابع، استفاد عدد من الدول الإسلامية من هذه التجربة الرائدة مثل الإمارات وباكستان والسنغال وغانا وإندونيسيا، حيث شرعت مؤسسات مالية في الدول العربية والإسلامية في طرح منتجات إسلامية لتقديم تمويل رحلة الحج، وإطلاق صناديق للحج والادخار تركِّز على طرح سندات إيداع محدَّدة القيمة. ومن تلك المؤسسات كان إعلان مصرف الشارقة الإسلامي عن إطلاق خدمة تمويل الحج الخالية من الأرباح في مبادرة هي الأولى من نوعها على مستوى المصارف الإسلامية في الدولة، بحسب بيان للبنك، وستمكِّن هذه الخدمة التي أطلقت تحت شعار «حج السنة وادفع على سنة دون أرباح» الكثيرين من عملاء البنك وغيرهم، من أداء فريضة الحج والدفع بأقساط ميسرة لمدة عام كامل من دون أي أرباح أو تكاليف إضافية.

وفي الأردن أنشأت وزارة الأوقاف، صندوق الحج للادخار والاستثمار، بهدف استثمار أموال المدَّخرين فيه، وفقًا لأحكام الشريعة الإسلامية، حيث تعمل الوزارة على الاستفادة من فكرة صندوق الحج في ماليزيا. ويهدف الصندوق إلى استثمار الأموال، وفق أحكام الشريعة الإسلامية، لتحقيق أرباح للمدَّخرين، من أجل أداء فريضة الحج بشكل يسير وفي عمر أصغر نسبيًّا عن أعمار الحجيج التي تكون تجاوزت سن الشيخوخة، حيث تفنى أعمار الناس ويقومون ببيع ممتلكاتهم لأداء تلك الفريضة في ظلِّ أزمات اقتصادية متعدِّدة ينتج عنها زيادة تكلفة الحج عامًا بعد عام[٣].

ثانيًا- التحديات التي تواجه صندوق الحج الماليزي

يواجه صندوق الحج الماليزي ومن على شاكلته العديد من التحديات في عالم يسيطر عليه النموذج النيوليبرالي الرأسمالي الذي يعظم تحقيق الأهداف بكافَّة الطرق حتى وإن تجاوزت حدود الشرع والشريعة، وقد واجه صندوق الحج الماليزي أزمتين أساسيَّتين على مدار تاريخه منذ ما يقرب من ستين عامًا، ألا وهما:

١- التنظير في المالية الإسلامية

كان صندوق الحج هو المؤسسة المالية الأولى على مستوى العالم الإسلامي التي سَعَتْ لاجتذاب مدَّخرين واستثمار أموالهم بشكل منضبط شرعيًّا حتى يؤدُّوا فريضة الحج، وعليه كانت

(١)صندوق الحج الماليزي يُعلن عن توزيع أرباح بقيمة ٢,٦٥ مليار رنجيت لعام ٢٠٢٢، موقع أسواق، ٢٨ أبريل ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/HRTH1

(٢) ساسي سفيان، المالية الاقتصادية والتنمية الاقتصادية في ماليزيا، (في): مجموعة باحثين، أبعاد التجربة التنموية في ماليزيا: دراسة تحليلية في الخلفيات... الأسس... الآفاق، (برلين: المركز العربي الديمقراطي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، ٢٠١٩)، ص ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٣) معاوية كنة، مؤسسات مالية تطرح منتجات لتمويل رحلة الحج، جريدة الاقتصادية، ٦ نوفمبر ٢٠١٠، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/2hVaqPf

تجربته الشرارة الأولى التي شجَّعت المفكِّرين الإسلاميِّين في ماليزيا للمطالبة بتوسيع نطاق التطبيقات الاقتصادية الإسلامية في بلدهم، وعقدوا لذلك الندوات المتعدِّدة لحثِّ الحكومة على ذلك، وتركَّزت مطالباتهم في ضرورة توجُّه الدولة نحو صناعة المصرفية الإسلامية وإتاحة الفرصة لها للعمل جنبًا إلى جنب مع المصرفية التقليدية الربوية، وعليه، وفي عام ١٩٨٣ صدر قرار حكومي بتأسيس أول مصرف إسلامي وصدر بالتزامن معه قانون المصرفية الإسلامية الذي عني بتنظيم عمل المصارف الإسلامية، وجاء في القانون استثناء المصارف الإسلامية من قانون المصارف العام المطبَّق في ماليزيا من حيث البيع والشراء التجاري واقتناء الممتلكات والالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية وتجنُّب الربا. وقد حقَّقت المصارف الإسلامية في ماليزيا نموًّا جيِّدًا في حجم الودائع، وإجمالي الأصول، حيث تجاوزت الخطط الموضوعة لقطاع المصارف الإسلامية.

بناءً على ما سبق، فما زالت المصرفية الإسلامية حديثة التنظير والتطبيق خاصة بمقارنتها بالمصرفية الغربية التي يتجاوز تاريخها عدَّة قرون، ومن ثم، فمن الطبيعي أن تظهر العديد من الإشكاليات الفكرية والشرعية والتطبيقية التي تُعَدُّ من التحديات التي تواجه صندوق الحج الماليزي بل وكل التجارب التي على شاكلته ومن يحاول التطوير في هذا المجال.

ورغم هذا التنوع في المنتجات والخدمات المصرفية الإسلامية مثل المرابحة والمضاربة والوكالة والمشاركة المتناقصة والاستصناع، إلا إنها في مجملها تعتمد استنساخ المنتجات التقليدية وتحويرها لتتوافق مع المتطلَّبات الشرعية، وإهمال الصيغ الإسلامية القائمة على مبدأ تقاسم الأرباح والخسائر، هذا من جانب، ومن جانب آخر، تعتمد تلك المنتجات على صيغتي بيع العِينة وبيع الدين. وبيع العِينة مبرَّر من قبل المجيزين له من العلماء الماليزين من حيث كونه عقدًا مستوفيًا لأركان عقد البيع الصحيح ولم يصحَّ أثرٌ في تحريمه، والحاجة قائمة لمثل هذا العقد لما فيه من دعم للعمل المصرفي الإسلامي ووفاءٍ بحاجات الناس للتمويل، وهم في الحقيقة نظروا لشكل العقد لا مضمونه، المشتمل على التحايُل الصريح على الربا، عند موافقتهم على تبنِّيه كعقد تمويل إسلامي، وفاتَهم عند إجازته للحاجة أن يحدِّدوا ضوابط لذلك ومتى تنتفي هذه الحاجة. أما ما يخص مسألة بيع الدَّيْن فحسْب ما ورد في قرارات الهيئة الشرعية المركزية فإن القول بجواز بيع الدَّيْن مبنيٌّ على الخلاف الوارد في جواز بيع الدين على المدين متى ما كان الدين مستقرًّا ومعلومًا ومقدورًا على تسليمه، لكن دون تفصيل في المسألة يمنع من اتخاذها حيلةً على الربا، وهو ما فصَّله قرار مجمع الفقه الإسلامي من خلال استعراضه لصوره الممنوعة، والتي يندرج تحتها معظم تطبيقات بيع الدَّيْن في ماليزيا[١].

وعلى صعيد ثالث ينتقد العديد أن المصرفية الإسلامية ما زالت تدور في فلك سعر الفائدة، ولا تملك نظامًا مشتقًّا من حاجتها، وكل ما يحصل أن هذه المصارف أخذت النظام المصرفي التقليدي بحذافيره، ثم حاولت أن تخلق "جسورًا" في كل موضع ربوي. فالبيع الآجل، وإدخال طرف ثالث في إجرائه هو البديل لإقراض النقد بالنقد (المعروف بالتوريق)، والصكوك ما هي إلا عملية تشويه وتحويل السندات التقليدية إلى صكوك، مع تحويل الأداة من أداة دَيْنٍ في الأولى إلى أداة ملكية في الثانية، وبالتالي فإن سعر الفائدة ما زال هو معيار الإقراض والأرباح في المصارف الإسلامية، حتى وإن لم يُكتب في العقود، ولم يُدفع حقيقة[٢].

ونتيجة لما سبق، نتج خلاف فقهي كبير حول المصرفية الإسلامية في ماليزيا، فإن سعيها لتحقيق الريادة العالمية في هذا الشأن لا يمكن أن يتحقَّق في ظل تبنيها لاجتهادات فقهية خالفت فيها المجامع الفقهية المعتبَرة، بل وحتى غالبية فقهاء المذهب الشافعي (وهو المذهب المعمول به في ماليزيا) والذي تَمَّ الاستنادُ إليه في إباحة بيع العِينة وبيع الدَّيْن، وغلبة هاتين الصيغتين على التعاملات يولِّد إشكالًا كبيرًا في قبول العلماء والمختصِّين

(١) عبد الله بن عبدالعزيز المعجل، لمحات من التجربة الماليزية في المصرفية الإسلامية، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد ٣٥، ربيع الآخر ١٤٣٦هـ، ص ص ٣٣-٣٧.

(٢) المرجع السابق.

والمهتمّين والعملاء بالتجربة الماليزية كنموذج يُحتذى[١]. وعلى الرغم من ذلك فما زالت الجهود تتواصل لإيجاد صيغ إسلامية متَّفق عليها فقهيًّا حول إنتاج منتجات مصرفية مقبولة شرعًا، مثل سعر الفائدة بصبغة إسلامية لتحديد معدَّل المرابحة الشرعية[٢].

٢- الأزمات الاقتصادية:

تُعَدُّ الأزمات الاقتصادية أحدَ أهمِّ المؤشِّرات على مدى نجاح قدرة الدولة ومؤسَّساتها على تجاوزها دون التخلِّي عن رفاهة الشعب وتنميته، وعانتْ ماليزيا من أزمتيْن عالميَّتين عَصَفَا بمنطقة جنوب شرق آسيا بشكل كبير، ولم تخرجْ دولٌ مجاورةٌ لها من تلك الأزمتين، وهما: أزمة ١٩٩٧، وأزمة ٢٠٠٨، وفيما يلي قَدْرٌ من التفصيل في التعامل الماليزي مع تلك التحديات الاقتصادية:

أ) أزمة ١٩٩٧

تعرَّضت ماليزيا لأزمة اقتصادية في العام ١٩٩٧، كما تعرَّضت لها كثيرٌ من البلدان في الشرق، وأدَّت الأزمةُ لهبوط سعر الرنجيت إلى مستويات متدَنِّية جدًّا، نتيجة للمضاربة بالعملة على مستويات دولية، حيث انخفض سعرها بنسبة ١٠٠٪، بالإضافة إلى المضاربة في الأسهم، والذي نتجَ عنه انخفاضٌ في مؤشِّر البورصة الماليزية بشكلٍ كبير، ونتج عن ذلك هروب رؤوس الأموال للخارج، كما انتشرت البطالة، وتأثَّرت الأسواق، وعانى الناس معاناةً شديدة[٣]. عندها، قام صندوق النقد الدولي بتوجيه الحكومة الماليزية لاتخاذ بعض الإجراءات لتعديل سياستها النقدية والإدارية في البلد كالاقتراض من الخارج بدلًا من الاعتماد على التمويل الداخلي؛ لأن ماليزيا كانت تُصِرُّ على استثمار أموال الناس ومدَّخراتهم في الدولة عن طريق الخصخصة، وإشراكهم في أسهم الشركات، وتبنِّي بعض الأساليب المتوافقة مع معتقداتهم كالبنوك الإسلامية وصناديق الحج... وغيرها، والتي تعود بفائدة دينية ومادية على الناس، وكان سبب إصرار ماليزيا على هذه السياسة هو أن فائدة الاقتراض من الداخل كانت أقلَّ بكثيرٍ من الاقتراض الدولي الذي بلغت فائدته عند حلول الأزمة ١٢٪، كما وجَّه صندوق النقد جملة من التوجيهات المتعلِّقة بربط العملة والحدِّ من استقبال الهجرات وغيرها، إلا أن الحكومة الماليزية تجاهلت تلك التوجيهات وأصدرتْ بعضًا من الأوامر والسياسات الجريئة ضدَّ مضاربي العملات والمستثمرين الأجانب وحاملي السندات، وهي سياسات اتَّسمت بالجدية والحزم؛ مَا أخرج ماليزيا من مأزق الكساد وسقوط العملة كما حصل في بعض الدول المجاورة لها[٤]، حيث خرجت من كبوتها المالية أكثر قوةً خلال عامين فقط، لتواصل مسيرتها الاقتصادية بشروطها[٥].

بعد الأزمة رأت ماليزيا الدورَ الفعَّال للمصرفية الإسلامية في تخفيف حدَّة الأزمة والتغلُّب عليها في خلال فترة قصيرة مقارنة بالدول المجاورة، وسمحت الحكومة بإنشاء بنك إسلامي ثان، وهو بنك "معاملات ماليزيا" في عام ١٩٩٩ لتسريع التقدُّم في الصناعة المصرفية الإسلامية، متبوعًا بمخطط القطاع المالي الذي تمَّ تقديمُه في عام ٢٠٠١، وبدأ البنك المركزي الماليزي بإغلاق الفروع الإسلامية وتشجيعها للتحوُّل إلى كيانات مصرفية إسلامية كاملة[٦].

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٠.

(٢) عبد الله بن ربيعان، ماليزيا و٣٠ عامًا من الصيرفة الإسلامية، موقع قناة العربية، ١٣ سبتمبر ٢٠١٣، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/BMQVHZW

(٣) عائشة سلاك، دراسة نموذج ماليزيا في المالية الإسلامية: حوصلة خصوصيات وإمكانات التعميم، رسالة دكتوراه، إشراف: د. محمد البشير لبيق، جامعة جيلالي ليابس، ٢٠١٥، ص ١٤٩.

(٤) جمال النوفلي، دور الاقتصاد الإسلامي في نجاح الدول.. ماليزيا نموذجًا (٢-٢)، موقع الرؤية، ١٣ فبراير ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/yX5eY

(٥) عبد الحافظ الصاوي، قراءة في تجربة التنمية بماليزيا، المنتدى العربي لإدارة الموارد البشرية، ٣ نوفمبر ٢٠١٠، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/jeHv2Oh

(٦) إبتسام ساعد، رابح خوني، تجربة المصرفية الإسلامية في ماليزيا: تقييم أداء المصارف الإسلامية للفترة: ٢٠٠٨-٢٠١٥، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد ٣٠، سبتمبر ٢٠١٧، ص ٣٤٤.

ب) أزمة ٢٠٠٨

يرجع الباحثون الاقتصاديون جذور الأزمة المالية ٢٠٠٨ إلى سنة ٢٠٠٠ بالولايات المتحدة الأمريكية، حيث زاد حجم القروض العقارية الممنوحة بإجراءات بسيطة وبرهونات ميسَّرة ومن غير ضمانات كافية، الأمر الذي دفع إلى تهافت شديد على الاقتراض من أجل شراء العقارات بالولايات المتحدة الأمريكية، أدَّى ذلك إلى حدوث ما يعرف بأزمة القروض العالية الخطر سنة ٢٠٠٩، وعرفت أيضًا هذه الفترة أي بداية سنوات ٢٠٠٠ حدوث أزمة فقاعات الإنترنت حيث حدث ارتفاع كبير في أسعار أسهم هذه الشركات لتنفجر تلك الفقاعة، وسجَّل أداء الاقتصاد العالمي انخفاضًا خلال عام ٢٠٠٨ حيث بلغ معدَّل نموه الحقيقي ٣,٢٪ مقابل ٥,٢٪ في عام ٢٠٠٧.

وعانت ماليزيا من عدَّة إشكاليات نتيجة لتلك الأزمة من ضمنها: هروب رأس المال الأجنبي، بسبب تخفيض البنوك والمؤسسات المالية في الولايات المتحدَّة والغرب أعمالها الدولية وركَّزت على أسواقها المحلية، وبناء على ذلك انخفض مؤشِّر بورصة كوالالمبور المركب من ١٣٩٣ نقطة في يناير ٢٠٠٨ إلى ٨٧٦ نقطة في ديسمبر ٢٠٠٨[١].

الحكومة أدركت خطورة المشكلة وقرَّرت استخدام مجموعة كاملة من التدابير المالية والنقدية للتخفيف من آثار الأزمة كان من الضروري حماية الاقتصاد مقابل انخفاض الطلب الكلي ولضمان عدم تراجع الإنفاق المحلي علاوة على ذلك، هناك حاجة ملحَّة لحماية الاقتصاد من أيِّ تآكُل للثقة، لم يكن أقل أهمية هو الاعتراف بأنه لا يمكن التضحية بالرفاهية الاجتماعية إذا كان تأثير الأزمة شديدًا وكان هدفان رئيسيان لحزمة التحفيز الأولى كما أعلنها وزير المالية تعزيز وتحفيز الاقتصاد، وإغاثة الجمهور[٢]، خاصة مع وجود خبرة مواجهة الأزمة المالية منذ ١٩٩٧، حيث اعتمدت ماليزيا على مقوِّمات الاقتصاد الداخلي في التغلُّب على الأزمات العالمية والمالية التي تظهر في الأُفق كل فترة، وكان لوجود خبرة المصرفية الإسلامية التي أصرَّت الحكومة على توسعة مساحاتها دور كبير في الصمود أمام تلك الأزمات.

خاتمة:

يُعَدُّ صندوق الحج الماليزي نموذجًا لأحد المؤسسات المالية التي نشأت لتلبية أحد احتياجات المجتمع الاجتماعية، يتجلَّى فيها الربط بين المصلحة الجمعية للمجتمع المسلم الماليزي ألا وهو أداء الفريضة بالقيم والمرجعية من حيث تسهيل أمر الحج على الحجيج والأمر الثاني اتفاقها مع متطلبات الشريعة من خلوِّ مال الحج من الربا والمخالفات المالية الأخرى للفقه.

كما يُعَدُّ مؤسسةً تنبع من المجتمع للمجتمع بإشراف حكومي ومساءلة شعبية حيث تخضع لمساءلة البرلمان حول أرباحها وتوزيعها ومقدار الزكاة المحسوب من أرباح المودعين. لقد كان نجاحها ملهمًا لاستمرارها على مدار ستين عامًا، وعلى إنتاج نماذج أخرى في دول أخرى، بل وفي نشأة علوم أخرى مصاحبة لها، ألا وهي علوم المصرفية الإسلامية والتي تُعَدُّ ماليزيا بلا شك أحد روادها.

كل ذلك لا ينفي أن التحديات ما زالت قائمة وكثيرة أمام الصندوق، ممثِّلا عن المصرفية الإسلامية، من حيث تطويرُ خدماته وتشريعاته والفقه المرتبط به لتفادِي مساحات المرفوض من الشريعة، ولتقديم نموذج آخر مغاير للمصرفية الربوية الحالية وما ينتج عنها من إشكالات، ليس فقط من الجانب الديني ومدى الحل والحرمة في ممارساتها، بل أيضًا من مدى تأثيرها على القطاعات الأكثر فقرًا في العالم، فبالرغم من النجاح سابق الذكر للصندوق وكونه نموذجًا يفرض نفسه على مؤسسات وممارسات الاقتصاد العالمي، فإنه المصرفية الإسلامية ما زالت محدودة المساحات في الاقتصاد العالمي داخل بعض الدول الإسلامية.

وفي المجمل، فإن نجاح مثل هذه المؤسسة بالرغم من

(١)عصام عبد الرازق، تحليل تلور أداء الأسواق المالية الناشئة بعد أزمة ٢٠٠٨: دراسة حالة ماليزيا، رسالة ماجستير، إشراف: مسعود بودخدخ، جامعة محمد الصديق بن يحيى - جيجل، ص ٧٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٥.

إشكاليَّاتها، يطْرح العديدَ من التساؤلات حول مؤسسات الدول الإسلامية ومدى ارتباطها بجمهورها وقدرتها على تلبية احتياجاتهم، ليس الاقتصادية الآنية منها وحسْب، وإنما الاحتياجات الدينية المالية أيضًا، في ظل عجز الكثير عن أداء بعض الفروض بسبب عجزهم عن دفع تكاليفها مع زيادة الأسعار والتكاليف مع كل أزمة اقتصادية تمر بها الاقتصادات الوطنية والأزمات العالمية.

تحديات إنتاج دراما هادفة: نماذج إقليمية

أمنية عمر*

مقدمة:

قد تتضاءل الأدوات التي تمتلكها المجتمعات في أوقات الأزمات، وربما تتقلص فاعليتها ويُختزل دورها، لكن الشعوب مع ذلك لا تعدم حيلتها في المحاولة والمقاومة، وتختلف أنماط مقاومتها واشتباكها، وهذا الاشتباك إما أن يكون ثوري سريع - ابن ساعته- يهدف لتغييرٍ مفصلي يُبنى عليه بعد ذلك، أو أن يكون اشتباك تراكمي عبر الأعمال المستمرة الصغيرة الكثيرة، وغالب الأحيان لا يُنتظر منه نتائج آنية، ولكنه الأجدى والأكثر تأثيرًا في الأمد الطويل على حياة الأمم والمجتمعات.

وتعتبر الدراما إحدى أهم الأدوات التي تمتلكها الشعوب والمجتمعات، والتي عادةً ما يشتبك عبرها المجتمع مع أزماته اشتباكًا تراكميًا طويل الأمد، والاشتباك الدرامي الهادف إنما ينطلق من موقفٍ معياري أخلاقي تجاه الموضوع أو الظاهرة، كما أنه يعكس تصورًا عقلانيًا نقديًا، إذ تلتزم الدراما بمسؤولية أخلاقية في الانحياز الكامل لقضايا وحقوق البشر والدفاع عنها، هذا الموقف يُقارب بين أرباب تلك الصناعة والعلماء والمثقفين حين ينحازوا لقضايا وهموم أمتهم ومجتمعاتهم فلا يتعالون عليها، أو ينحازوا لأرباب السلطة والقوة.

والدراما حين تتخذ موقفًا وتشتبك، فإنها تخاطب جمهورًا عريضًا شديد التنوع والاختلاف، لذا يُعول عليها كثيرًا سواء في عمليات التربية والتعليم والتثقيف، أو حتى الحشد والتوجيه. وقد أدرك رفاعة الطهطاوي مدى تأثير الدراما منذ رؤيته لها أول مرة في باريس، فقال "الدراما فيها تقليد سائر ما وقع، يأخذ الإنسان منها عبرًا عجيبة، لأنه يرى فيها سائر الأعمال الصالحة والسيئة، ومدح الأولى وذم الثانية، حتى إن الفرنساوية يقولون: إنها تؤدب أخلاق الإنسان وتهذبها، فهي وإن كانت مشتملة على المضحكات، فكم فيها من المبكيات، ومن المكتوب على الستارة بعد "فراغ اللعب" وقد تنصلح العوائد باللعب"[١].

وفي إطار فاعلية شعوب الأمة ودورها تجاه التحديات التي تواجهها، يتناول هذا التقرير الدراما "الهادفة"، باعتبارها محاولة دائمة للاشتباك الجاد والصادق مع أزمات وتحديات حقيقية تعاني منها المجتمعات العربية والإسلامية قديمًا وحديثًا. فيعرض التقرير في هذه المقدمة لما قد تعنيه الدراما الهادفة، ثم يتناول نماذج لأعمال درامية اشتبكت بموضوعية وجدية مع تحديات واجهتها شعوب الأمة وتواجهها عبر سيرورتها التاريخية الطويلة، ويُختتم التقرير بعرض لبعض العوائق والتحديات التي يُواجهها هذا النمط من الدراما، وما إذا كان هناك وسيلة لتجاوزها.

دراما هادفة

يختلف صناع الدراما والمهتمون بها من الباحثين أو حتى الجمهور في تعريفهم لماهية الدراما الهادفة، والمعايير الحاكمة التي تحدد ما إذا كان العمل هادفًا أو لا، وهو ما يجعل عادةً العمل الدرامي الواحد يُختلف في تقييمه من شخصٍ لآخر، لكن رغم ذلك هناك العديد من النظريات التي يمكن الاستعانة بها في تحديد معنى أن تكون الدراما هادفة.

على سبيل المثال، تتحدث نظرية الغرس الثقافي، عن أن الدراما واحدة من أشكال الإعلام التي يحدث من خلالها تفاعل لمدة زمنية طويلة ما بين مصادر القيم والمعرفة وبين نماذج السلوك، مما يدعم اكتساب الأفراد لأفكار واتجاهات وقيم وسلوكيات، بالإضافة لتشكيل صورة ذهنية عن الأشياء تتشابه

* باحثة في العلوم السياسية.

(١) رفاعة الطهطاوي، الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي، ت: محمد عمارة، (بيروت: المؤسسة الغربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٧٣)، ج٢، ص١١٩.

مع ما يتعرض الأفراد له من محتوى. ومما يسهل عملية الاكتساب هذه أن الدراما تقدم محتواها من خلال نماذج تتشابه في ظروفها الاجتماعية والنفسية مع ظروف جمهور المشاهدين، بناءً على هذه النظرية فإن الدراما الهادفة هي التي تساهم بعملية غرس ثقافي لقيم وأفكار وسلوكيات إيجابية، مما يساعد المجتمع على الترقي في صورة جماعية[١].

وهناك أيضًا نظرية المسؤولية الاجتماعية، التي ترى أن كافة أشكال الإعلام وعلى رأسها الدراما لها مهام ووظائف اجتماعية وتربوية وتوعوية في حياة الأفراد، وأن حرية وسائل الإعلام مشروطة بالتزامها بمسؤوليتها الاجتماعية، والدقة، والموضوعية، والتوازن. ووفقًا لهذه النظرية، فإن الدراما الهادفة هي التي تُنجز مسؤوليتها الاجتماعية، فتُعنى بتحقيق مصلحة المجتمع، بالإضافة لتمثيلها كل فئات المجتمع دون تمييز وبشكلٍ واقعي وموضوعي، كما تتجنب إذاعة كل ما يُثير الفوضى والجريمة، أو يُعادي الأقليات، كما لا يقتصر دور الدراما هنا على التزام مسؤوليتها الاجتماعية أو عرضها لقيم إيجابية وفقط، إنما يتجاوز ذلك لدعم مفهوم المسؤولية الاجتماعية عند الأفراد، واضطلاع المجتمع ككل بدوره.

وكلتا النظريتين ترى أن الدراما رسالة ومسؤولية، وليس مجرد إثارة وشهرة وكسب للمال، فلا ينبغي للدراما أن ينفصل كونها صناعة ربحية عن كونها رسالة مجتمعية[٢].

أولًا- نماذج درامية هادفة

حيث نستعرض نماذج لأعمال فنية تطرقت إلى أبرز القضايا الملحة على ماضي وحاضر ومستقبل العالم العربي والإسلامي، بدايةً من الاحتلال الأجنبي ومقاومته، إلى إشكاليات الاستبداد، وما ينتج من فقر، فضلا عن تفجر قضايا الهجرة واللجوء.

١- الاحتلال الأجنبي ومقاومته

يُعد الاحتلال الأجنبي أبرز التحديات الكبرى التي عانت منها الأمة، وتبعها سيطرة ظالمة على مقدراتها الاقتصادية والسياسية والفكرية بعد ذلك، حيث دفعت شدة التنافس ما بين القوى الكولونيالية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، لأن تسعى هذه الدول في تكوين إمبراطوريات لها، كانت الدول الإسلامية والعربية جزءً منها في غالب الأحيان. فبينما سيطر الفرنسيون على شمال غرب أفريقيا وأفريقيا الوسطى ولمدة وجيزة على بلاد الشام، سيطر الإنجليز على مصر والخليج وعدن في جنوب اليمن والعراق ضمن إمبراطوريتهم، وتدافعت إيطاليا في هذا التنافس للسيطرة على ليبيا وبعض دول أفريقيا[٣].

بالتزامن مع الحركة الكولونيالية الواسعة صُك وعد بلفور سنة ١٩١٧، والذي تحول إلى صيغة أممية تبنتها عصبة الأمم سنة ١٩٢٢، وبناءً عليها صارت الوظيفة الدولية للاستعمار البريطاني في فلسطين إقامة وطن قومي لليهود بفلسطين، وقد أيدت الدول الكبرى هذا الانتداب، ودعمت حركات الهجرة الواسعة من يهود العالم إلى فلسطين، مما أدى لارتفاع نسبة السكان اليهود في فلسطين من ١٨٪ عام ١٩٣٢ إلى أكثر من ٣١٪ عام ١٩٣٩. وترافق ذلك مع نمو قوة عسكرية مدعومة من أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، لتنفيذ التطهير العرقي الذي تعرض له الفلسطينيون سنة ١٩٤٨ حين تم طرد أكثر من نصف السكان العرب من البلاد آنذاك؛ على يد العصابات الصهيونية أولًا، ثم بقوة الجيش الإسرائيلي الذي أكمل انتصار الصهيونية العسكري والسياسي بعد ذلك[٤].

قاومت شعوب الأمة الوجود الكولونيالي، وسعت لنيل حريتها بشتى الطرق، فبدأت بالصدام المسلح، وبسبب اختلال موازين القوى ضدهم، تعثرت هذه المقاومة، وفي مرحلة ما بين الحربين اتخذت المقاومة الشكل السياسي، لكن السياق العالمي بعد

(١) داليا عثمان، دور الدراما الاجتماعية المصرية في تغيير المفاهيم الاجتماعية المصرية، المجلة العربية لبحوث الإعلام والاتصال، العدد٣٤، يوليو/ سبتمبر٢٠٢١، ص٧٨١-٨١٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٨١- ٨١٢.

(٣) عبد الملك التميمي، الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي، (الكويت: عالم المعرفة،١٩٨٣)، ط١، ص٩-٦٣.

(٤) رشيد الخالدي، حرب المئة عام على فلسطين، ت: عامر شيخوني، (بيروت: الدار العربية للعلوم،٢٠٢١)، ط١، ص٣٣-١٤١.

الحرب العالمية الثانية كان داعم لحركات التحرر، ونالت العديد من الدول استقلالها آنذاك، لكن بقي الاحتلال الاستيطاني الإسرائيلي لفلسطين على حاله.

أمام هذا التاريخ الطويل والتجربة الإنسانية الاجتماعية الممزوجة بالمقاومة والمعاناة في آنٍ واحد، قدمت الدراما ولا تزال تقدم الكثير من محاولات الاشتباك مع هذه التجربة على مختلف المستويات؛ فعلى سبيل المثال في أواخر العام ٢٠٢٢ عُرض فيلم "سيدي نجيب.. من سجل البطولة"، والفيلم إنتاج شركة "فجرنا" للأفلام، وهي شركة إنتاج فني أردنية مستقلة، تقوم بكتابة وإنتاج أفلام درامية ووثائقية وإعلانات وغيرها، كما تنشط في تنظيم العديد من الدورات التدريبية لأرباب الصناعة. وتتبنى الشركة نهج إنتاج إنساني اجتماعي، يهتم ويُواكب قضايا الأمة بشكلٍ متواصل. وفي هذا الإطار، كانت الشركة قد أنتجت أكثر من عمل يتناول واقع قطاع غزة والحروب المتواصلة عليها، وتُعيد صفحات الشركة نشر هذه الأعمال تضامنًا مع أهل القطاع ضد الحرب الشعواء عليه هذه الأيام.

أما فيلم "سيدي نجيب" فهو فيلم وثائقي درامي أردني، يروي حكاية الجندي الأردني "نجيب سعد العلي البطاينة"، الذي هجر وطنه؛ ليُقاتل مع رجال الثورة الليبية ضد الاحتلال الإيطالي حتى أُستُشهد هناك، ولقبه رفاق سلاحه في ليبيا "سيدي نجيب"، وأقاموا له ضريحًا بمنطقة المسوس بالقرب من بني غازي.

ويُلقي الفيلم الضوء على الدور المحوري لتربية سيدي نجيب، والتي دفعته للالتحاق بثوار ليبيا، فقد وُلد وعاش في بيئة مناضلة؛ ذلك أن والده له صولاته ضد الاستعمار الفرنسي والبريطاني في سوريا وفلسطين، وقدم خدمات للمناضلين عبر تسليحهم وإيوائهم، لذا كبر سيدي نجيب وقد ترسخت في قرارة نفسه مبادئ دفع الظلم عن غيره من إخوانه المسلمين. وبحسب الفيلم، شارك بطاينة في مقاومة الإيطاليين مع الجيش العثماني، وعندما انسحب الجيش رفض هو الانسحاب، وبقي يُقاتل ويُقاوم مع إخوانه ثوار ليبيا حتى نال الشهادة[١].

وفي قطاع غزة، قامت فضائية القدس اليوم بإنتاج مسلسل "ميلاد الفجر" بجزئيه في عامي ٢٠٢١ و٢٠٢٣، وقناة القدس اليوم فضائية فلسطينية مستقلة، ظهرت على حد تعريف القناة لنفسها في لحظة سياسية حرجة في تاريخ الشعب الفلسطيني، وهي ملتزمة بالقضايا الإسلامية والوطنية والقومية والإنسانية، وعلى رأسها قضية فلسطين؛ شعب وأرض ومقدسات وتاريخ، وحاضر، ومستقبل، ضمن قالب من المهنية الصحفية الموضوعية، وتبث القناة من داخل قطاع غزة.

أما المسلسل، فهو كتابة محمود منصور، وزكريا أبو غالي، والذي اعتبره قصة إنسانية اجتماعية بالأساس تُعد المقاومة سمتها الأبرز، ويتناول المسلسل حقبة مهمة من تاريخ الشعب الفلسطيني من عام ١٩٩٥ حتى عام ٢٠٠٥. ففي الجزء الأول، يتناول المسلسل قصة حقيقية لهروب ستة فلسطينيين من حركة الجهاد الإسلامي من المعتقل، حيث تبدأ الرواية حينما يعود أحد العاملين الفلسطينيين من الأراضي المحتلة، ويجد ابنه الوحيد مريضًا، فيُقرر أن يأخذه للمشفى رغم حظر التجوال، وفي طريقه يعترضه جنود الاحتلال ويعتقلونه، ويُعذب داخل السجن، ثم أُفرج عنه بعد فترة، وذهب للبحث عن بندقية والده الشهيد، ووشى به أحد العملاء، فاعتُقل مرة أخرى، وزادت وطأة التعذيب هذه المرة، وأثناء سجنه انضم لإحدى الفصائل الجهادية، وكُلف بمهمة مساعدتهم للهروب، وينطلق معهم لاستكمال المقاومة في المحافظات الجنوبية والشمالية، وفيما يُستشهد الأسرى الستة، يمضي "جهاد" بطل المسلسل في مقاومته[٢].

ويتناول الجزء الثاني جهاد الشعب الفلسطيني خلال خمس

(١) توفيق عابد، سيدي نجيب.. من سجل البطولة "فيلم عن أردني قاوم الاستعمار الإيطالي في ليبيا، موقع الجزيرة نت، ٦نوفمبر٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع:٢٠أكتوبر٢٠٢٣، الساعة:٦:١٥،متاح عبر الرابط التالي: https://bitly.ws/32GqX

(٢) هيئة التحرير، ميلاد الفجر١، موقع فضائية القدس، إبريل٢٠٢١، تاريخ الاطلاع:١٩ نوفمبر٢٠٢٣، الساعة:١١ص، متاح عبر الرابط التالي: https://bitly.ws/32HRp

سنوات من ٢٠٠٠ وحتى ٢٠٠٥، وتدور أحداث المسلسل في أراضي فلسطين والشتات، بدايةً من انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠، ودخول شارون المسجد الأقصى، واستشهاد الطفل محمد الدرة، وانتفاضة الشعب والجماهير، ومقاومة الفصائل مرورًا بصراع العقول والأدمغة مع العدو، وتنفيذ العمليات البطولية في قطاع غزة والضفة الغربية والشتات، وصولًا إلى تطور المقاومة ومواكبة مراحل هذا التطور خلال انتفاضة الأقصى[١].

واتجهت حركة المقاومة الإسلامية حماس في السنوات الأخيرة للإنتاج الفني، يقينًا منها بأهمية دور الدراما في مقاومة الاحتلال وإبراز عدالة القضية الفلسطينية، كما أنها إحدى الساحات التي لابد من مزاحمة الاحتلال الإسرائيلي وسرديته فيها. لذا فقد أنتجت الحركة العديد من الأفلام والمسلسلات المستلهمة من شخصياتٍ وقصصٍ حقيقية، مثل فيلم الشهيد عماد عقل، ومسلسل بوابة السماء الذي يرصد معاناة أهل القدس وما يتعرضون له من انتهاكات يومية، وآخرها كان مسلسل "قبضة الأحرار" الذي عُرض عام ٢٠٢٢ ويحاكي قصة حقيقية، وقعت قبل ثلاثة أعوام جنوب شرقي قطاع غزة، عندما اكتشف مقاومون من كتائب عز الدين القسام (الذراع العسكرية لحركة المقاومة الإسلامية حماس) "خلية مستعربين"؛ وهي قوة إسرائيلية تنكرت في لباس فلسطيني، وتسللت إلى غزة في ظروفٍ غامضة، بهدف التجسس وجمع معلومات عن فصائل المقاومة، ويُصنف المسلسل بأنه "عمل فني استخباراتي"، يُبرز ما يُطلق عليه "صراع الأدمغة" بين المقاومة وأجهزة استخبارات الاحتلال الإسرائيلي، فضلا عن جوانب أخرى في حياة مليوني فلسطيني يعانون من ظروف مأساوية منذ ١٦ عامًا من الحصار، تخللتها ٤ حروب عنيفة.

وتهدف حماس من وراء هذا المسلسل إلى تقديم رواية فلسطينية مضادة للرواية الإسرائيلية، وإبراز تطور أداء المقاومة فيما وصفه رئيس دائرة الإنتاج الفني في حركة حماس الدكتور محمد ثريا "بصراع العقول"، حيث قال "نجتهد بإمكاناتنا المتواضعة لمجابهة الكذب والتضليل الإسرائيلي، إدراكًا لحجم تأثير الدراما على وعي الجمهور"[٢].

٢- الاستبداد السياسي

يُعد الاستبداد السياسي، أحد التحديات التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية منذ عدة قرون، ويتمثل هذا الاستبداد في الاستفراد بالسلطة والتحكم في الشعب والاستئثار بخيرات المجتمع، مع الإسراف في استخدام القوة لإدارة السلطة، والسيطرة التامة عليها، ويكون هذا الاستفراد إما من قبل فرد أو جماعة لهم مصلحة مشتركة، ويتبع الاستفراد بالضرورة احتكار لحقوق الآخرين في المشاركة والإدارة، وإبعاد المعارضين إما بالاعتقال أو القتل، أو أن ينفي هؤلاء أنفسهم اختياريًا خارج البلاد.

وبالنظر لتجربة الشعوب الإسلامية مع الاستبداد، فإنها تجربة طويلة من المعاناة ومحاولات الوقوف والمقاومة، تجربة استعان فيها المجتمع بكافة وسائله المتاحة بين يديه ليصف هذا الاستبداد ويحاول نزعه عن نفسه، أو على الأقل يُسجل محاولاته هذه ويحفظها. وتُعد الدراما هي إحدى المساحات التي تتزاحم فيها سرديتا المستبد والمستضعف، لكنها كمساحة تكثر وتتداخل العوامل المؤثرة بها، بما يفوق قدرة المستبد على السيطرة التامة عليها، وبالتالي فإن المجتمعات تُعول عليها لرواية السردية الخاصة بها، وتخليد معاناتهم وحيلهم في رفع الظلم عن أنفسهم.

ففي عام ٢٠٢٢ أخرج لطفي ناثان فيلم "حرقة"، وهو فيلم تونسي من إنتاج شركة سيني تيلي، وهي شركة إنتاج سنيمائي تونسية مستقلة، بالتعاون مع مؤسسة الدوحة للأفلام

(١) هيئة التحرير، ميلاد الفجر٢، موقع فضائية القدس، مارس٢٠٢٣، تاريخ الاطلاع:١٩ نوفمبر٢٠٢٣، الساعة: ١١:٣٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bitly.ws/32HSv

(٢) رائد موسى، دراما المقاومة.. قبضة الأحرار مسلسل رمضاني يحاكي قصص صمود غزة، الجزيرة نت،١٠فبراير٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع: ٢٠ أكتوبر٢٠٢٣، الساعة: ٨، متاح عبر الرابط التالي: https://bitly.ws/32Gto

وهي منظمة دولية في قطر تُعنى بتمويل الأفلام، والإنتاج، والتعليم، وتلتزم بتمكين وتعزيز إمكانيات كتاب السيناريوهات والقصص في المنطقة، في الوقت الذي تُحافظ فيه على طابعها العالمي من حيث المحتوى، كما تلقى الفيلم منحًا تمويلية من مؤسسات سنيمائية في كلٍ من لوكسمبورج والولايات المتحدة الأمريكية.

وتدور قصة علي بطل الفيلم في واقع يُشبه الذي عاشه البوعزيزي، لكن بعد الثورة التونسية، حيث يعيش الشاب التونسي "علي"، ويعمل في بيع الغاز المُهرب في شوارع تونس بعدما أُجبر على تحمل مسؤولية أختيه الصغيرتين بعد الوفاة المفاجئة لوالده، يتزامن هذا مع حالة من القمع الشديد تعيشه البلاد، ويُدرك "علي" استحالة الاستمرار في مجتمع تقمعه الشرطة بهذا الشكل، ويهدف منذ بداية الفيلم إلى الخلاص عبر الخروج من وطنه. ويتصاعد غضب علي على مدار أحداث الفيلم، وهذا بسبب التعامل غير الآدمي من الشرطة التونسية طوال الفيلم، حيث لا تُتيح بديلًا لعلي وأمثاله للعيش، بل تقتطع طوال الوقت من أرزاقهم الهزيلة. وأمام ضغط الظروف المعيشية، يُقرر "علي" أن يكسر القانون الذي أصبح لا يؤمن بممثليه، ويطلب من المعلم الذي يدير شبكة تهريب البنزين عبر الحدود أن يجعله يقوم بعملية تهريب كمية كبيرة من البنزين في شاحنة مقابل مبالغ أكبر من تلك التي يحصل عليها، لكن مطالبة الشرطة له بالحصول على المزيد من المال تجعله يفقد الأمل، فيُقرر التنازل عن كل شيء والانتحار[١].

وفي عام ٢٠٢٣، أخرج عروة محمد مسلسل "ابتسم أيها الجنرال"، وأنتجته شركة "ميتا فورا"، وهي شركة قطرية خاصة للإنتاج الفني، وتُعرف الشركة نفسها بأنها تسعى لإنتاج أعمال تليفزيونية وسنيمائية، روائية ووثائقية، وتطمح للمشاركة في التعبير عن طموح المبدعين العرب؛ سواء على الصعيد الفني، أو على صعيد تجسيد قيم الحرية والجمال؛ بما يعكس تطلعات الروح العربية لعالم جديدٍ خالٍ من التطرف والتعصب، كذلك فإن الشركة تُعلن بوضوح وقوفها إلى جانب الإنسان العربي في معاركه ضد الديكتاتورية والتخلف والفقر، وتقوم بإنتاج أعمال فنية تعكس تلك الروح[٢].

وأما المسلسل، فعلى الرغم من نفي القائمين عليه لأي تشابه بينه وبين الواقع، لكن يسهل على المتابعين معرفة أن المسلسل يدور حول عائلة الجنرال الأسد في سوريا، حيث يتناول المسلسل قصة عائلة حاكمة في جمهورية عربية خيالية هي دولة الفرات، بدءً من العام ٢٠٠٥، ويُشير مسمى "الفرات" هنا إلى النهر وإلى اسم الزعيم السلطوي الحاكم أيضًا في البلاد، الذي ورث منصبه من أبيه الراحل، وتدور معظم أحداث المسلسل داخل الدائرة الضيقة للسلطة، والتي تضم عاصي شقيق فرات، ومنافسه على السلطة وهو لواء في الجيش، كما تضم رئيس جهاز المخابرات العامة، وكذلك تشمل الشخصيات الرئيسة الأخرى زوجة الرئيس، وشقيقته، ووالدته، وابن خاله الرأسمالي، وتنهمك كل شخصية في هذه الدائرة بارتكاب الجرائم وممارسة الأعمال الوحشية بقدر انخراطها في حكم البلاد، كما يتناول المسلسل طبيعة علاقة دولة "الفرات" مع دول الجوار والصراعات التي خاضتها هذه الدولة[٣].

٣- الفقر

يُعد الفقر أحد أكبر التحديات والعوائق في الدول العربية والإسلامية، وهو نتيجة متوقعة وطبيعية لعقودٍ من الاحتلال أعقبها عقود من الاستبداد والفساد السياسي، والتجريف المتعمد للموارد المجتمعية والثروات الاقتصادية. ومما يزيد الأمر سوءً أن نسب الفقر متصاعدة وبوتيرةٍ متسارعة في العديد

(١) فريد رستم، فيلم "حرقة".. قصة الخلاص من عبء الوطن، موقع الجزيرة نت، ١٩ديسمبر٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع:١٢ديسمبر٢٠٢٣، الساعة ٨، متاح عبر الرابط التالي: https://bitly.ws/36bvA

(٢) القامشلي، "ابتسم أيها الجنرال "مسلسل سوري يحاكي الأسرة الحاكمة ويثير الجدل، وكالة نورث برس، ٥مارس٢٠٢٣، تاريخ الاطلاع:١٠ ديسمبر٢٠٢٣، الساعة:٥، متاح عبر الرابط التالي: https://bitly.ws/36bNz

(٣) عصام قيسي، ابتسامات الأسرة.. صناعة رمزية للديكتاتوريات، موقع قنطرة،١٨ إبريل٢٠٢٣، تاريخ الاطلاع:١١ديسمبر٢٠٢٣، الساعة:٨، متاح عبر الرابط التالي: https://bitly.ws/36bP4

من الدول العربية والإسلامية، فعلى سبيل المثال، أفادت لجنة الأمم المتحدة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (الأسكوا) بارتفاع مستويات الفقر في المنطقة العربية في عام ٢٠٢٢ مقارنةً بالسنوات الماضية ليصل عدد الفقراء إلى ما يقرب من ١٣٠ مليون شخصًا، أي ما يُمثل ثلث سكان المنطقة، باستثناء دول مجلس التعاون الخليجي وليبيا، وذلك وفقًا لخطوط الفقر الوطنية، كما أن هذه المستويات متوقع أن تستمر في الارتفاع لتصل إلى ٣٦٪ في عام ٢٠٢٤[١].

لذا؛ فليس من المستغرب أن تشتبك الدراما مع الفقر؛ كظاهرة تضرب بعمق جذورها في الكثير من المجتمعات العربية والإسلامية، وتتعدد أوجه الظاهرة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والإنسانية، مما يجعلها أشبه بمنجم سيناريوهات واقعة بالفعل أو منتظرة، وما على صانع الدراما المنشغل بقضايا مجتمعه سوى أن يؤطرها في شكلٍ فنيٍ معين، وإلا فدرامية الظاهرة طاغية في حد ذاتها.

فعلى سبيل المثال، أخرج المخرج المصري عمر الزهيري فيلم «ريش» عام ٢٠٢١، وهو فيلم شبه صامت، والتجربة الأولى لكافة الممثلين به، ويحكي الفيلم قصة عائلة مصرية من أبٍ وأمٍ وثلاثة أفراد، تعيش في إحدى العشوائيات، بمنزل يُغلفه الفقر، وتحوطه القذارة من كل مكان، تقرر الأسرة الاحتفال بعيد ميلاد الابن رغم ضيق الظروف، والإتيان بساحر للترفيه، يُدخل الساحر الأب إلى صندوقٍ خشبيٍ كبير، وببعض الحيل والحركات يُحوله إلى دجاجة لكنه يفشل في رده مرةً أخرى! عندها تبدأ مهمة الأم الشاقة بتأمين القوت اليومي لأطفالها، والذهاب للعمل عوضًا عن زوجها، وتُحاصر بالديون التي تركها خلفه، بالإضافة لإيجار المنزل الذي لم يُدفع، مما عرضها للطرد ومصادرة كل محتويات المنزل المهترئة أصلًا، وطوال الفيلم تذهب الزوجة إلى عدة سحرة ومشعوذين كي تسترد زوجها، وفي النهاية تسترده بطريق الصدفة شبه مفارق للحياة، لتستمر معاناتها في الحياة دون توقف[٢].

ورغم أن الفيلم لم يُحدد إطارًا مكانيًا ولا حتى أسماء دالة للشخصيات فيه، كما أن مواقع التصوير ديكورات مصنوعة وبعضها إضافات بتقنية الجرافيكس، لكنه فيلم مصري بقدراتٍ مصرية وبلهجةٍ مصرية، ويشتبك مع ظاهرة الفقر بشكلٍ جاد، عبر مزج الواقعية والفانتازيا معًا.

وفي العام ٢٠٢٢، أخرج المخرج الإيراني سعيد روستاي فيلم "إخوة ليلى"، يقص الفيلم حكاية أسرة فقيرة، مكونة من أربعة أشقاء وأخت اسمها ليلى، الأخ الأكبر علي رضا قد ترك وظيفته في المصنع لأنه وغيره من العمال يعملون لشهورٍ دون راتب، مما دفعهم للاحتجاج وهجوم الشرطة عليهم، أما الأخ الثاني فقد استقل عن الأسرة منذ زمن، والثالث يعمل في تنظيف مراحيض أحد المولات التجارية، والأخير يعمل كسائق على سيارة قديمة، ويرغب في احتراف المصارعة الأمريكية. تدفعهم ليلى لعمل مشروعٍ تجاري، هو شراء مراحيض أحد المراكز التجارية، ثم ردمها وتحويلها إلى محلٍ تجاري، من جهة أخرى يسعى والدهم إسماعيل لخلافة ابن عمه الميت وتولي عرش العائلة، ولن يحدث هذا إلا عبر دفع أربعين ليرة ذهبية في حفل عرس ابن قريبه، يرضخ الأشقاء الذكور لوالدهم، لكن ليلى ترفض وتسرق الليرات من أبيها في العرس، ويُقيموا المشروع بالفعل، لكن مرض أبيهم يدفع الإخوة الذكور لبيع المحل، وإرضاء أبيهم على أمل استعادة الأموال بعد استرداد هيبته أمام العائلة.

لكن الانهيار الاقتصادي الذي أصاب البلاد، يحول دون استعادة المحل مرةً أخرى، وتصبح الليرات بلا قيمة، بعد ارتفاع المحل المباع لأضعاف سعره، فبقوا قابعين بين براثن الفقر، وينتهي الفيلم بموت إسماعيل ورقص الفتيات الصغيرات

(١) الإسكوا: ثلث سكان المنطقة العربية يعيشون تحت خط الفقر رغم زيادة النمو الاقتصادي، الأمم المتحدة، ٣٠ ديسمبر٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع: ٤ نوفمبر ٢٠٢٣، الساعة: ١٠م، متاح عبر الرابط التالي: https://bitly.ws/32GvH

(٢) أنيس أفندي، فيلم ريش: بين البحث عن الفن والبحث عن الشرطة، موقع إضاءات،٢٠ أكتوبر٢٠٢١، تاريخ الاطلاع: ٧ نوفمبر ٢٠٢٣، الساعة:١٢م، متاح عبر الرابط التالي: https://bitly.ws/32Gwc

بالأبيض أمام جثمانه.

يشتبك الفيلم بشكلٍ حقيقي مع العديد من قضايا المجتمع الإيراني والمتمحورة حول الفقر، كالبطالة والتفاوت الطبقي، والاقتصاد العالمي وظلاله التي تُخيم على المجتمعات، والصراع الممتد ما بين البنى التقليدية وعملية التحديث، كما يرصد بدقة التغيرات التي يمر بها المجتمع الإيراني على إثر هذا الصراع[١].

٤-الهجرة واللجوء

تواجه الدول العربية والإسلامية في السنوات الأخيرة موجات هجرة واسعة، سواء كانت هذه الموجات منها كمنطقة مُصدرة للمهاجرين، أو منطقة عبور واستقرار لبعضهم، وقد كشف تقرير منظمة الهجرة التابعة للأمم المتحدة الصادر عام ٢٠٢١ أن المنطقة العربية لا تزال منطقة منشأ وعبور رئيسية. ومما جاء في التقرير أن الدول العربية إحدى الوجهات المفضّلة للمهاجرين الدوليين والأشخاص الذين هُجّروا قسرا، ففي عام ٢٠٢٠، استضافت الدول العربية حوالي ١٥ في المائة من المهاجرين واللاجئين في العالم، أي حوالي ٤١,٤ مليون مهاجر ولاجئ، واستضافت ١٢ دولة من المنطقة ١٤ في المائة من العمال المهاجرين في العالم.

أما فيما يتعلق بالهجرة إلى الخارج، فقد هاجر حوالي ٣٢,٨ مليون شخصًا أو أُجبروا على النزوح من البلدان العربية في عام ٢٠٢٠، مكث ٤٤ في المائة منهم في المنطقة، وبلغت نسبة اللاجئين القادمين من بلدان عربية ٤٣ في المائة من مجموع اللاجئين المشمولين بولاية مفوضية اللاجئين (حوالي ٨,٩ مليون لاجئ من أصل ٢٠,٧ مليون لاجئ في العالم)[٢].

وتتعدد أسباب اللجوء من وإلى المنطقة العربية، سواء كانت اقتصادية لطلب الرزق وتحسين الدخل، أو سياسية للبحث عن الحرية والأمان والهرب من بطش الحكومات، أو الحروب والصراعات، أو أسباب تعليمية طلبًا للعلم واستكمال الدراسة، أو أن تدفع الكوارث الطبيعية الناس دفعًا لمغادرة بلادهم، وعادةً ما تصاحب حركة الهجرة واللجوء العديد من الآلام؛ بدايةً من ألم الخروج وترك الديار، مرورًا بمشقة ومخاطر رحلة اللجوء، ووصولًا إلى الصعوبات والمتاعب التي تواجه المهاجرين في المجتمعات الجديدة.

لذا؛ فليس من المستغرب أن تشتبك الدراما مع ظاهرة الهجرة، اشتباكًا متعدد المستويات والمنطلقات، لكن يظل البعد الإنساني هو الغالب عليه وتتجسد في طياته باقي الأبعاد الأخرى للظاهرة.

ففي العام ٢٠١٧ أخرجت المخرجة التركية أنداش أوغلو، فيلم "مسافر حلب- إسطنبول" عن اللجوء السوري لتركيا، وهو إنتاج مشترك بين الشركات التركية:

Andac Film Productions -Istanbul Digital- Istanbul Film Productions

بالتعاون مع شركة بان إيستميديا من الأردن، وقد حصل مشروع الفيلم على دعم مادي من وزارة الثقافة والسياحة التركية، علمًا أن كل الشركات المساهمة في الإنتاج هي شركات إنتاج فني خاصة، تستهدف القضايا الإنسانية والمجتمعية عبر أفلام روائية ووثائقية[٣]، واللافت في الفيلم أن جميع الممثلين كانوا لاجئين سوريين حقيقيين يُمثلون للمرة الأولى ما عدا الممثلة الأردنية صبا مبارك. تبدأ الحكاية من قصف النظام السوري لأحياء حلب، وبسبب القصف تموت الكثير من العائلات، منها عائلة " لينا" ذات العشر سنوات، وتتبقى هي وأختها الرضيعة، لتبدأ رحلة هجرتها مع جارتهم "مريم" -فتاة تعمل في صالون نسائي. ذلك حيث هرب من تبقى من الأهالي في قافلة لسيارات

---

(١) لينا الرواس، إخوة ليلى: الفقر بطل غير متوج، موقع حبر،٢٢ مايو٢٠٢٣، تاريخ الاطلاع: ٩ نوفمبر ٢٠٢٣، الساعة: ٥ص، متاح عبر الرابط التالي: https://bitly.ws/32Gwu

(٢) تقرير حول الهجرة، الأمم المتحدة، ١ يوليو ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع: ٥ نوفمبر ٢٠٢٣، الساعة: ٨م، متاح عبر الرابط التالي: https://bitly.ws/32Gxf

(٣) مسافر حلب/اسطنبول يفوز بجائزة أفضل إنتاج فني، صحيفة البلاد، ١٢ أكتوبر ٢٠١٨، تاريخ الاطلاع: ٩ ديسمبر ٢٠٢٣، الساعة: ٣، متاح عبر الرابط التالي: https://bitly.ws/36bSe

"البيك أب"، وفي أثناء مغامرة الوصول للحدود التركية أوقفت إحدى الكتائب المسلحة القافلة، وسلبت جميع ما يملكون، واحتجزتهم في معسكرٍ تابعٍ لها، لكن مريم بعدها نجحت في الوصول إلى إسطنبول، ومعها لينا، وهناك تتلقى اتصالا من عم لينا يعدها بدفع كل اللازم لوصول الفتاة إليه في ألمانيا، وبينما كانت لينا تأمل في العودة للوطن دائمًا والبحث عن أمها، فإن حلم مريم كان الوصول لأوروبا[١].

تتابع المخرجة رحلة اللجوء الشاقة ومعاناة اللاجئين في إسطنبول، فالعائلات تسكن في مخيمات أو تتكوم فوق بعضها في قبوٍ مستأجر، يُطردون منه إن عجزوا عن دفع إيجاره، أو يبيتون في الحدائق العامة والشوارع. تضطر مريم للعمل في مصنع ألبسة وتضيع منها لينا، ثم يلتقيا بعد مدة، ويُرسل عم لينا المال اللازم للهجرة إلى أوروبا، لكن المال لا يكفي سوى لهجرة شخصٍ واحد، فتضطر مريم لوداع لينا وإرسالها وحدها في إحدى قوارب الهجرة لليونان، وينتهي الفيلم عند هذا المشهد، نهاية مفتوحة ومصير معقد مجهول للفتاتين.

وطوال مسار الفيلم يمكن رؤية ردود الفعل المختلفة من المجتمع التركي تجاه اللاجئين السوريين؛ فهناك المستغلون، والمتحرشون جنسيًا باللاجئات، وهناك المؤجر القاسي، الذي طردهم عند عجزهم عن دفع الإيجار، بالإضافة لمن يتهمون كل لاجئ أو لاجئة بالسرقة. لكن على الجانب الآخر، هناك الجيران الطيبون الذين يُقدمون طعامًا وألبسة للعائلات السورية، ومديرة عاملات المصنع المتعاطفة مع مريم، والسيدة التي ساعدت لينا عند رؤيتها وحيدة ومريضة تحت المطر وأخذتها للمشفى[٢].

وفي العام ٢٠١٨ أخرجت المخرجة سارة العبيدي فيلم "بنزين"، من إنتاج زوجها المنتج علي بن عبد الله، والذي أسس شركة إنتاج تونسية مستقلة مع زوجته وأسماها سينرجي، وأما الفيلم فهو يُسلط الضوء على ظاهرة الهجرة غير الشرعية بواسطة قوارب الموت التي تعبر البحر المتوسط إلى الشواطئ الأوروبية، إيطاليا خاصةً، والتي راح ضحيتها الآلاف من الشباب العربي.

حيث يتناول الفيلم قصة عائلة تونسية صغيرة تعيش في قرية "المجني" بريف قابس، في الجنوب الشرقي التونسي بين مارث وبني خداش وتوجان، وتعيش العائلة من تربية الماشية بينما الزوج يبيع البنزين المهرب على الطريق الرئيسي المتجه للعاصمة تونس، بعد أن أقفرت أرضه الزراعية لانقطاع المطر، يخرج ابنهم أحمد ٢٤ عامًا في محاولة لهجرة غير شرعية، سعيًا وراء الرزق، وتختفي أخباره، ومن هنا تبدأ محنة العائلة، حيث تخوض محاولات كثيرة لمعرفة مصير ابنها، ويبيع الأب جزءً من ماشيته ليوفر أتعاب محامي في العاصمة تونس لمتابعة أخبار ابنه، سواء وصل إلى إيطاليا أم لا، عن طريق تواصل المحامي مع صديقه في روما، حيث سيستعين به في التواصل مع وزارتي الخارجية والداخلية الإيطالية، وقد طرق الأبوان كل أبواب المنظمات العالمية في العاصمة، وشاركوا بالمظاهرات أمام مقر وزارة الخارجية التونسية، لكن كل هذا دون جدوى.

تمرض الأم حليمة وتطلب من زوجها أن يبحث عن ابنهما، يبحث الزوج في كل مكان، ويذهب للطب العدلي، وحتى لعصابات الهجرة نفسها، لكن لم يعثر على ابنه. في نهاية الفيلم يستلم سالم رسالة من وزارة الخارجية التونسية تطلب منه الحضور، فيركب سيارته القديمة هو وزوجته، التي تحمل حقيبتها بها صورة لابنها، وأثناء الطريق يأتي مشهد النهاية بالإعلان عن غرق ١٥٠ ألف شاب تونسي، دون معرفة مصير أحمد، هل هو ضمن الغرقى، أم محجوز في إحدى معسكرات المهاجرين في إيطاليا؟![٣]

---

(1) علاء رشيد، مسافر: حلب-إسطنبول، رؤية سينمائية تركية للجوء السوري، موقع جيرون،٢١ديسمبر٢٠١٨، تاريخ الاطلاع:٢٣أكتوبر٢٠٢٣،متاح عبر الرابط التالي: https://bitly.ws/32Gx2

(2) المرجع السابق.

(٣) معد فياض، الفيلم التونسي "بنزين" يسلط الضوء على مآسي الهجرة وقوارب الموت، موقع rudwa، ٢٥يوليو٢٠٢٣، تاريخ الاطلاع: ١١نوفمبر٢٠٢٣، الساعة:١١م، متاح عبر الرابط التالي: https://bitly.ws/32GxI

ثانيًا- أبرز تحديات صناعة دراما هادفة:

إن محاولات إنتاج دراما هادفة كما أنها تشتبك اشتباكًا حقيقيًا مع قضايا المجتمعات العربية والإسلامية إلا أنها تتأثر بها أيضًا، لذا تظل الأعمال الهادفة محدودة وتعوقها الكثير من العراقيل، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو فنية، نحاول في هذا الجزء من التقرير التوقف على بعضها، وإلا فإنها كثيرة ومتداخلة.

١-عوائق سياسية

تعاني الدراما الهادفة عدة عوائق سياسية تختلف باختلاف البلدان المنتجة للعمل، فمن جهة يمثل التضييق الأمني تحديًا حقيقيًا أمام أي محاولة للاشتباك الجاد مع قضايا الشأن العام في المجتمعات العربية والإسلامية، وتستعين الدولة عادةً بترسانة القوانين أو أجهزة الرقابة الفنية للقيام بهذا الدور نيابةً عنها، وهو ما يؤدي بدوره إلى رفض الكثير من الأعمال الجيدة والهادفة ومنعها من العرض، أو إلى اتجاه العديد من صانعي الدراما إلى إنتاج وتصوير أعمالهم بالخارج، مما أضر بصناعة الدراما نفسها داخل بلدانهم. ففي عام ٢٠١٧ حددت اللجنةُ الدرامية المصرية -التابعة للمجلس الأعلى للإعلام- الموضوعات الدرامية التي ينبغي لصناع الدراما والمنتجين الفنيين الاختيار منها؛ مثل إفساح المجال لمعالجة الموضوعات المرتبطة بالدور المجيد والشجاع الذي يقوم به أفراد المؤسسة العسكرية ورجال الشرطة في الدفاع عن الوطن، وكذلك الدراما التاريخية والدينية والسِّيَر الشعبية للأبطال الوطنيين بهدف تعميق مشاعر الانتماء وتنمية الوعي القومي. وأقرت لجنة الدراما لأول مرة تطبيق غرامة (مائتي ألف جنيه) على كل قناة فضائية، و(مائة ألف جنيه) على الإذاعات، مقابل كل لفظ مُسيء يتم نشره عبر إحدى هذه الوسائل، على أن يتم سحب ترخيص الوسيلة الإعلامية التي تتكرر من خلالها الإساءات ولم تلتزم بالعقوبة خلال ستة أشهر[١].

ومن جهةٍ أخرى، تعاني كذلك الدراما المنتجة في دول وأراضي محتلة ومضطهدة من كثيرٍ من العوائق، أبرزها ضعف الإمكانات المتوفرة، بالإضافة لصعوبة تسويق هذه الأعمال، إذ القنوات في غالبيتها تتعارض سياساتها التسويقية مع هكذا أعمال. مثلا، في إطار حديثه عن الإنتاج الدرامي داخل غزة، يقول الدكتور محمد ثريا- رئيس دائرة الإنتاج الفني بحركة حماس- "إن محاولات إنتاج أعمال تتبنى السردية الفلسطينية الحقيقية تُواجه دائمًا بضعف الإمكانات المادية والبشرية، فعلى سبيل المثال لا يوجد في غزة استوديوهات إنتاج فني، ولا معاهد متخصصة، مما يضطرنا لتصوير الكثير من المشاهد في الشارع، وهو ما عرضنا أكثر من مرة لهجوم الاحتلال الإسرائيلي، يأتي هذا في مقابل الدعم المادي والفني الهائل الذي تتلقاه إسرائيل لإنتاج أعمال تُشوه صورة المقاومة والنضال الفلسطيني، بالإضافة للعديد من المنصات الإعلامية التي تتسابق لعرض هذه الأعمال، في حين عادةً ما نجد صعوبة في عرض أعمالنا المنتجة داخل غزة[٢].

٢-عوائق اقتصادية

تعاني معظم الدول العربية من أزماتٍ اقتصاديةٍ عديدة، وهو ما يدفعها للاقتراض عادةً من صندوق النقد الدولي وتحرير سعر الصرف، لذا فقد ارتفعت تكلفة الإنتاج الفني بنسبة تتراوح ما بين ٣٠ و٥٠٪ منذ نوفمبر ٢٠١٦، وتجسدت هذه الزيادة في أجور العاملين، والمعدات الفنية المستوردة، بالإضافة للديكورات الخاصة وتكلفة إيجار مواقع التصوير، علمًا أنه تفرض بعض الدول نسبة ضرائب تتجاوز٣٪ على أي معدات مستوردة من الخارج[٣]. أما دول الخليج، فعلى الرغم من ارتفاع المستوى الاقتصادي، لكنها تعاني من تدني مستوى الإنفاق الفني، حيث يتحدث بعض المستثمرين في مجال الإعلام أن

---

(١) أمنية عمر، اتجاهات الدراما في مصر: بين الدولة والمجتمع ورأس المال، موقع مركز الحضارة، ٢٨ إبريل٢٠٢٣، تاريخ الاطلاع: ٢٣نوفمبر٢٠٢٣، الساعة:١٢م، متاح عبر الرابط التالي: https://bitly.ws/32HW3

(٢) رائد موسى، دراما المقاومة.. قبضة الأحرار مسلسل رمضاني يحاكي قصص صمود غزة، مرجع سابق.

(٣) المنتجين الفنيين: تكلفة إنتاج الأفلام ارتفعت ٥٠٪ بعد التعويم، جريدة البورصة،٢٢نوفمبر٢٠١٧، تاريخ الاطلاع: ١٢ ديسمبر ٢٠٢٣، الساعة:٨، متاح عبر الرابط التالي: https://bitly.ws/36c72

حجم الإنفاق الفني في دول الخليج لا يتجاوز ٠٫٥٠٥ من حجمه الحقيقي المفترض أن يبلغه قياسًا بحجم اقتصاديات هذه الدول -وفقًا لبعض المختصين[١].

يُعاني الإنتاج الفني في العالم الإسلامي والعربي كذلك من أزمة "رأس المال الجبان"، ذلك حيث دخول التجار إلى عالم الإنتاج الفني، ولكن المنتج التاجر عادةً لا يبحث عن نصوص وسيناريوهات فنية جيدة، أو ممثلين ومخرجين موهوبين، وإنما صاحب هذه العقلية متى ما دخل إلى السوق الفني، فإنه يسعى طوال الوقت إلى تمييع أي أسس وضوابط مهنية وفنية أصيلة، في سبيل مضاعفة أرباحه، ومن ثم الهبوط بالذوق الجمعي لجمهور المتلقين، واستمرار تسويق اللامعنى، وخلخلة البنى القيمية الثقافية لأي عمل فني[٢].

يرتبط بمشكلة رأس المال مشكلة التسويق، حيث يُعتبر أيضًا الإنتاج الفني صناعة، تخضع لمعايير السوق وحركة العرض والطلب، وهذا يدفع بالمنتجين إلى نوعية معينة من الأفلام -مضمونة- على حد تعبيرهم- ولا تحوي أي مخاطرة سواء على مستوى الأفكار أو السيناريوهات والممثلين، وهو ما يجعل صناع الأفلام الجادة يُعانون في البحث عن منتج يخوض معهم مغامرة إنتاج هذه النوعية من الأفلام[٣].

لذا؛ فكثيرًا ما نجد أن الأفلام المختلفة والتي تشتبك مع الواقع وتناقش ظواهره بعمقٍ وجدية، عادةً ما تكون إنتاجًا أجنبيًا وعادةً ما تُعرض بالخارج وتستهدف المهرجانات الفنية العالمية بشكلٍ أساسي. تعكس هذه المشكلة النظرة العامة للإنتاج الفني في مجتمعاتنا، فمن جهةٍ يعني اعتبار الإنتاج الفني صناعة وتجارة، أن يعدم أي رسالة ثقافية أخلاقية مجتمعية، ومن جهةٍ أخرى فصناع هذا النوع من الأعمال الدرامية عليهم مراعاة كافة العناصر السمعية والبصرية وطبيعة السيناريو ومستوى الحوار المقدم في العمل وحبكته الدرامية، حتى لا يتحول العمل لـ "فيلم مهرجانات" كما يطلق عليه المشاهدون، بمعنى أنه لا يُعرض سوى في المهرجانات، سواء كانت تلك المهرجانات عالمية أو محلية (بخلاف ما يُطلق عليه الأفلام التجارية أو بمعنى أصح الأفلام السائدة)، حيث توصم الأعمال التي تقدم في المهرجانات أنها معقدة، ومملة، لا يفهمها المشاهد العادي وليس معدة لتذوقه، بل للنقاد وصناع الأفلام الآخرين، وغير مستهدف بها عامة الجمهور، فيعزف المنتجون بطبيعة الحال عنها[٤].

٣-عوائق فنية

يتحدث صناع الدراما في السنوات الأخيرة عن أزمة في مستوى النصوص وركاكة السيناريوهات المقدمة في الأعمال الفنية، مما يؤدي لضعف الحبكات الدرامية، وتفكك الخطوط الدرامية المقدمة داخل العمل الواحد. ويُرجع أرباب الصناعة هذا الضعف لعدة أسباب منها: ضعف الموهبة والخبرة لدى كتاب الأعمال الفنية الحاليين، وعدم قدرتهم على تحويل مخزونهم الفكري لمشهدٍ بصري، بالإضافة لتعجل شركات الإنتاج في طلب النص من الكاتب قبل اكتماله ونضج البناء الفني للشخصيات المقدمة في العمل. يتحدث آخرون أن غياب تخصص الكتابة عن معاهد السينما والفنون، وعدم التمييز بين أنواع الكتابة الفنية المختلفة، أحد أبرز الأسباب في ضعف السيناريوهات الفنية المقدمة، وهناك أيضًا ما يتصل بورش

(١) إيمان الخطاف، سوق الإنتاج الفني الخليجي تبحث عن طوق نجاه لإنعاشها، صحفية الشرق الأوسط، ١٧ أبريل ٢٠١٧، تاريخ الاطلاع: ٩ ديسمبر ٢٠٢٣، الساعة:٩، متاح عبر الرابط التالي: https://bitly.ws/36c6y

(٢) لميس علي، رأس المال الفني وتسويق دراما القشور، صحيفة الثورة، ١٨ مارس٢٠٢١، تاريخ الاطلاع: ٦ ديسمبر ٢٠٢٣، الساعة:٩، متاح عبر الرابط التالي: https://bitly.ws/36c2y

(٣) محمد هلال، صناعة السينما والدراما في مصر، مساحة من الإبداع والحرية تتلاشى بسبب "الاحتكار والقبضة الأمنية"، شبكة مواطن، ١ سبتمبر ٢٠٢٣، تاريخ الاطلاع: ٢٤ نوفمبر ٢٠٢٣، الساعة: ١٢م، متاح عبر الرابط التالي: https://bitly.ws/32HYN

(٤) علياء طلعت، أفلام المهرجانات التي لا يشاهده أحد: هل يستحق ريش إيرادات في دور العرض، موقع الجزيرة نت،٢٦ أكتوبر ٢٠٢١، تاريخ الاطلاع: ٢٦ نوفمبر ٢٠٢٣، الساعة: ٦م، متاح عبر الرابط التالي: https://bitly.ws/32I3h

الكتابة الفنية الجماعية، فعلى الرغم من فائدة هذه الورش في تنمية المواهب الكتابية الشابة، لكن تعجل البعض في الاستعانة بالنصوص المكتوبة في هذه الورش دون معالجتها أو تنقيحها من قبل كتاب متمرسين، يجعل مثل هذا النمط من العمل الفني يأتي مبهمًا يفتقد لأي هوية مميزةً له[١].

لكن هناك اتجاه آخر يرى أن الدراما العربية لا تعاني أزمة نصوص، وأن النصوص الجيدة والكتاب والممثلين الموهوبين موجودون بالفعل، لكن المشكلة الحقيقية تكمن في ظاهرة "الشللية" المسيطرة على صناعة الإنتاج الفني، فمن جهة يعاني أصحاب النصوص الجيدة من صعوبة إيصال نصوصهم إلى المنتجين وشركات الإنتاج الفني للتعاون معهم، ومن جهةٍ أخرى يُواجه الممثلون نفس المشكلة، ففي الوقت الذي يعاني فيه البعض من تخمة درامية بسبب كثرة الأعمال التي يؤديها، يشكو الكثيرون من الغياب التام وعدم تلقيهم أي أدوار منذ ما يقارب العشر سنوات، إذ باتت الأدوار لا تُسند للممثلين بقدر موهبتهم أو مدى مناسبتها لهم، بل بقدر ما يملكون من علاقات داخل الوسط الفني، وهذا الاحتكار للأدوار الفنية يُعد امتدادًا لظاهرة الاحتكار الاقتصادي التي تعيشها الصناعة منذ سنوات[٢].

خاتمة

تمثِّل الدراما إذًا إحدى الأدوات المؤثرة التي تمتلكها المجتمعات، والتي تُساهم في عملية الغرس الثقافي للمتلقين وتوجيههم طوال الوقت، وهذا الدور يجعلها أحد أهم مسارات التنشئة الاجتماعية. وبالنظر لهذه الأهمية المحورية للدراما، فإن أرباب هذه الصناعة لديهم مسؤولية اجتماعية تجاه مجتمعاتهم طوال الوقت فيما يتبنون ويُقدمون من أعمال، هذه المسؤولية والاضطلاع بالقيام بها هو ما يُميز بين ما يمكن تسميته دراما هادفة وغيرها من الأعمال الدرامية الأخرى المقدمة.

ويتضح من النماذج الدرامية التي تناولها التقرير أنها تشتبك بالفعل مع قضايا حقيقية لمجتمعاتها التي خرجت منها وعلى نطاق ومدى واسع، فالماضي والحاضر بكل وجوهه الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية داخل إطار الحيز الذي تتفاعل معه. وكذا يتضح من التقرير أن تبني هذا النمط من الأعمال يحتاج ثقافة وإرادة معًا؛ ثقافة ووعي حقيقي بأهمية الدور الذي تؤديه الدراما والرسالة التي تحملها، وبالقضية المقدمة وكافة ملابساتها، فضلا عن الإلمام بالتحديات التي قد تواجه القائمين على العمل، وإرادة صلبة تبذل وسعها لمواجهة هذه التحديات وتجاوزها.

وبالنظر للتحديات التي يتعرض لها هذا النوع من الدراما؛ فإنها تدفعنا للتساؤل عن دور الحاضنة الأهلية والشعبية الداعمة لهذه الأعمال؛ فغيابها يؤثر بشكلٍ كبير على عدد الأعمال المقدمة، وكذا يجعل منها صيد سهل للجهات التي قد يضرها تناول قضايا معينة بهذا القدر من الجدية، كما أن غياب هذه الحاضنة يجعل أصحاب هذه الأعمال تحت رحمة أصحاب رؤوس الأموال دائمًا، فإما يتجهون لإنتاج أجنبي يستهدف الدخول بالعمل في المسابقات الفنية، فينتج العمل بمعيارية المهرجانات ويحيد عن هدفه ويستبدل النخب وأعضاء لجان التحكيم بعامة الجمهور، وإما يتراجعون عن صناعة العمل بالكلية، أو أن يُحشروا بين مطرقة رأس المال وسندان العرض والطلب في نهاية الأمر.

---

(١) هنادي عيسى، كتاب دراما ومخرجون: أزمة الكتابة عالمية، ٢٥ إبريل٢٠٢٣، تاريخ الاطلاع: ١٤ ديسمبر ٢٠٢٣، الساعة:١٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bitly.ws/36cbc

(٢) أحمد نور، المسيطرون على الدراما المصرية.. أجيال من الممثلين يبحثون عن أدوار وسط العمالقة، موقع الجزيرة نت،٢٢مارس٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع: ١١ ديسمبر ٢٠٢٣، الساعة:١٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bitly.ws/36dWD

الرعاية الدينية للمهاجرين: نموذج دار الفتوى في أستراليا

محمود عاشور مؤمن*

مقدمة:

تأتي قضية الرعاية الدينية للأقليات المسلمة على رأس أولويات الهيئات والمؤسسات الدينية الإسلامية الكبرى، خاصةً في مجتمعات التنوع الثقافي والعرقي؛ لما يفرضه هذا التنوع من ضغوطٍ وتحدياتٍ تتعلق بأزمات الهوية والاندماج في المجتمعات الغربية وما ينتج عنها من مشكلاتٍ اجتماعية وتربوية، وكذلك ارتفاع وتيرة الإسلاموفوبيا في ظل صعود اليمين المتطرف.

في أستراليا، تعيش الجاليات المسلمة ضمن واقع متأرجح بين سياسات حكومية متصالحة مع التواجد والفكر الإسلامي، وبين تياراتٍ وحركاتٍ شعبوية ترى في الإسلام والمسلمين احتلالًا لأستراليا ومن ثم تدعو لفرض سياسات تفضي إلى الحد من انتشار الإسلام وزيادة عدد المسلمين هناك، وقد أنتج هذا الواقع ظهور العديد من المؤسسات والهيئات الدينية التي تسعى لمواجهة هذه التحديات سعيًا للتغيير والبناء.

نستقرأ في هذا التقرير حال دار الفتوى في أستراليا كأحد نماذج البناء والمقاومة خارج الدائرة الإسلامية، حيث تُمثل دار الفتوى حالة فريدة تستحق النظر والتحليل كونها تعمل وتتحرك ضمن سياقٍ منعزل جغرافيًا وثقافيًا عن العالم الإسلامي، وفي ظل ارتفاع موجات العنصرية ضد المسلمين، بجانب مشكلات اللغة والتنوع الثقافي والعرقي داخل الأقلية المسلمة ذاتها.

منهجيًا، ينبغي تسكين نموذج دار الفتوى في أستراليا كأحد نماذج المقاومة والبناء ضمن مستوى الشعوب والأفراد فيما يتعلق بردود أفعال الشعوب المسلمة على الهجمات والتحديات التي يُواجهونها في مختلف المجتمعات، لمعالجة قصور التجارب النخبوية التقليدية في رأب تصدعات جبهات المواجهة، وفتح مساحات أرحب وأوسع للبناء. وهذا التسكين يُفيد في أمرين: **الأول**، البحث والتقصي عن أدوات ومسارات النموذج ذات التأثير المباشر في أحوال المسلمين بعيدًا عن قنوات الجهات الرسمية، **ثانيًا**، أن تكون عمليات التقييم والمعالجة ضمن هذا المستوى دون الصعود إلى مستويات رسمية تقتضي معايير أدق ومساحات تأثير أوسع.

اتصالًا بما سبق، نرسم في هذا التقرير خريطة لطبيعة عمل مؤسسة دار الفتوى في أستراليا لتقديم الرعاية الدينية للأقلية المسلمة كأحد نماذج المقاومة والبناء في المجتمعات الإسلامية. وهذا بالتساؤل حول الأدوات التي توظفها دار الفتوى في هذا المسار، وكذلك كيفية التفاعل والتعاطي مع التحديات التي تواجه المسلمين هناك. وعلى هذا الأساس نُقسم التقرير إلى محورين: **الأول:** أحوال المسلمين في أستراليا: أبرز التحديات والمؤسسات الإسلامية المتفاعلة، **الثاني:** دار الفتوى والرعاية الدينية للأقلية المسلمة في أستراليا، بجانب **خاتمة** تتضمن أبرز ما توصلنا إليه من دلالات وخلاصات يُمكن من خلالها أن نُقيّم ونُطوّر نموذج دار الفتوى بأستراليا في مواجهة التحديات الحضارية التي تُهدد المجتمع الإسلامي.

أولًا- أحوال المسلمين في أستراليا: أبرز التحديات، والمؤسسات الإسلامية المتفاعلة:

١- وصول المسلمين إلى أستراليا:

كان وصول المسلمين إلى أستراليا عبر رافدين: **الأول:** على أيدي صيادي السمك الذين أتوا من جزيرة سيليس أو سولاويسي بإندونيسيا عام ١٨٠٣[(١)]، وهم معروفون

* باحث في العلوم السياسية.

(١) محمد بن ناصر العبودي، شمال أستراليا رحلة وحديث في أحوال المسلمين، (الرياض: الثلوثية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠١٣)، ص ٣٨.

بالمكساريين. أما **الثاني**: كان في عام ١٨٥٠، عندما قامت الحكومة الأسترالية باستقدام ١٢ شخصًا من مستكشفي الصحراء، ومعهم ١٢٠ جملًا لاكتشاف مجاهل الصحراء الأسترالية[١]. وعندما تُرك استخدام الإبل وتقدمت وسائل المواصلات، اشتغل المسلمون بحرفٍ أخرى كالتجارة، والتعدين، أو عادوا إلى بلادهم، وكان هذا الرافد الأقوى تأثيرًا حيث هجرة المسلمين من بلاد عدة إلى أستراليا[٢].

تتابعت بعد ذلك هجرات المسلمين إلى أستراليا حتى توقفت مع بداية الحرب العالمية الثانية، لحين شروع الحكومة الأسترالية في تطبيق سياسة التعددية الثقافية بعد الحرب، ومن ثم عادت الهجرات من جديد بأعدادٍ كبيرة منذ عام ١٩٥٤[٣].

وقد ساهم المسلمون في مد أول خط حديدي عبر قارة أستراليا وأُطلق عليه اسم غان، وهو اختصار لكلمة أفغان تخليدًا لذكرى قوافل المسلمين، ومع تزايد أعدادهم بدأوا في تشييد العديد من المُصليات عبر طرق القوافل التي سلكوها، ثم شيدوا المساجد[٤] التي مثلت نواة تكون المجتمع المسلم في أستراليا.

يُمثل الإسلام الدين الثاني بعد المسيحية في أستراليا، حيث بلغ عدد المسلمين هناك ٦٠٤٢٠٠ ألف نسمة، يمثلون نسبة ٢,٦% من إجمالي السكان البالغ عددهم ٢٣ مليون ونصف نسمة في عام ٢٠١٦[٥].

جدير بالإشارة أن المجتمع الإسلامي في أستراليا يتمتع بمعدلات زيادة مرتفعة، بلغت هذه الزيادة 0.8%، ويعزو علماء الديموغرافيا هذه الزيادة إلى معدلات النمو المرتفعة مع موجات الهجرة الحديثة، وتنتمي الغالبية من المسلمين في أستراليا إلى الطائفتين السنية والشيعية ولكن ذلك بجانب طوائف أخرى كالأحمدية والإباضية والدروز[٦].

٢- الهيئات والمنظمات الإسلامية في أستراليا:

تقع المساجد الموجودة في أستراليا معظمها تحت إدارة جمعية أو منظمة مسؤولة عن شؤون المسلمين المحلية، هذه المساجد بعضها يُمثل مكانًا للعبادة، والبعض الآخر على هيئة مراكز إسلامية شاملة لعقد أنشطة أخرى اجتماعية وتربوية ورياضية وغيرها، وهناك خدمات تُقدمها الجمعيات الإسلامية عن طريق هذه المراكز. هذه الجمعيات كونت في كل ولاية مجلسًا إسلاميًا يكون أعضاؤه من ممثلي كل جمعية، وكونت هذه المجالس مجلسًا وطنيًا سُمي الاتحاد الأسترالي للمجالس الإسلامية عام ١٩٤٦، مقره في سيدني[٧]. ويضم ذلك الاتحاد ممثلًا عن كل ولاية أسترالية، وعدد المجالس الأسترالية تسعة، ويقوم الاتحاد بجهودٍ كبيرة منها بناء المدارس لتعليم أبناء المسلمين في أستراليا[٨].

ومن المؤسسات والهيئات الإسلامية في أستراليا، جمعية الدعوة الإسلامية، وجمعية اتحاد المسلمين في أستراليا، وجمعية الدعوة الإسلامية لغرب أستراليا، وجمعية النساء المسلمات في أستراليا، والمركز الإسلامي للمعلومات والخدمات بأستراليا[٩].

---

(١) السيد أحمد محمود، المسلمون في قارة أستراليا، مجلة البيان، العدد ٢٧٣، ٢٠١٠، ص ٨٤.

(٢) سيد عبد المجيد، الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا، (جدة: دار الأصفهاني للطباعة، ١٩٧٣)، ص ٣٣.

(٣) السيد أحمد محمود، المسلمون في قارة أستراليا، مرجع سابق، ص٨٤.

(٤) سيد عبد المجيد، الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا، مرجع سابق، ص٣١.

(5) Global Muslim Diaspora: Muslim Communities and Minorites in Non-oic Member States: Australia Report, Organization of Islamic Cooperation, 2019, p.8.

(6) Jan A Ali، Islam and Muslims in Australia, Melbourne University Press (MUP), 1 December 2020, available at: https://2u.pw/BNbXAzz

(٧) محمد بن ناصر العبودي، شمال أستراليا رحلة وحديث في أحوال المسلمين، مرجع سابق، ص٥٣.

(٨) سيد عبد المجيد، الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا، مرجع سابق، ص ص، ٣٤ - ٣٥.

(٩) السيد أحمد محمود، المسلمون في قارة أستراليا، مرجع سابق، ص٨٤.

٣- المشكلات والتحديات التي تواجه المسلمين في أستراليا:

لا يواجه المسلمون مشكلات خاصة بالدين مع حكومة أستراليا في الغالب، لكن المشكلات غالبًا ما تكون مع الأفراد، خاصةً المتعصبين[١]، فهناك مجموعة من المتعصبين ضد الإسلام يرفضون الحجاب على سبيل المثال، ويصفونه بأنه غير أسترالي، وأنه أداة للعلاقات الأبوية التي تتحدى مبادئ المساواة بين الجنسين[٢].

وهناك نوع آخر من المشكلات التي تُواجه المسلمين في أستراليا، وهي المشكلات العقدية بسبب شعور الفرد المسلم بالاغتراب وتحدي الهوية، وكذلك عمليات التبشير، هذا بالإضافة إلى المشكلات الأخلاقية نتيجة حياتهم في مجتمعٍ منفتح بقيم تخالف تعاليم الإسلام[٣]. وكذلك تُعاني الأقلية المسلمة في أستراليا من مشكلات ضعف المستوى التعليمي، مما وضعهم في مناصب أقل من غيرهم، وأدى إلى انتشار البطالة بين المسلمين. فوفقًا لبعض التقديرات منذ حوالي ٢٠ عامًا، فإن ٧٦,٧% من المسلمين في أستراليا ليس لديهم أي مؤهلات علمية، مقابل ٤% فقط يحملون شهادات جامعية، و١,٦% شهادة دبلوم، و٦% شهادة تجارة، و١٠,٧% شهادات أخرى، كما أن شخص بين كل أربعة مسلمين عاطل عن العمل[٤]. لكن الواقع يشير إلى أن هذه المشكلة بدأت في الاضمحلال مع الأجيال الجديدة، حيث ارتفعت نسبة الحاصلين على مؤهلات عليا ما يقارب ١١% ونسبة الحاصلين على شهادة دبلوم إلى ٥%، حسب تقرير منظمة التعاون الإسلامي عام ٢٠١٩[٥].

أيضًا من المشكلات التي واجهت الأقلية المسلمة في أستراليا غلبة الطابع العرقي على الجمعيات الإسلامية في بداياتها، وكذلك المساجد، فنجد مسجدًا للأتراك، ومسجدًا للبنانيين، وهكذا. لكن هذه المشكلة كذلك تضمحل مع الجيل الجديد، خاصةً مع الجهود الكبيرة التي بذلتها القيادات الإسلامية في أستراليا للتصدي لفكرة العرقية بين الأقلية المسلمة، على رأسها جهود دار الفتوى في أستراليا، وكان من أبرز نتائج هذه الجهود منذ فترة طويلة تأسيس الاتحاد الأسترالي للجمعيات الإسلامية عام ١٩٤٦[٦].

٤- دار الفتوى في أستراليا: المسار والأدوار

تنبثق دار الفتوى عن المجلس الإسلامي الأعلى في أستراليا لتكون هيئة عليا دينية تمثل المسلمين هناك، وذلك بدعم ما يزيد على عشرين جمعية ومؤسسة إسلامية، تُمثل المسلمين من كافة الولايات الأسترالية. حيث استطاعت نخبة من أهل الوعي عام ٢٠٠٤، أن يتوصلوا إلى أهمية إقامة دار للفتوى في أستراليا تُعنى بشؤون المسلمين. على الجانب التنظيمي والإداري، لا تتبع دار الفتوى دولة أو مؤسسة بعينها، وإنما هي مؤسسة مستقلة، وتعتمد في تمويلها على التبرعات من الأشخاص أو المؤسسات المنتسبة للدار. وتخضع مناهج دار الفتوى إلى كتاب الله وسنة رسوله "عليه الصلاة والسلام"، وما قرره علماء الإسلام أصحاب المذاهب الإسلامية المعتبرة[٧].

اما عن الأدوار التي تؤديها دار الفتوى، فتتمثل فيما يلي[٨]:

---

(١) محمد بن ناصر العبودي، شمال أستراليا رحلة وحديث في أحوال المسلمين، مرجع سابق، ص٣٤.

(٢) ملخص بحوث (١٢٢) المسلمون في أستراليا التاريخ وسياسات التعددية الثقافية، مركز المسبار للدراسات والبحوث، بتاريخ: ٢٥ مايو ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١٥ نوفمبر ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/DOaJUtf

(٣) حمزة عبد الكريم نجادات، المشكلات التربوية لدى الأقليات المسلمة في أستراليا، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، مجلد٤، العدد٣٣، ص٦٤٥.

(٤) سامي بن عبد الله الدبيخي، أمير بتلر، المسلمون في أستراليا، مجلة البيان، العدد٢١٥، ٢٠٠٥، ص ص٨٠.

(5) Global Muslim Diaspora: Muslim Communities and Minorites In Non-oic Member States: Australia Report, Op. cit., p. 33.

(٦) المرجع السابق، ص ص ٨١ - ٨٥.

(٧) دار الفتوى في أستراليا.. شمس الإسلام في بحور الظلام، منتديات ستار تايم، تاريخ الاطلاع: ١٦ نوفمبر ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/GT2lu

(٨) الخدمات التي تؤديها دار الفتوى، موقع دار الفتوى في أستراليا، تاريخ

- إمداد المؤسسات الإعلامية بمقالات دينية، ودراسات واقعية تعكس أوضاع الأقلية الإسلامية.

- إعلام المسلمين بالأطعمة والأشربة التي يحل للمسلم تناولها.

- تزويد المدارس الحكومية، والخاصة بأساتذة مختصين لتعليم القرآن الكريم، وعلم الدين الصافي بالتنسيق مع الجمعيات الإسلامية.

- تزويد الراغبين من المسلمين بالفتاوى الشرعية مدعمةً بالأدلة العقلية والنقلية.

- تزويد المسلمين بالروزنامة السنوية للتقويم الهجري، وإمساكية شهر رمضان المبارك.

- كذلك تُعنى بالقضايا والشؤون الاجتماعية، وحل وجوه الإشكال فيها.

- توجيه النصائح والإرشاد للأسر المسلمة في مختلف القضايا التي قد تعرض لهم.

- تزويد أئمة المساجد والمراكز والجمعيات الإسلامية في أستراليا بالمواد الدينية المستقاة من الكتاب والسنة.

-إقامة دورات تحفيظ القرآن الكريم، والمتون الشرعية باللغتين العربية والإنجليزية، بالتنسيق مع الجمعيات الإسلامية.

-إحياء المناسبات الدينية، والتذكير بمعانيها بالتعاون مع الجمعيات الإسلامية.

أما عن **أدوات التأثير والفعالية**، تقوم دار الفتوى في أستراليا بالعديد من الفعاليات تسعى من خلالها إلى تقديم الرعاية الدينية للجالية المسلمة هناك، وتتمثل هذه الأدوات في تنظيم المؤتمرات والندوات الدولية والملتقيات العلمية، بجانب عقد دورات تأهيلية للأفراد والمؤسسات التعليمية والتربوية بهدف التوعية والإرشاد، بالإضافة إلى المحاضرات العلمية التي تُقدمها لعامة المجتمع المسلم بشكلٍ دوري لنشر صحيح الدين وتعزيز الهوية الإسلامية لدى شباب المسلمين، فضلًا عن المشاركة والتفاعل مع المؤسسات والهيئات ذات الاهتمام المشترك في خدمة الأقلية المسلمة في أستراليا، مثل مشاركة الشيخ الدكتور سليم علوان الحسيني أمين عام دار الفتوى في المؤتمر الدولي للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة[١].

وعلى صعيد الاشتباك مع قضايا العالم الإسلامي، تقوم دار الفتوى بتنظيم لقاءات افتراضية مع شخصيات وهيئات ذات تأثير بخصوص القضايا التي ترتبط بعموم المسلمين في العالم، ومن أمثلة ذلك، نظمت دار الفتوى لقاء على الإنترنت في عام ٢٠٢٠ بمناسبة المولد النبوي الشريف بمشاركة ممثلين عن أكثر من ٢٠ دولة تحدثوا فيها عن عظمة شخصية الرسول وضرورة التصدي للإساءة له "صلى الله عليه وسلم"، وغيرها من الاحتفالات والفعاليات التي تحرص دار الفتوى على المشاركة فيها[٢].

ثانيًا- دار الفتوى والرعاية الدينية للأقلية المسلمة في أستراليا

وفق ما تقدم، فإن دار الفتوى تعمل بشكلٍ أساسي على تلبية حاجات الأقلية المسلمة في أستراليا، وتُعنى بكافة شؤون المسلمين للنهوض بهم إلى مراتب حضارية أفضل، وتسعى بذلك لبناء مرجعية إسلامية تضمن للمواطن المسلم الأسترالي حقه بالعيش بعزٍ وأمان، وتعمل على مواجهة التحديات الحضارية والثقافية والاجتماعية خاصةً موجات التمييز العرقي والديني التي يتعرضون لها من حينٍ لآخر. ويمكن تقسيم مسيرة دار الفتوى بأستراليا في تقديمها للرعاية الدينية للمهاجرين

الاطلاع: ١٧ نوفمبر ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/oOgsnVt

(١) مشاركة أمين عام دار الفتوى لأعمال المؤتمر الدولي السنوي للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية في القاهرة، موقع دار الفتوى، تاريخ الاطلاع: ١٨ نوفمبر ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/1iO7IaB

(٢) المشاركة في لقاء دار الفتوى المجلس الإسلامي الأعلى في أستراليا بمناسبة المولد النبوي الشريف، تاريخ الاطلاع: ١٨ نوفمبر ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/NXkqr

المسلمين إلى مسارين:

١-مسار الهجوم والمقاومة:

نرصد في هذا المسار مساحات عمل دار الفتوى التي تُعنى بمقاومة التحديات وموجات الهجوم بمختلف أنواعها الدينية والثقافية والاجتماعية، كذلك نسعى إلى رصد أدوات دار الفتوى في مواجهة هذه التحديات وسبل مقاومتها لحماية ورعاية المجتمع المسلم في أستراليا، ضمن هذا المسار نستعرض أمثلة لهذه المساحات والأدوات على النحو التالي:

أ-مساحات الهوية والعقيدة الإسلامية: تواجه الأقلية المسلمة في أستراليا العديد من التحديات التي تتعلق بالهوية والثقافة الإسلامية التي تضع منظومة العقيدة الإسلامية في خطر، فمثلًا يمنع القانون الأسترالي قوامة الأسرة المسلمة على الأبناء بعد بلوغهم سن السادسة عشرة من العمر من خلال منح الأبناء رواتب شهرية تساعدهم على الاستقلال. كما أن المرأة يحق لها الحصول على الطلاق دون علم زوجها، بجانب قوانين الشواذ التي تسمح بزواج الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة وتدريس المواد الجنسية في المرحلة الثانوية، يُضاف إلى ذلك عمليات التنصير والتبشير ومنع طلاب المراحل الأساسية من الصوم وإجبارهم على الإفطار[١].

تُمثل هذه المشكلات وغيرها، خطرًا داهمًا لمقومات الهوية الإسلامية لدى المجتمع المسلم بأستراليا، لذلك عملت دار الفتوى على مواجهة تلك التحديات من خلال إحياء دور المساجد وزيادة عددها، والعمل على إنشاء المدارس والجامعات الإسلامية، فضلًا عن تأسيس أول برلمان أسترالي للشباب المسلم وأول نادٍ ثقافي ورياضي لإقامة أنشطة نوعية تُعزز من الهوية الإسلامية، بجانب دعم الحضور الإسلامي في وسائل الإعلام والإذاعات الإسلامية، وبالإضافة إلى توثيق عقود الزواج والطلاق ومواثيق الإرث وفق الشريعة الإسلامية[٢].

ب- موجات عداء التواجد الإسلامي في أستراليا: تُعد ظاهرة العنصرية والتمييز من أبرز المشكلات التي تواجه الأقلية الإسلامية في أستراليا، وقد ظهر هذا الاتجاه المعادي للتواجد الإسلامي في أستراليا أواخر الثمانينيات وتزايدت موجات العنصرية عقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ حيث أصبح الإسلام ومكانته في أستراليا محل نقاشٍ وجدل. وتعتبر قضية حقوق المرأة وعدم مساواتها بالرجل نقطة محورية للنقد في المجتمع الأسترالي[٣]، وتشير الدراسات إلى أن معظم ضحايا العنصرية الموجهة ضد المسلمين هناك كن من النساء المحجبات[٤]، وفي سياق ذلك المد العنصري ضد المسلمين ظهرت حركة معادية للإسلام تسمي نفسها "استعيدوا أستراليا" قامت بتنظيم العديد من المظاهرات ضد الوجود الإسلامي في أستراليا[٥].

سعت دار الفتوى بأستراليا لمواجهات موجات العنصرية والتمييز ضد المسلمين عبر العديد من الفعاليات الدينية والمجتمعية، التي تعزز ترابط المجتمع المسلم في أستراليا لمواجهة ظاهرة العنصرية[٦]. فعلى سبيل المثال، أُقيم مؤتمر الأخوة الإنسانية من أجل العمل المشترك لتحقيق مستقبل أفضل في الإمارات تحت عنوان: "كيف تساعد القيم الإنسانية في القضاء على العنصرية بين المجتمعات؟" بمشاركة دار الفتوى لعرض

(١) حمزة عبد الكريم نجادات، المشكلات التربوية لدى الأقليات المسلمة في أستراليا وحلولها، مرجع سابق، ص ص، ٦٤٥ - ٧٤٧.

(٢) أحمد أبوزيد محمد، مسلمو أستراليا وخطر ذوبان الهوية، المستودع الدعوي الرقمي، ٨ نوفمبر ٢٠٠٧، تاريخ الاطلاع: ٢٠ نوفمبر ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/17C2Dfh

(3) Jan A Ali، Islam and Muslims in Australia, Op. cit.

(٤) محمد سناجلة، هل المسلمات المحجبات مستهدفات بالعنصرية في أستراليا والهند؟، الجزيرة نت، بتاريخ: ٣١ مارس ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع: ٢٠ نوفمبر ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/M4CUkPC

(٥) مظاهرات معادية للإسلام بأستراليا، الجزيرة نت، بتاريخ: ٤ أبريل ٢٠١٤، تاريخ الاطلاع: ٢٠ نوفمبر ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/jjkks

(٦) للمزيد حول هذه الفعاليات، يصدر عن دار الفتوى بأستراليا كتاب سنوي بعنوان المميزات السنوية لرصد النشاطات والفعاليات التي تستحوذ على اهتمامات الأقلية المسلمة في أستراليا، ويُنشر هذا الكتاب على الموقع الرسمي للدار، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/TMXKi

نشاطات الدار لتوطيد مفهوم التعايش ونبذ العنصرية، بجانب ذلك تُنظم دار الفتوى بشكلٍ دوري عددًا من الملتقيات التفاعلية والندوات العلمية بين أبناء الأقلية المسلمة لتفعيل قيم الترابط والأخوة في مواجهة التشدد والعنصرية. كما ذكر الدكتور إبراهيم أبو محمد مفتي أستراليا في حوار للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين أن "خطابات العنصرية والكراهية تُستخدم لتبرير العنف والعدوان والتمييز ضد الأقليات، وتُفاقم المشكلات الاجتماعية والسياسية"؛ لذلك أسست دار الفتوى بأستراليا "لجنة الأقليات" التي تهدف إلى توعية المجتمع بحقوق الأقليات المسلمة وتعزيز التعايش السلمي المشترك بين المجتمعات المختلفة[١].

ج-تصدعات المجتمع المسلم: يتميز المجتمع الإسلامي بأستراليا بالتنوع والتعددية بين الثقافات والجاليات المختلفة، سواء على المستوى الاجتماعي أو الديني أو السياسي، وقد أدى هذا التنوع إلى ظهور مشكلة الاندماج بالمجتمع الأسترالي التي تنبع من الاختلاف بين المعتقدات الدينية والعادات الاجتماعية والتيارات الثقافية المتنوعة وأحيانًا المتضاربة داخل الأقلية المسلمة، وبين تلك السائدة في المجتمع الأسترالي الغربي[٢]. من أوجه ذلك الإشكال ما تعانيه الأقلية المسلمة في أستراليا من وجود فجوة بين الجيل القديم من الآباء والأجداد المهاجرين الذي يرغب في المحافظة على هويته وتقاليده ولغته وتاريخه، وبين الجيل الجديد من الأبناء الذي يريد أن يندمج -بل يذوب- في المجتمع الجديد الذي وُلد وتربى وتعلم فيه، خاصةً أن الإعلام الأسترالي بشكلٍ عام غير منصف لقضايا الإسلام والمسلمين ويتأثر بالإعلام الغربي المعادي للإسلام[٣].

وعليه، عملت دار الفتوى في أستراليا لسد هذه الفجوات بشتى السبل، حيث تعقد عددًا من الملتقيات والدورات الموجهة لفئات صغار السن والشباب من أبناء المجتمع المسلم في أستراليا؛ بهدف التوعية والتوجيه الديني والثقافي للمحافظة على الهوية الإسلامية، وحمايتهم من الانخراط والذوبان في السلوكيات الشاذة لدى المجتمع الأسترالي. ومن أمثلة ذلك دورة "أولادنا المراهقون المغتربون" التي يُقدمها الدكتور سليم علوان الحسيني الأمين العام لدار الفتوى بأستراليا[٤]. وعلى مستوى الآباء والأمهات، سعت دار الفتوى لضبط نسق الأسرة المسلمة من خلال عمليات التوجيه والإرشاد، حيث نظمت على سبيل المثال ندوة عن العنف الأسري وآثاره على التشتت داخل الأسرة[٥]. بجانب ذلك، تُحافظ دار الفتوى على استمرار الارتباط النفسي والمجتمعي للفرد المسلم بالهوية الإسلامية، من خلال إحياء الشعائر والمناسبات الدينية مثل الاحتفال بالأعياد والمولد النبوي واستقبال شهر رمضان وغيرها من المناسبات.

٢-مسار البناء والتنمية:

في هذا المسار، نرصد جهود دار الفتوى لتشييد وتوسيع مساحات البناء في سبيل تهيئة نماذج مجتمعية إسلامية جديدة وتمكينها من مواجهة التحديات المستقبلية، وفق منهجية ديناميكية تتعاطى مع متغيرات الزمان والمكان.

أ-نشر الدعوة الإسلامية: تعمل دار الفتوى في أستراليا على استغلال المساحات التي يخلقها التنوع الثقافي والعرقي في المجتمع الأسترالي من أجل نشر الدعوة الإسلامية وتوسيع رقعة انتشار الإسلام، حيث تقوم -كما سبق البيان- بتغذية

(١) المسلمون في الغرب بين تحديات الوجود وظاهرة الإسلاموفوبيا.. حوار مع مفتي أستراليا د. إبراهيم أبو محمد، الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، ٢١ مارس ٢٠٢٣، تاريخ الاطلاع: ٢٠ نوفمبر ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/uk0HRth

(٢) خليل الشامي، المسلمون يواجهون مشكلة الاندماج في المجتمع الأسترالي، وكالة الأنباء الكويتية (كونا)، بتاريخ ١١ أغسطس ٢٠١٧، تاريخ الاطلاع: ٢١ نوفمبر ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/ftwug

(٣) إبراهيم بن حمد القعيد، الأقليات المسلمة في أستراليا ونيوزلندة، في: مهدي أمين التوم وآخرون، الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، (الرياض: جامعة محمد بن سعود، ١٩٩٩)، المجلد الرابع، ص ٥٨٧

(٤) كتاب المميزات السنوية ٢٠٢١ لدار الفتوى بأستراليا، ص ٢٥، متاح على موقع الدار الإلكتروني عبر الرابط التالي: https://2u.pw/qutHXWP

(٥) ندوة توجيهية عن العنف الأسري - حكومة ولاية نيو ساوث ويلز بالتعاون مع دار الفتوى، موقع دار الفتوى، ٢٧ أبريل ٢٠٢٣، تاريخ الاطلاع: ٢١ نوفمبر ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/tRUUoRb

المؤسسات الإعلامية بمقالات دينية وإفادتها بدراسات واقعية تعكس أوضاع الأقلية المسلمة وتعبر عن رأيهم إزاء كل ما يجري من الأوضاع الراهنة. هذا بجانب تزويد المدارس الحكومية والخاصة بأساتذة مختصين لتعليم القرآن الكريم وعلوم الدين بالتنسيق مع الجمعيات الإسلامية، كما تحافظ دار الفتوى على إحياء المناسبات الدينية والتذكير بمعانيها في احتفالياتٍ واسعة، الأمر الذي يجعل المسلمين محط أنظار المجتمع الأسترالي بما يساعد في نشر العقيدة الإسلامية والدفاع عنها ومكافحة مخالفيها، فضلا عن قيام الدار على تعليم الأحكام العملية، ونشر الأخلاق الإسلامية والفضائل النبوية[١].

ب- التوجيه والإرشاد للمؤسسات التعليمية والتربوية: تدرك دار الفتوى في أستراليا أهمية التعليم والمؤسسات التعليمية والتربوية في تحسين أوضاع الأقلية المسلمة، ومن هنا تستغل هذه المساحة من خلال عمليات التوجيه والإرشاد المباشرة للمعلمين والمربين، وبذلك تُعد دار الفتوى الموجه والمرشد الديني لكثيرٍ من المؤسسات التربوية والتعليمية في الولايات الأسترالية من أجل تحصينهم وتزويدهم بالأدلة الشرعية التي يحتاجها المدرسون.

ومن أبرز أدوات دار الفتوى في هذا الصدد المحاضرات، على سبيل المثال سلاسل المحاضرات الدينية بمشاركة الهيئات العلمية والإدارية لمختلف المؤسسات التعليمية، كذلك الاجتماعات الدورية للمدرسين بهدف تلقي كتب العلم وشرحها[٢]، فضلًا عن فعاليات الملتقى العلمي الدوري مع المشايخ والأساتذة المعلمين[٣]، بالإضافة إلى المؤتمر الدولي لمناقشة التحديات التي تواجه التعليم في المدارس الإسلامية (الابتدائية - الإعدادية - الثانوية)[٤].

ج- استغلال مساحات الفضاء الإلكتروني: تُعد دار الفتوى بأستراليا من أبرز النماذج الإسلامية التي تستغل مساحات الفضاء الإلكتروني في تقديم رعايتها الدينية للجالية المسلمة، على مستوى الرؤية، تؤمن الدار بضرورة دخول المؤسسات الدينية الفضاء الإلكتروني واستغلال مساحاته الدعوية لنشر المفاهيم الصحيحة، وقد عبر عن ذلك الأمين العام لدار الفتوى في المؤتمر الدولي الـ ٣٤ للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية[٥] الذي أكد على خطورة تطورات الذكاء الاصطناعي وآثاره على المسلمين في حال عدم مواكبة هذه التطورات[٦].

على مستوى التطبيق، فإن دار الفتوى بأستراليا تقدم خدماتها إلكترونيًّا بشكلٍ واسع، إذ يتضمن الموقع الإلكتروني للدار عددًا كبيرًا من النوافذ العلمية[٧]، منها **الأسس الإسلامية:** التي تُقدم موادًا تعليمية للعقيدة الإسلامية والصلاة والصيام والحج والعمرة والزكاة والطهارة، بجانب **المكتبة الإسلامية** التي تشمل عددًا من المواد والكتب المتنوعة في مختلف المجالات الدينية، كذلك **نافذة الإعلام الإسلامي** التي تضم حسابات الدار على مختلف منصات التواصل الاجتماعي بجانب عدد من الدروس المسموعة والمرئية والمقروءة، بالإضافة إلى **نافذة الفتوى** والتي تحتوي الكثير من الفتاوى مع إمكانية التواصل مع المفتي، كما تقدم دار الفتوى العديد من الفعاليات والملتقيات والمحاضرات العلمية عبر المنصات الإلكترونية المختلفة.

---

(١) يظهر ذلك جليًا في تصريحات الأمين العام لدار الفتوى، انظر: دار الفتوى في أستراليا: نفحات شهر رمضان المبارك دروس وعبر لبناء المجتمع، ميدل ايست تايمز الدولية - أستراليا، تاريخ الاطلاع: ٢١ نوفمبر ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/7xcBPa7

(٢) كتاب المميزات السنوية ٢٠٢١ لدار الفتوى، مرجع سابق، ص٨

(٣) المرجع السابق، ص١٠.

(٤) كتاب المميزات السنوية ٢٠٢٠ لدار الفتوى، بتاريخ: ٣ أغسطس ٢٠٢٣، تاريخ الاطلاع: ٢٢ نوفمبر ٢٠٢٣، ص١٠، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/pbV7iAx

(٥) المؤتمر الدولي الرابع والثلاثين للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الهيئة العامة للاستعلامات - مصر، بتاريخ: ٩ سبتمبر ٢٠٢٣، تاريخ الاطلاع: ٢٣ نوفمبر ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/SwtigsC

(٦) على كمال، أمين عام دار الفتوى بأستراليا: خطورة استخدام آلات الذكاء الاصطناعي تكمن في إفساد التربية وتغيير القيم، الشروق، بتاريخ: ١٩ أكتوبر ٢٠٢٣، تاريخ الاطلاع: ٢٣ نوفمبر ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/u2ypH6a

(٧) يمكن مراجعة ذلك في كتب المميزات السنوية ٢٠١٩، ٢٠٢٠، ٢٠٢١، على الموقع الإلكتروني للدار عبر الرابط التالي: https://cutt.us/TMXKi

د- العلاقة مع الأزهر الشريف: يُعتبر الأزهر الشريف منارة العلم التي تُضيء العالم منذ ١٠٨٣ عامًا؛ لذلك فإن مد الجسور بين الأزهر ودار الفتوى بأستراليا يُعد من أهم مساحات بناء وتشييد نماذج مجتمعية لمواجهة التحديات التي تحيق بالمجتمع المسلم في أستراليا، وعليه فقد حافظت دار الفتوى منذ تأسيسها على علاقة قوية مع الأزهر الشريف، وهو ما يظهر في حفاوة الزيارات المتبادلة[١]. كما أن دار الفتوى ترتكز إلى الأزهر الشريف كمرجعية دينية ومنهج إسلامي وسطي، إذ يقول الأمين العام لدار الفتوى أن "الأزهر.. الحصن الذي نلجأ إليه لرد الشبهات والادعاءات الباطلة التي تُسيء للإسلام"[٢]، كما يبدو ذلك أيضًا في تأثر الكثير من فتاوى الدار بفتاوى علماء الأزهر الشريف[٣].

وبالتالي، فإن الترابط الديني والفكري بين دار الفتوى والمؤسسات الإسلامية العالمية يُعزز من قدرات الدار، وسعيها في تأسيس نماذج ذات مرجعية قوية يستند إليها المجتمع المسلم مستقبلًا في مواجهة ما قد يتعرض له من أزماتٍ وتحديات.

هـ- تعزيز الترابط الهوياتي مع العالم الإسلامي: من ضروريات العمل الدعوي والديني خاصةً في مجتمعات الأطراف -مثل أستراليا- أن يكون هناك ترابط وقنوات اتصال دائم مع مجتمعات المركز، لاسيما على المستويات الدينية والفكرية والثقافية، ذلك لأن الانقطاع عن مركز الدين الإسلامي يُشكل انقطاعًا عن المرجعية والهوية الدينية ككل، ومع الوقت يتحول ذلك إلى صورٍ مختلفة من الذوبان والتماهي الاجتماعي والثقافي والأخلاقي مع المجتمع الآخر. في أستراليا، مثلت دار الفتوى حلقة وصل بين المجتمع الإسلامي الأسترالي ومجتمعات العالم الإسلامي في شتى بقاع الأرض، حيث عملت على ترسيخ التضامن الإسلامي وفتح حوار مستمر مع المجتمعات الإسلامية الأخرى، وهذا ما أكده الأمين العام للدار في لقاءٍ له مع سفير دولة الكويت[٤].

كما تُشارك دار الفتوى في مختلف الفعاليات والمؤتمرات الدولية التي تنعقد في دول العالم الإسلامي، مثل المؤتمر العالمي للأمانة العامة لدور وهيئات الإفتاء في العالم[٥]. يتصل بذلك موقف دار الفتوى من القضية الفلسطينية باعتبارها القضية المركزية للأمة الإسلامية، حيث أقامت دار الفتوى العديد من الفعاليات التضامنية مع تضحيات الشعب الفلسطيني في مختلف الأحداث، ومن أمثلة ذلك تنظيم دار الفتوى في وقتٍ سابق وقفة تضامنية مع الشعب الفلسطيني بمشاركة الأمين العام للدار[٦]. وبهذا تسعى دار الفتوى بأستراليا إلى تعزيز الترابط الهوياتي مع العالم الإسلامي في إطار دورها الرئيس لتقديم الدعم والرعاية للجالية الإسلامية، وتشييد نماذج مجتمعية لمقاومة تحديات العصر.

وفيما يتعلق **بقضايا المجتمع الأسترالي** باعتبار المسلمين جزء منه، فإن دار الفتوى بأستراليا تتفاعل مع هذه القضايا بشكلٍ متوازن على نحوٍ يضمن استمرار السياسات الحكومية المعتدلة تجاه الأقلية المسلمة. فعلى سبيل المثال، استجابت دار الفتوى للقوانين التي سنتها الحكومة في إطار مواجهة جائحة كورونا وقامت الدار بتعليق صلوات الجماعة واللقاءات بالمساجد[٧]، اتصالًا بذلك تُشارك دار الفتوى الجهات

(١) انظر: زيارة تاريخية للأزهر الشريف إلى أستراليا، موقع دار الفتوى بأستراليا، بتاريخ ٢٢ مارس ٢٠١٦، تاريخ الاطلاع: ٢٤ نوفمبر ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/3ldg6oH

(٢) مقال جريدة صوت الأزهر، موقع دار الفتوى بأستراليا، بتاريخ ٢٤ نوفمبر ٢٠٢١، تاريخ الاطلاع: ٢٤ نوفمبر ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/R1F6316

(٣) من فتاوى علماء الأزهر الشريف في معتقد الحلول والجهة، موقع دار الفتوى بأستراليا، بتاريخ ٨ نوفمبر ٢٠١٥، تاريخ الاطلاع: ٢٤ نوفمبر ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/YVccHK2

(٤) نجيب البدر سفير دولة الكويت لدى استراليا يجتمع بوفد دار الفتوى ومجلس العلماء في أستراليا، موقع سفارة دولة الكويت بأستراليا، ب-ت، تاريخ الاطلاع: ٢٥ نوفمبر ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/gcXEUlU

(٥) أميرة العناني، الأمين العام لدار الفتوى بأستراليا: ارتباط الفتوى بمسايرة قضايا العصر ضرورة، الدستور، بتاريخ: ١٨ أكتوبر ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/ng2kyig

(٦) كتاب المميزات السنوية ٢٠٢١، مرجع سابق، ص٢٧.

(٧) تعليق صلاة الجمعة في المساجد مؤقتا، موقع دار الفتوى، ١٩ مارس

الحكومية بولايات أستراليا مختلف الفعاليات التي تنظمها فيما يتعلق بالعديد من القضايا استجابةً لسياسات ترابط المجتمع ونبذ العنف والعنصرية[١].

خاتمة: دلالات وخلاصات

من خلال القراءة السابقة في ضوء دراسة نموذج دار الفتوى في أستراليا ودوره في تقديم الرعاية للمسلمين هناك، يمكن استخلاص صورة عامة لأوضاع المسلمين في أستراليا بين **نواحي القوة** التي تتجلى في كون الأقلية المسلمة في تلك القارة البعيدة تتميز بالتجدد والتأقلم خاصةً الشباب، ويدعم ذلك وجود عدد مناسب من الهيئات والمؤسسات التي تقدم العديد من الخدمات التي يحتاج إليها المسلمون، بجانب وجود دعم حكومي للمسلمين مقارنةً ببقية الدول الغربية، وبين **جوانب الضعف** التي تتمثل في تدهور المستويات التعليمية وما يتنج عنها من تدني المناصب وانتشار البطالة. ويعود ذلك لعدم وجود علماء وقيادات دينية متمكنة، بجانب قيام الأقلية المسلمة على مبدأ العرقية.

بين هذا وذاك توجد العديد من **الفرص** التي تعمل دار الفتوى على استغلالها من عينة تزايد الطلب على المدارس الإسلامية، فكانت الاستجابة عبر إنشاء العديد من المدارس - كما ذكرنا. أيضًا صعود أجيال جديدة من شباب المسلمين في الجامعات الأسترالية متفاعلةً مع واقع مشكلات العالم الإسلامي، ومتأثرةً بفعاليات واتجاهات دار الفتوى التي بدأت عقب أحداث ١١ سبتمبر وعملت على تأهيل هؤلاء الشباب لشغل مناصب ذات تأثير وقوة في المجتمع الأسترالي.

بشكلٍ عام، على الرغم من الدور الفعال الذي تقوم به دار الفتوى في أستراليا، إلا أن هذا الدور يُمكن تقويمه وتطويره في ضوء وجود شخصية -أو شخصيات- قيادية تتميز بالعلم الشرعي يمكن اعتبارها مرجعية لعامة المسلمين على مستوى القيادة والتنظيم، بجانب تفعيل سبل التواصل والتعاون مع الهيئات والمؤسسات الدينية الأخرى في أستراليا بما ينعكس في تطوير وتحسين أوضاع الأقلية المسلمة.

لكن مما لفت الانتباه مؤخرًا فيما يتصل بالتفاعل مع قضايا العالم الإسلامي، أنه بالرغم من وجود موقف قوي للأقليات المسلمة حول العالم من أحداث طوفان الأقصى في السابع من أكتوبر ٢٠٢٣[٢]، إلا أن دار الفتوى في أستراليا لم يكن لها موقف واضح من الأحداث، فكان من الممكن أن تستغل هذه الأحداث في تعزيز الترابط الهوياتي بين الأقلية المسلمة في أستراليا والعالم الإسلامي.

جدير بالملاحظة أيضًا، فيما يخص الاشتباك مع قضايا العالم الإسلامي، أن أدوات التفاعل لدى دار الفتوى تبقى أدوات افتراضية بعيدة عن الواقع -مثل تنظيم المؤتمرات، والندوات، والوقفات التضامنية- وليست ذات تأثير قوي في مجريات الأحداث، كحركات مقاطعة المنتجات الإسرائيلية مثلًا.

إجمالًا، يمكن القول إن دار الفتوى في أستراليا تمثل أحد النماذج المجتمعية الإسلامية الفريدة التي تؤكد على قدرة المجتمعات المسلمة وإمكانياتها على الحركة، خاصةً على مستوى الشعوب والأفراد في ظل تزايد واستمرار الهجمات والأزمات، فمع تزايد حدة التحديات التي تواجه المسلمين تُبرز دار الفتوى مزيدًا من أدوات المقاومة والمواجهة وتُفرز مساحات جديدة للبناء والتغيير.

٢٠١٩، تاريخ الاطلاع: ١٢ ديسمبر ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/avAHyDJ

(١) يمكن مراجعة هذه الفعاليات ضمن كتاب المميزات السنوية ٢٠٢١، مرجع سابق، ص ٣٤.

(٢) للمزيد حول موقف الأقليات المسلمة من طوفان الأقصى، انظر: يارا عبد الجواد، ردود فعل الأقليات المسلمة على طوفان الأقصى والعدوان الإسرائيلي، مركز الحضارة للدراسات والبحوث، ٤ ديسمبر ٢٠٢٣، تاريخ الاطلاع: ٦ ديسمبر ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/eTwPJ8k

الإغاثة الإنسانية في ظل الانقسام: كارثة درنة نمُوذجًا

د. خالد خميس السحاتي*

مقدمة:

تُعدُّ إدارةُ الأزمات والكوارث من المجالات والعلوم الحيويَّة والمُهمَّة الآن، وخاصَّةً مع التَّطوُّرات المُتلاحقة والمُتغيّرات المُفاجئة التي تُواجهُها الدُّولُ النَّاميةُ على الصَّعيدين الإقليميّ والعالميّ، والتي تتطلَّبُ الاستعداد الجيّد والتَّخطيط العلميّ والتَّدريب المُستمرّ لتحقيق الجاهزيَّة المُرتفعة وسُرعة الاستجابة لمُواجهة تلك الكوارث والأزمات[١]. وتنبُعُ التَّحدّياتُ التي تفرضُها الكوارثُ من طبيعتها المُفاجئة، وما ينتُجُ عن ذلك من صُعُوبة التَّنبُّؤ بها وبحجمها وأبعادها ومخاطرها. ولذا؛ تقتضي طبيعةُ الكارثة نُهُوض مُؤسَّساتٍ عديدةٍ بنشاطاتٍ مُتنوّعةٍ، ممَّا يستوجبُ الخُرُوج على النَّمط التَّقليديّ لعمل المُؤسَّسات الإداريَّة في المُجتمع[٢].

والمُلاحظُ أنَّ التَّعامُل الدَّوليَّ مع الكوارث الطبيعيَّة قد تطور على صعيد الإدراك وصياغة القواعد، وكذلك سُرعة الاستجابة من قبل المُنظَّمات والهيئات الدَّوليَّة المعنيَّة إجْمَالًا. ويُمكنُ القولُ إنَّ الكوارث الطَّبيعيَّة تطالُ كُلَّ قارات العالم ومناطقه، بل وربَّما لم تترُك دولةً واحدةً دُون أنْ يكُون لها نصيبٌ منها، قلَّ أو كثُر، تقارب أو تباعد زمنُ حُدُوثها. الكثير من الكوارث الطبيعية في العالم تحدث بشكلٍ مفاجئ ودون سابق إنذار أو بإنذارٍ ضئيلٍ من حيث الوقت، قسوة بعض الكوارث وحدتها تؤدي ليس فقط إلى فقد الآلاف من الأرواح، وإنما إلى تشريد أعداد مضاعفة من السكان، ناهيك عن الدمار الهائل الذي يُصيب المباني والبنية الأساسية والتربة والحيوانات وغير ذلك[٣]. ضمن هذا الإطار، سوف نتناولُ في هذا التقرير موضُوع "الإغاثة في ظلِّ الانقسام السياسي"، مع التَّركيز على نمُوذج مدينة درنة الليبيَّة التي تضرَّرت من السُّيُول والفيضانات جرَّاء "الإعصار دانيال" المُدمِّر.

أوَّلًا- الإغاثةُ الإنسانيَّةُ والكوارثُ: المفهوم، والسياق الليبي المعقد:

١-المفهُومُ والدلالاتُ:

جاء في بعض معاجم اللغة العربيَّة: الاستغاثةُ: طَلَبُ الغَوْثِ، وهُو التَّخْليصُ من الشِّدَّة والنِّقْمَةِ، والعون على الفكاك من الشَّدَائِدِ[٤]، وقد كانت الخبرة الإسلامية سبَّاقةً في إرساء دعائم مبدأ "الإغاثة الإنسانيَّة" بمفهُومها المُعاصر، المُتمثِّل بتقديم الخدمات وتوفير المُساعدات والإعانات أثناء الكارثة أو بعد حُدُوثها مُباشرةً لتلبية احتياجات حفظ الحياة وسدِّ الحاجات الأساسيَّة للسُّكَّان المُتضرِّرين والمنكُوبين، بغضِّ النظر عن دينهم أو جنسهم أو جنسيَّتهم، حتَّى بات يُنْظرُ اليوم إلى حقِّ الحُصُول على الإغاثة كأحد المبادئ الأساسيَّة المُتعلِّقة بحماية حُقُوق

---

* أستاذ العلوم السياسية المُساعد - كلية الاقتصاد - جامعة بنغازي/ ليبيا.

(١) انظر: نائل محمد المومني، إدارة الكوارث والأزمات، عمَّان: دار وائل للنشر والتوزيع، ٢٠١٢م، ص٤.

(٢) للمزيد انظر: محمد نصر مهنا، إدارة الأزمات والكوارث، الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، ٢٠٠٨م، ص٢٣٢. وكذلك: عباس رشدي العماري، إدارة الأزمات في عالم متغير، القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٣م، ص٢٠.

(٣) السيد صدقي عابدين، "إشكاليات التعامل الدولي مع الكوارث الطبيعية"، موقع: مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، بتاريخ: ٢٥/فبراير/٢٠٢٣م، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/WQOtw

(٤) انظر: خليفة محمد التليسي، النفيس من كنوز القواميس: صفوة المتن اللغوي من تاج العروس ومراجعه الكبرى، الجزء الثالث، طرابلس/ تونس: الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٧م، ص١٦٧٠.

الإنسان، فلا يجُوزُ أنْ يُحْرم منهُ مُواطنُو أيّ بلدٍ من البُلدان[١]. ولذلك تُعرَّف المُساعداتُ الإنسانيَّةُ بأنَّها: "معُونةٌ تُقدَّمُ لسُكَّانٍ مُتضرِّرين، يُقْصدُ بها في المقام الأوَّل السَّعْيُ لإنقاذ الأرواح، والتَّخفيف من مُعاناة السُّكَّان المُتضرِّرين بالأزمة، ويتعيَّنُ أنْ يكُون تقديمُ المُساعدات الإنسانيَّة وفقاًللمبادئ الإنسانيَّة، ومبدأي الحياد والنَّزاهة"[٢]. فالعمل الإنساني نشاط مدني سلمي، يرفض المنطق القائم على تجزئة الجنس البشري؛ فالمساعدات الإنسانية في الكوارث والأزمات تكون لكل من يستحقها دون تمييز، فالحق في الحياة وتخفيف الآلام وتوفير الغذاء والكساء والماء هو حق أصيل للجميع دون استثناء[٣].

ومن هُنا نُعرِّجُ بإيجازٍ على مفهُوم "الكارثة"، حَيْثُ يُعرَّفُ مُصطلح "الكارثة" منْ عدَّة وجهات نظرٍ رئيسةٍ؛ الأولى من منظُور العلُوم الطَّبيعيَّة أو البيئيَّة، انطلاقًا من الأضرار التي تُسبِّبها الكارثة، والثانية من منظُور العلُوم الاجتماعيَّة عن طريق المُساهمات البشريَّة التي تُؤثرُ فيها. فيرى الفريقُ الأوَّلُ: أنَّ الكوارث ظاهرةٌ طبيعيَّةٌ (أعاصيرٌ، زلازلٌ، عواصفٌ، براكينٌ)، ويُؤكِّدُ -هذا الفريقُ- أنَّها وقعت بسببٍ جيُوفيزيائيٍّ سبَّبتهُ قوىً طبيعيَّةٌ.

بينما يرى الفريقُ الثاني: أنَّ الكوارث هي أيُّ مخاطر (طبيعيَّة، بشريَّة، تكنُولُوجيَّة)، ويُشدِّدُ هذا الفريقُ على أنَّها وقعت بسبب حَدَثٍ بَشَرِيٍّ سَبَّبَتْهُ القِوَى الاجْتماعيَّة[٤].

الكارثة إذن وضْعٌ مُتأزِّمٌ يتسبَّبُ في إحداث أضرارٍ واسعة النِّطاق تفُوقُ كثيرًا مقدرة المُجتمعات المُتضرِّرة على التَّعافي منها وحدها، وبالتالي، فالكارثةُ هي "حادثةٌ كبيرةُ الحجم تنجُمُ عنها خسائرٌ جسيمةٌ في الأرواح والمُتلكات، وتتطلَّبُ مُواجهتها قُدرات وطنيَّة كافية، أو معُونةً دوليَّةً إذا كانت القُدرةُ على مُواجهتها تفُوقُ القُدرات الوطنيَّة"[٥].

٢- ملامحُ الوضع الليبيّ المُعقَّد وفاجعةُ كارثة درنة:

- **المشهدُ السِّياسيُّ الليبيُّ الرَّاهنُ:** يُمكنُ توصيفُ ملامح هذا المشهد بإيجازٍ في النقاط التالية:

أ- استمرار مشهد الانقسام السياسي في ليبيا: حيثُ إنَّهُ تُوجدُ حاليًّا حُكُومتان، الأولى: برئاسة عبد الحميد الدبيبة تعملُ من العاصمة طرابلس، (وتم منحها الثقة من البرلمان في ١٠ مارس٢٠٢١)، وهي ترفُضُ تسليم السُّلْطة للحُكُومة الجديدة التي كلَّفها البرلمانُ، برئاسة فتحي باشاغا في فبراير عام ٢٠٢٢. علمًا أنه في ١٦ مايو٢٠٢٣ قرر مجلس النواب إيقاف رئيس الحكومة المكلفة من قبله، فتحي باشاغا، وإحالته إلى التحقيق، وتكليف وزير المالية والتخطيط أسامة حماد بتسيير مهام رئاسة مجلس الوزراء بدلا من باشاغا بعد نحو ١٥ شهرًا من تسلمه لهذا المنصب. ويعني ذلك استمرار الانقسام في بعض المُؤسَّسات، والتَّضارُب في القرارات، وإهدار المال العام.. فنحنُ هُنا -وفق قراءةٍ من منظُور الجُغرافيَّا السِّياسيَّة- بصدد "ثُنائيَّةٍ إقليميَّةٍ" تُشكِّلُ خطرًا على الوحدة الوطنيَّة، مبْعثُها أنَّ الشريط السَّاحليَّ الذي يحتضنُ هذه الثنائيَّة يحملُ فوق سطحه جُلَّ المعْمُور الليبيّ، فأصبحت هُناك حُكُومتان وبرلمانان، وما يزيدُ منْ

(١) محمد عبد الصاحب الكعبي، المسؤولية المدنية عن أضرار الكوارث الطبيعية: دراسة مقارنة، الإسكندرية: دار التعليم الجامعي، ٢٠٢٠م، ص١٧٥.

(٢) غسان الكحلوت، العمل الإنساني: الواقع والتحديات، بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠٢٠م، ص١٤٤.

(٣) للمزيد انظر: جان هيرف برادول، "مقدمة: تأثير النظام الدولي على النشاطات الإنسانية"، في: مجمُوعة باحثين، في ظل حروب عادلة: العنف والسياسة والعمل الإنساني، أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠٦م، ص ص١٤-١٨.

(٤) لمزيد من التفصيل حول هذا المفهوم أنظر: ريم عبد المجيد، "الكوارث البيئية: المفاهيم والنظريات"، المجلة الدولية للدراسات الإنسانية، الرياض، مركز الملك سلمان للإغاثة والأعمال الإنسانية، العدد: ٦، يناير ٢٠٢٢م، ص ص٩٥-١٠٠. و: فادي حسن عقيلان، إدارة الأزمات والكوارث الطبيعية والغير طبيعية، عمَّان: دار المعتز للنشر والتوزيع، ٢٠١٥م، ص ص١٤-١٥.

(٥) غسان الكحلوت، العمل الإنساني: الواقع والتحديات، مرجع سبق ذكره، ص٢٦.

حساسيَّة هذه الثنائيَّة الإقليميَّة وُقُوعُ آبار النفط والغاز في الهلال النفطيّ الذي يتولَّى الجيشُ الوطنيُّ الليبيُّ حمايتهُ[١].

ب- التعديلُ الدستُوريُّ الثالثُ عشر: حيثُ تمَّ إقرارُ هذا التَّعديل بإجماع النُّوَّاب الحاضرين في جلسة مجلس النواب المُنعقدة في بنغازي بتاريخ: ٧ فبراير ٢٠٢٣. وتضمَّن التَّعْديلُ ثلاث وثلاثين مادَّةً، على سبيل المثال نصت المادة الثانية على أنه: "يتكون نظام الحكم من سلطة تشريعية مكونة من غُرفتين تحث مسمى مجلس الأمة، وسلطة تنفيذية يترأسها رئيس منتخب مباشرةً من الشعب". وتضمَّن التَّعديلُ مواد تتعلق بتكوين مجلس النواب ومشروعات القوانين ومُقترحاتها، والسؤال والاستجواب، وتكوين مجلس الشيوخ، والعضوية فيه، وانعقاد جلساته، واختصاصاته، واللجنة المشتركة وغيرها.. ونصَّت المادَّةُ (٣٠) من التَّعديل الدستُوريّ على: (حُكم انتقالي لانتخابات مجلس الأمة ورئيس الدَّولة)، وذلك كالتالي: "أنْ تُجْرَى انتخاباتُ الرئيس والمجلس خلال ٢٤٠ يومًا من تاريخ دُخُول قوانين الانتخابات حيّز التنفيذ، وفي حال تعذُّر إجراء الانتخابات الرِّئاسيَّة لأيّ سببٍ كان، تُعْتبرُ كُلُّ الإجراءات المُتعلِّقة بالعمليَّة الانتخابيَّة كأن لمْ تكُن".[٢]

ج-تشكيلُ اللجنة المُشتركة لإعداد القوانين الانتخابية (٦+٦): جاء في المادة: (٣٠) الفقرة: (ب)، حسب التعديل الدستوري الثالث عشر: "تُشكَّلُ لجنةٌ مُشتركةٌ منْ قبل مجلسي النُّوَّاب والدَّولة بواقع ستة أعضاء عن كل مجلسٍ، للتَّوافُق بأغلبيَّة الثُّلُثين من أعضاء كُلِّ مجلسٍ؛ وذلك لإعداد مشرُوعات قوانين الاستفتاء والانتخابات، وفي حال عدم التوافُق على النِّقاط الخِلافِيَّةِ، تَضَعُ اللجنةُ آليَّة اتِّخاذ القرار بِشَأْنِهَا، وتكُونُ قرارتُها نهائيَّةً ومُلزمةً"[٣].

وبناءً على هذه المادَّة، تمَّ تشكيلُ اللجنة منْ قبل المجلسين (النُّوَّاب والأعلى للدَّولة)، وعُقدت تلك اللجنةُ المُشتركة بتاريخ: (٥ أبريل ٢٠٢٣)، اجتماعها الأوَّل بمقر المجلس الأعلى للدَّولة في طرابلس، وهُو الاجتماعُ "التَّحضيريُّ الأوَّلُ" للجنة، تمهيدًا لوضع القوانين والتَّشريعات للانتخابات المُزمع إجراؤُها قبل نهاية هذا العام وفقًا للتَّعديل الدُّسْتُوريّ الثَّالِثَ عَشَرَ. وتمَّ خلال الاجتماع تبادُل وجهات النَّظر حول استراتيجيَّة عمل اللجنة، والآليَّات التي ستُتَّبعُ لأداء المهامّ المُوكلة إليها، وتحديد الأُسس التي ستنطلقُ منْها[٤].

د- مُبادرة عبد الله باتيلي المُمثل الخاص للأمين العام للأمم المتحدة في ليبيا: حيث تم تعيين السيد عبد الله باتيلي، من السنغال، اعتبارًا من ٢٥ سبتمبر٢٠٢٢، ممثلًا خاصًا للأمين العام للأمم المتحدة في ليبيا، ورئيسًا لبعثة الأمم المتحدة للدعم في ليبيا. وبعد عدد من المباحثات التي أجراها باتيلي مع الفرقاء الليبيين، وبعض دول الجوار، أطلق مبادرته حول الأزمة الليبية، والتي تقوم على أن معظم مُؤسَّسات الدَّولة فقدت شرعيَّتها مُنذُ أعوامٍ، وأنَّ مجلسي النواب والدولة فشلا في التوافُق على قاعدة دُستُوريَّةٍ للانتخابات. وأشار في مُبادرته إلى أنَّ: "تنفيذ الانتخابات الرِّئاسيَّة والتَّشريعيَّة يتطلَّبُ توافُقًا وطنيًّا واسعًا ينطوي على التَّأييد والمُشاركة الفاعلين لطيفٍ أوسع من الأطراف المعنيَّة، بما في ذلك المُؤسَّساتُ الوطنيَّةُ، والشَّخصيَّات السِّياسيَّة، والأطراف الأمنيَّة، وزُعماء القبائل وغيرهم من الفاعلين". واقترح باتيلي إنشاء "لجنة توجيه رفيعة المُستوى في ليبيا"، وستعملُ الآليَّةُ المُقترحة على الجَمْعِ بين مُختلف الأطراف الليبيَّة المَعْنيَّة بمن فيهم مُمثلُو المُؤسَّسات السِّياسيَّة وأبرز الشَّخصيَّات السِّياسيَّة وزُعماء القبائل، ومُنظمات المُجتمع

(١) انظر: محمود توفيق، "الأزمة الليبية بين الجغرافيا والسياسة"، مجلة السياسة الدولية، القاهرة: مؤسسة الأهرام، العدد: ٢٣٠، المجلد: ٥٧، أكتوبر ٢٠٢٢م، ص ص ١١٦-١١٧.

(٢) "التعديل الدستوري الثالث عشر"، الجريدة الرسمية، مجلس النواب الليبي، بنغازي، العدد: الرابع، السنة: الأولى، ٢٠٢٣/٢/٢٣م، ص ص١٢٥-١٣٧.

(٣) "التعديل الدستوري الثالث عشر"، الجريدة الرسمية، المادة: (٣٠)، الفقرة: (ب)، مرجع سبق ذكره، ص١٣٧.

(٤) لجنة «٦+٦» تعقد اجتماعها الأول بمقر مجلس الدولة في طرابلس"، بوابة الوسط، بتاريخ: ٥/أبريل/٢٠٢٣م، متاح عبر الرابط التالي: https://alwasat.ly/news/libya/394736

المدنيّ، والأطراف الأمنيَّة الفاعلة، ومُمثلين عن النِّساء والشَّباب[١].

وغداة إعلان باتيلي عن تفاصيل مُبادرته لاحت بوادرُ «انقسامٍ ورفضٍ» لهذا الطَّرح، وخُصُوصًا بين المُؤيّدين لمسار مجلسي النواب والأعلى للدولة الرَّامي للتَّوصُّل إلى الاستحقاق بعد مُوافقتهما على التَّعديل الثالث عشر للإعلان الدستوري. وبدت بوادر الرفض للخطة الأممية ظاهرةً في تعليقات العديد من النواب وأعضاء مجلس الدولة، وخصوصًا بعد إشارته إلى إن "مدة انتخاب أعضاء مجلس النواب انتهت، وعليهم تقديم أنفسهم للشعب من جديد لانتخابهم". وكانت رؤية باتيلي تهدف إلى وضع خريطة طريق واضحة للوصول إلى الانتخابات لإجراء الاقتراع في نهاية عام (٢٠٢٣)، كما أنها تعتمدُ على تهيئة المسارين الأمنيّ والعسكريّ، بما يضْمنُ سلامة الأجواء المُحيطة بالانتخابات. وبشأن اللجنة المعنيَّة بالانتخابات، طمأن باتيلي المُتخوّفين منْ تشكيلها، وقال إنها: "ستكُونُ مُخوَّلةً بتنفيذ المُبادرة الأممية، ولا تحْملُ حلًا من الخارج، ولا تهدفُ إلى تجاوُز الأطراف السِّياسيَّة المحلِّيَّة"[٢].

- **كارثة درنة:** *درنة* هي *مدينةٌ* جبليَّةٌ تقعُ على ساحل البحر الأبيض المُتوسِّط في شمال شرق ليبيا، تتميَّزُ بموقعٍ مُهمّ وطبيعةٍ خلاَّبةٍ، يقْسمُها وادي درنة إلى قسمين تقريبًا، وتتميَّزُ درنة بغطاءٍ نباتيٍّ وفيرٍ تُغذِّيه مياهُ الينابيع، منها نبعُ عين البلاد وعين بو منصور، ممَّا يجعلُها وجهةً للسِّياحة الدَّاخليَّة.

وفي فجر يوم الاثنين١١ سبتمبر٢٠٢٣، ضرب (الإعصار دانيال) بعض مُدُن الجبل الأخضر والسَّاحل الشرقيّ الليبيّ، وكانت الضربة الأشد في مدينة درنة، حيث تسببت كميات الأمطار الضخمة التي سقطت بغزارةٍ على المدينة في انهيار سدَّيْهَا (درنة، والمنصور)، اللذين يحتجزان خلفهما كميات كبيرة من المياه، الأمر الذي زاد من كتلة المياه وحجم الفيضانات والسيول، حيث تدفقت مياه السَّدين إلى المدينة بكل قوة، فجرفت كل ما في طريقها من بيوت وسيارات وبنية تحتية..، فكان حجم الكارثة كبيرًا جدًا، فقد كان عدد الضحايا والمفقودين بالآلاف، إذ قالت منظمة (أطباء بلا حدود) في بيانٍ لها، "إن ما لا يقل عن ٥٠٠٠ شخص في ليبيا، لقوا حتفهم بسبب الفيضانات"[٣]. في حين أكد الناطق الرسمي باسم القوات المسلحة العربية الليبية أن: "عدد شهداء مدينة درنة حتى يوم ١٠ أكتوبر٢٠٢٣ بلغ ٤٢٧٨". (وفق آخر بيان منشور بهذا الخصوص)[٤]. في غضون ذلك، قال الناطق باسم المنظمة الدولية للهجرة في تصريحاتٍ صحفيَّةٍ: "إنَّ ثلاثين ألفًا على الأقلِّ شُرِّدُوا في مدينة درنة" جراء الفيضانات[٥].

على إثر تلك الفاجعة المُروِّعة، سيطر الغَضَبُ والتَّوتُّرُ على المشهد الليبيّ، وبدا الارتباكُ واضحًا على أداء المُؤسَّسات الحُكُوميَّة (المُنقسمة) التي لم تكُنْ على استعدادٍ للتَّعامُل مع كارثةٍ بهذا الحجم، ورغم مظاهر التَّماسُك الوطنيّ، ووُقُوف الليبيين -من كافَّة المُدُن والمناطق في الدَّولة- إلى جانب أهالي المُدُن المنكُوبة وتقديم المُساعدات العاجلة والمُساهمة في إنقاذ العالقين وانتشال الجثامين، في إطار حملة (فزعة خوت)[٦]،

(١) "نص إحاطة باتيلي أمام مجلس الأمن: أغلب المؤسسات فقدت الشرعية.. ومبادرة لإجراء الانتخابات في ٢٠٢٣م"، القاهرة، بوابة الوسط، بتاريخ: ٢٧ فبراير ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://alwasat.ly/news/libya/390476

(٢) جمال جوهر، "انقسامات مبكرة في ليبيا حول مبادرة باتيلي للانتخابات: البعض اعتبرها: "كلامًا نظريًا يصعب تطبيقه"، جريدة الشرق الأوسط، ١٣/مارس/٢٠٢٣م، رقم العدد: [١٦١٧٦]، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/1qlUI

(٣) "شرح بالصورة.. كيف تسببت الفيضانات بكارثة مدينة درنة الليبية؟"، موقع: (CNN بالعربية، ١٥ سبتمبر٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/CqJNj

(٤) "بيان الناطق الرسمي باسم القوات المسلحة العربية الليبية"، منشور بتاريخ: ١٥/أكتوبر/٢٠٢٣م، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/1vGC6

(٥) "المنظمة الدولية للهجرة: ٣٠ ألف مشرد على الأقل إثر كارثة السيول في درنة"، أصوات مغاربية، بتاريخ: ١٣/سبتمبر/٢٠٢٣م، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/2UFL2

(٦) نقلت بعضُ وسائل الإعلام عن المبعُوث الأمميّ إلى ليبيا قولهُ: "إنَّ

كانت هُناك أيضًا بياناتٌ ونداءاتٌ كثيرةٌ تُطالبُ بالتَّحقيق في أسباب هذه الكارثة، ومُحاسبة المسؤُولين عنها، وتتَّجهُ باللوْمِ نحو الحُكُومات والبرلمان، وتُطالِبُ أيضًا بإعادة إعمار المدينة المنكُوبة، والإسراع في عمليَّة تعويض المُتضرِّرين، وتكليف شركاتٍ أجنبيَّةٍ بمشاريع إعادة الإعمار، والدَّعوة إلى أنْ يتولَّى النَّائبُ العامُّ في ليبيا التَّحقيق في هذه المأساة، ومُحاسبة كُلِّ منْ يثبُتُ تورُّطُهُ في هذه الكارثة..

وكان البرلمان الليبي قد عقد يوم ١٤ سبتمبر ٢٠٢٣ جلسةً طارئةً في بنغازي بخصوص تلك الأحداث، خلصت لعدة نقاط منها: أن مجلس النواب صوّت بالإجماع على إقرار ميزانية طوارئ بقيمة ١٠ مليار دينار ليبي لمعالجة آثار الفيضانات في المناطق المتضررة. -تشكيل لجنة برئاسة السيد رئيس مجلس النواب، وعضوية محافظ مصرف ليبيا المركزي، وعضوية مندوب عن القيادة العامة للقوات المسلحة تتولى فتح حساب في مصرف ليبيا المركزي تودع فيه المخصصات أو المعونات المحلية والدولية، والإشراف على صرفها للأغراض المخصصة لها. ذلك بالإضافة إلى تكليف اللجنة التشريعية بمجلس النواب لإعداد مشروع قانون إنشاء صندوق "إعمار ليبيا"، وتكليف جهاز الطب والطوارئ بإدارة الأزمة الطبية في المناطق المنكوبة تحت إشراف ومتابعة لجنة الصحة بمجلس النواب. أيضًا بجانب مطالبة النائب العام بالتحقيق في أسباب حصول هذه الكارثة، وتبيان ما إذا كان هناك قصور أو تقصير من أي جهةٍ كانت[١].

وبالفعل، بدأ النائب العام في أداء مهامه في درنة، يوم ١٥ سبتمبر ٢٠٢٣، فأخذ في معاينة الأضرار التي ترتبت على الفيضان الذي شهدته المدينة؛ والتقى وكلاءه المكلفين بإجراء تحقيق الكارثة؛ ووجه بإجراء بحث بغرض تحليل حادثة الفيضان؛ وتعيين المسؤولية المتولدة عنها.

والتقى النائب العام برئيس مجلس وزراء الحكومة، والنائب الأول لرئيس مجلس النواب، ورئيس لجنة متابعة الأجهزة الرقابية، ورئيس لجنة متابعة وزارة الداخلية، بحضور قادة الجهات الأمنية، والوحدات العسكرية، فتناول اللقاء جهود مواجهة تداعيات كارثة الفيضان، وما انتهت إليه النيابة العامة من تدابير في هذا الخصوص[٢]. وفي ٢٥ سبتمبر حركت سلطة التحقيق في مكتب النائب العام الدعوى الجنائية في مواجهة ستة عشر مسؤولًا عن إدارة مرفق السدود في البلاد. وبفراغ المحققين من إجراء الاستجواب؛ انتهوا إلى حبس ذوي الصِّفات المذكُورة احتياطيًّا؛ ومضوا في طلب ما يلزمُ التَّحقيق في مُواجهة بقيَّة المسْؤُولين عن حادثة فيضان درنة؛ وغيرهم ممن أساء إدارة مشرُوع إعادة إعمارها، أو حَصَّلَ منافع غير مشرُوعةٍ نتيجة هذه الإساءة[٣].

ويرى الخُبراء أنَّهُ بصرف النَّظر عن العاصفة القويَّة نفسها، فإنَّ كارثة ليبيا تفاقمت إلى حدٍّ كبيرٍ بسبب مجمُوعة قاتلةٍ من العوامل، بما في ذلك: عُمْرُ الأبنية والبُنية التَّحتيَّة المُتهالكة، والبناءُ العشوائيُّ في مجرى السَّيْلِ، والتَّحذيراتُ غير الكافية، وعدم صيانة السُّدُود مُنذُ فترةٍ طويلةٍ، وتأثيراتُ أزمة المناخ المُتَسَارِعَةِ[٤].

ثانيًا- جُهُودُ الإغاثة الإنسانيَّة في ظلِّ الانقسام السِّياسيِّ: دراسة حالة الهلال الأحمر الليبي في كارثة درنة:

تأسَّست جمعيَّةُ الهلال الأحمر الليبيِّ رسميًّا في أكتوبر ١٩٥٧، واعترفت بها اللجنة الدَّوليَّةُ للصَّليب الأحمر في سبتمبر ١٩٥٨. وهي جمعيَّةٌ وطنيَّةٌ إنسانيَّةٌ تطوُّعيَّةٌ مُساندةٌ للسُّلطات

الشَّعب الليبيَّ يضربُ أعظم الأمثلة في الوحدة والتعاطُف والصُّمُود في مُواجهة المأساة المُدمِّرة". موقع: نبض، بتاريخ: ٢٠٢٣/٩/١٤م: http://nabdapp.com/t/125067799

(١) "تصريح المتحدث الرسمي باسم مجلس النواب بشأن الجلسة الطارئة التي عُقدت اليوم الخميس"، موقع: مجلس النواب الليبي، بتاريخ: ١٤ سبتمبر٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/4G1I9

(٢) "مكتب النائب العام بدولة ليبيا"، الصفحة الرسمية على موقع الفيس بوك، بتاريخ: ٢٠٢٣/٩/١٧، الرابط التالي: https://cutt.us/PVRAp

(٣) المرجع السابق.

(٤) انظر: "شرح بالصورة.. كيف تسببت الفيضانات بكارثة مدينة درنة الليبية؟"، CNN بالعربية، ٢٠٢٣/٩/١٥م، سبق ذكره.

المحلِّيَّة، تَعْمَلُ لتخفيف مُعاناة الفئات المُستضعفة، وحماية الكرامة الإنسانيَّة، وهي الهيئةُ الوحيدةُ التي تُمثِّلُ الحركة الدَّوليَّة للصَّليب الأحمر والهلال الأحمر في ليبيا طبقًا للقواعد المنصُوص عليها في الاتِّفاقيَّات الدَّوليَّة. ويقُومُ الهلالُ الأحمرُ الليبيُّ بتنفيذ أنشطته وبرامجه من خلال فُرُوعه المُنتشرة في جميع أنحاء الأراضي الليبيَّة، والبالغ عددُها: ٣٨ فرعًا لتلبية احتياجات المُجتمع المحلِّيّ. وهو يعتمد على كوادر مُؤهَّلة من المُتطوِّعين البالغ عددُهُم: ٣٠٠٠ متطوع نشط تقريبًا، ويُوجدُ مقرُّ الأمانة العامَّة في مدينة بنغازي[١].

*** تحليل الوضع الحالي لجمعية الهلال الأحمر الليبي:**

نقاط القوة	نقاط الضعف
- انتشار الجمعية على رقعة جغرافية واسعة بواقع ٣٨ فرعًا و٥ مكاتب و١٤ شعبة تابعة للفروع، ليصل عدد الأماكن التي تعمل فيها الجمعية إلى ٥٧ منطقة، معتمدة على حوالي ٣٠٠٠ متطوع تقريبًا لتنفيذ الأنشطة الإنسانية والوصول إلى الفئات الأشد ضعفًا في مختلف الأراضي الليبية. - بالرغم من الانقسامات السياسية، حافظت الجمعية الوطنية على وحدتها متمثلة بإدارة واحدة مقرها مدينة بنغازي. - التزام الجمعية بمبادئ الحركة الدولية، ومنها الحياد وعدم التحيز، مما ساهم في زيادة قبول الجمعية على الأرض ومكّنها من الوصول وتقديم خدماتها للمتضررين في مختلف أماكن النزاع في ليبيا. - الجمعية نشطة على المستوى الدولي، وهي عضو في مجلس إدارة الاتحاد الدولي لجمعيات الصليب والهلال الأحمر. - جزء كبير من الكادر الوظيفي في الإدارة العامة والفروع هم من فئة الشباب، ومن خلفية تطوعية. - التشبيك الجيد مع السلطات المحلية، مع تنوع في شراكات الجمعية الوطنية.	- عدم توفر المعلومات الكاملة عن إمكانيات الجمعية لدى الشركاء من خارج الحركة لا يجعل الجمعية هي الخيار الأول في الشراكات الإنسانية في ليبيا. - عدم وجود قانون داخل الدولة وتشريعاتها لحماية الشارة. - تفاوت في القدرات والإمكانيات بين الفروع، مما قد يؤثر على كفاءة تنفيذ الأنشطة والبرامج الداخلية. - عدم وجود قاعدة بيانات لمتطوعي الجمعية، مع الاحتياج لتفعيل سياسة استقطاب وتنمية المتطوعين بالجمعية. - قصور في البنى التحتية، وعدم توافر جميع المعدات اللازمة لتنفيذ أنشطة الجمعية، والحاجة إلى رفع إمكانيات المخازن الاستراتيجية وزيادة عددها. - اعتماد الجمعية على مصادر محدودة. - ضعف في الهوية البصرية والظهور لكافة ممتلكات الجمعية، ونقص في التجهيزات الخاصة بالمتطوعين مثل الزي بما يراعي الاختلافات الجغرافية والمناخية لتعزيز الحماية. - غياب بعض الإجراءات القياسية والسياسات. - اهتمام الجمعية بالاستجابة الميدانية على حساب ملف تنمية وتطوير الجمعية.

(١) انظر:
- قانون رقم ٢ لسنة ٢٠١٩م بشأن الهلال الأحمر الليبي، مجلس النواب، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/KPsLR
- كذلك: "الهلال الأحمر الليبي"، المركز العربي للاستعداد للكوارث، ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/iSLBD
وحول طبيعة العلاقة بين الهلال الأحمر والنظام السابق، انظر: أم العز علي الفارسي، أنماط التفاعل بين الدولة والمنظمات غير الحكومية في ليبيا: دراسة حالة جمعية الهلال الأحمر الليبي (١٩٥٧-١٩٩٤)، رسالة ماجستير غير منشورة، بنغازي: جامعة قاريونس، كلية الاقتصاد، ١٩٩٥م. وكذلك: محمد زاهي المغيربي، المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في ليبيا، القاهرة: مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية، دار الأمين للنشر والتوزيع، ١٩٩٥م، ص١٣٨.

*المصدر: **استراتيجية الهلال الأحمر الليبي: (٢٠١٩-٢٠٢٥)**، ص ص١٥-١٦، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/TUL1O

١- استراتيجيَّة الهلال الأحمر الليبيّ خلال "كارثة درنة":

كان من أبرز التَّحدّيات التي واجهتها جمعيَّةُ الهلال الأحمر الليبيّ خلال السَّنوات القليلة الماضية، خُصُوصًا فيما يتعلَّقُ بالمُحافظة على هويَّة ووحدة الجمعيَّة، الانقسامُ السِّياسيُّ في ليبيا. ومن الجدير بالذِّكْر أنَّ الجمعيَّة تمكَّنت من الحفاظ على وحدتها بالرُّغم من ذلك الانقسام النَّاجم عن الصِّراعات السِّياسيَّة والظُّرُوف الحاليَّة التي تمُرُّ بها البلادُ، حيثُ تطلَّبت هذه الظُّرُوفُ من الجمعيَّة مُراجعة وتعديل البرامج التي كانت تُنفِّذُها قبل الأزمة، مثل: برامج التَّوعية بالإسعافات الأوليَّة وبرامج السَّلامة على الطُّرُقات وبرامج النَّظافة الصِّحِّيَّة للأطفال، والعمل على استحداث برامج إضافيَّة لمُواءمة الاحتياجات الإنسانيَّة النَّاجمة عن النِّزاعات المُسلَّحة، وتلك المُترتِّبة على آثار الهجرة والكوارث الطَّبيعيَّة المُرتبطة بالتَّغيير المُناخيّ.

وفيما يتعلق بموضوع التمويل والقدرات المالية، فقد تأثرت أغلب ممتلكات الجمعية واستثماراتها المتمثلة في ٦ مستشفيات و٢٩ مركزًا صحيًا بالنزاعات المسلحة التي شهدتها البلاد في السنوات الماضية، من إضرار للمباني والمعدات والأجهزة الطبية. هذا بالإضافة إلى حصول نقص حاد في الموارد المالية نتيجة توقف الإعانات المقدمة لها من الدولة الليبية منذ سنة ٢٠١١ وحتى الآن. وتقوم الجمعية الوطنية حاليًا بتغطية جزء من التكاليف التشغيلية من بعض مواردها الخاصة المحدودة، ومن اللجنة الدولية للصليب الأحمر، بالإضافة إلى الدَّعم المُقدَّم من باقي مُكوِّنات الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر (مثل الاتحاد الدولي لجمعيات الصليب والهلال الأحمر، واللجنة الدولية للصليب الأحمر..)، بعد تأثُّر مصدر الدَّخل الرَّئيسيّ المُتمثِّل في المُستشفيات والمراكز الصِّحِّيَّة بدرجةٍ كبيرةٍ[1].

وفي كارثة بحجم كارثة درنة ومدن الشرق الليبي، بسبب الفيضانات والسيول الناجمة عن إعصار دانيال، وفي ظل وجود حكومتين إحداهما في غرب البلاد، والأخرى في شرقها، يصبح عمل منظمة إنسانية كالهلال الأحمر الليبي وتنسيق جهودها الإغاثية أمرًا بالغ الصعوبة والتعقيد.

٢- الأهدافُ الاستراتيجيَّةُ لجمعية الهلال الأحمر الليبي:

إنَّ الأهداف الاستراتيجيَّة تأتي لتحقيق مُهمَّة الهلال الأحمر الليبيّ في ظلِّ رُؤية الجمعيَّة في أنْ تكُون رائدةً في تقديم الخدمات الإنسانيَّة للمُجتمعات المحلِّيَّة والفئات الأشدِّ ضعفًا، وتأتي هذه الأهدافُ لتمكين الجمعيَّة منْ تقديم الخدمات وتنفيذ البرامج الصِّحِّيَّة والاستجابة إلى الاحتياجات الإنسانيَّة باستخدام آليَّاتٍ فعَّالةٍ ومُتطوِّرةٍ ومُستدامةٍ؛ للحدِّ من مواطن الضَّعف وتعزيز القُدرات الذَّاتيَّة.

واستجابةً للاحتياجات الميدانية، تم تحديد خمسة أهداف استراتيجية تسعى الجمعية لتحقيقها مع نهاية عام ٢٠٢٥، وهي كما يلي:

-جمعية وطنية قوية قادرة على الاستجابة للاحتياجات الإنسانية للفئات الأشد ضعفًا في المجتمعات المحلية.

- تعزيز دور الهلال الأحمر الليبي كشريك أساسي للسلطات المحلية في تقديم خدمات الرعاية الصحية الأولية والطارئة بشكلٍ فعال، وباستخدام أساليب حديثة ومتطورة.

- تقليل آثار المخاطر من خلال تعزيز قدرات الاستجابة العملياتية والمؤسسية التي تمكّن الهلال الأحمر الليبي من التعامل مع الأزمات والكوارث، وذلك عبر تقديم أنشطة التأهب، والوقاية، والحماية، والاستجابة، والتعافي.

(١) استراتيجية الهلال الأحمر الليبي: (٢٠١٩-٢٠٢٥)، ص ١٠، ص١٤. متاح عبر الرابط التالي:https://cutt.us/TUL1O

- نشر روح العمل التطوعي، والقيم الإنسانية، والتثقيف باتجاه تغيير السلوك للمساهمة في بناء منظومة تطوعية قوية ومستدامة لدعم البرامج والمشاريع.

- حشد الموارد وبناء شراكات مستدامة، من خلال استدامة قدرات الجمعية في تقديم الخدمات الإنسانية للفئات الأكثر ضعفًا، وتنويع مصادر الدخل المتاحة، وتعزيز مبدأ الاستقلالية في صنع القرار[١].

٣- التعامل مع كارثة درنة:

ومن خلال مُتابعة ورصد الدَّور التَّطوُّعيّ والإنسانيّ المُهِمّ الذي قامت به الجمعيَّةُ خلال كارثة فيضانات درنة والمُدُن المُجاورة لها، يُمْكنُ معرفةُ كيفيَّة تعاطي الجمعيَّة مع هذه الكارثة، والاستراتيجيَّة التي عملت من خلالها، وذلك وفقًا لما يلي[٢]:

- عقد مُتطوّعُو الهلال الأحمر الليبيّ فرع درنة يوم ١٠ سبتمبر٢٠٢٣ اجتماعًا لتقسيم المهامّ على رُؤساء الفرق المُكلَّفة بتسيير مُجريات الأحداث خلال فترة الأزمة، والاستعداد لأيّ طارئ.

- مع بداية الفيضانات والسيول في بعض مدن الجبل الأخضر بسبب غزارة الأمطار، بدأت فرق الطوارئ التابعة للهلال الأحمر الليبي منذ الساعات الأولى من صباح يوم ١١ سبتمبر في إخلاء بعض المنازل المتضررة بسبب الفيضانات، وتنظيف مجاري مياه الأمطار، وتقديم الدعم والإغاثة اللازمة للسكان. كما نشرت الجمعية عبر صفحتها الرسمية على (فيس بوك) أرقام فرق الطوارئ التابعة لها لتلقي البلاغات العاجلة من المدن والمناطق المتضررة.

- تزايدت خُطُورةُ الفيضانات والسُّيُول في مدينة درنة يوم ١١ سبتمبر، وكان رجالُ جمعيَّة الهلال الأحمر الليبيّ في الميدان، يُقدِّمُون الاستجابة في كافَّة مناطق المدينة، بما يتلاءمُ مع الإمكانيَّات المُتوفِّرة لديهم، حيث كانوا يساهمون في إخلاء العالقين وتقديم الإسعافات الأولية، والبحث عن المفقودين وتخفيف المُعاناة النَّاجمة عن السُّيُول التي تشهدُها المُدُنُ المُتضرِّرةُ، رغم تصاعُد الأزمة وحدَّتها وصُعُوبَتِهَا..

- أكد الهلال الأحمر مساء يوم ١١ سبتمبر وفاة أكثر من ٣٠٠ شخصًا جراء السيول التي ضربت مدينة درنة، ونشر صورًا لجثث الضحايا قبل دفنها. وأكد أنه "مشهد مؤلم ومحزن لا يمكن تصوره بالكلمات". كما أعلن الهلال عن وفاة بعض أفراده شهداء العمل الإنساني، أثناء استجابتهم في ميدان العمل بمدينة درنة.

- في يوم ١٢ سبتمبر، وتحت شعار (نداء وطن واحد)، توجَّه الهلالُ الأحمرُ الليبيُّ بنداء استغاثةٍ مُلحٍّ للمُساعدة في تخفيف المُعاناة التي يُعاني منها المُتضرِّرُون من السُّيُول والفيضانات في شرق البلاد، كما نشر مقطع فيديو بهذا الخصوص، وذكر فيه أرقام الحسابات المصرفية الخاصة بالجمعية لتلقي التبرعات من كل مكان للمتضررين في المدن الشرقية المنكوبة. يهدف النداء إلى تقديم الإمدادات الأساسية للأشخاص الذين فقدوا منازلهم وتعرضوا للأضرار من الإعصار (دانيال)، بما في ذلك الطعامُ والماءُ والمأوى والرِّعاية الصِّحِّيَّة وتقديم الدَّعم النَّفسيّ والاجتماعيّ للأشخاص المُتضرِّرين.

- من أبرز التَّحدِّيات التي واجهها مُتطوّعُو الهلال الأحمر استخراجُ مئات الجُثث في مدينة درنة، سواءٌ من تحت الأنقاض أو من البحر..، وإنقاذُ العالقين الأحياء في ذات الأماكن، وقد تمَّ بثُّ العديد من مقاطع الفيديو المؤثرة التي تُظْهِرُ ذلك.

- بعد أنْ قسَّمت السُّيُول والفيضانات درنة إلى جُزْئين، أصبح من الصَّعْبِ الوُصُول إلى شرق درنة بسُهُولةٍ. هذا الوضعُ

---

(١) المرجع السابق نفسه، ص ص١٧-٢٠.

(٢) تم رصد ومتابعة دور الهلال الأحمر الليبي في كارثة مدينة درنة والمدن المجاورة لها من خلال الآتي:

- منشورات الموقع الرسمي للهلال الأحمر على شبكة المعلومات الدولية على الرابط التالي: https://lrc.org.ly/

- كذلك صفحته الرسمية على موقع (فيس بوك): https://www.facebook.com/libyan.red.crescent

أدَّى إلى نقصٍ في إمدادات الغذاء والدَّواء ومياه الشُّرب. لذا، قرَّرت فرقُ الهلال الأحمر في ١٥ سبتمبر التواجُد على السَّاحل الشَّرقيّ لدرنة، وفتح طُرُق لتقديم المُساعدات الغذائيَّة وغير الغذائيَّة.

- استلامُ المُساعدات منْ كُلِّ مكانٍ في المخازن الاستراتيجيَّة للهلال الأحمر الليبيّ في بنغازي، ثم إعادة توزيعها على المُدُن والمناطق المُتضرِّرة في شرق البلاد. حيثُ أعلنت المُنظَّمةُ عن استلام مُساعداتٍ عاجلةٍ منْ عدَّة دولٍ عربيَّةٍ، منها: مُساعداتٌ من مُؤسَّسة سلمان للإغاثة من المملكة العربيَّة السُّعُوديَّة (٩/١٦)، مُساعداتٌ من الهلال الأحمر الإماراتيّ (٩/١٨) و(٩/٢٤)، مُساعداتٌ من دولة الكويت (٩/١٩)، مُساعداتٌ من جُمهُوريَّة مصر العربيَّة (٩/١٢)، وغيرها من المُساعدات التي قُدِّمت من كثيرٍ من الدُّول الصَّديقة والشَّقيقة.. وخُصُوصًا في الأيام الأولى للكارثة، ولا يتَّسعُ المَقَامُ لذِكْرِهَا جَمِيعًا.

- توافُدُ قوافل قُرُوع الهلال الأحمر من المُدُن الليبيَّة الأُخرى تحملُ المُساعدات المُختلفة والمُتطوِّعين.

- التركيزُ على جانب التَّوعية الصِّحِّيَّة للسُّكَّان في المناطق المُتضرِّرة، وتنبيههم بضرُورة أخذ الحيطة والحذر من المخاطر المختلفة المُحيطة بهم، وتوعية أنفُسهم وذويهم، واتباع الإرشادات الضَّرُوريَّة لضمان سلامتهم.

- يوم ٢٠ سبتمبر نشر الهلال الأحمر الليبي على صفحته الرسمية على (فيس بوك) ما يلي: "نحنُ نبذلُ قُصارى جُهدنا منذ الساعات الأولى في جميع المناطق المُتضرِّرة جرَّاء إعصار دانيال الذي ضرب الشَّرق الليبيَّ. حيثُ يعملُ فريقُنا المُؤلَّفُ من ٤٠٠ مُتطوِّع مُدرَّبين على الاستجابة في حالات الطوارئ في شتَّى المجالات؛ وذلك بهدف تخفيف المُعاناة وتوفير الحدِّ الأدْنى للعيش الكريم لمن تضرَّرُوا من هذه الكارثة. وهذا لا يعني أبدًا أنَّنا لسنا على جاهزيَّةٍ كاملةٍ لزيادة عدد المُتطوِّعين في مُختلف الميادين إذا ما استدعت الحاجةُ لذلك". وجاء عمل فرق الجمعية على هذا النحو:

فريقُ الدَّعم النَّفسيّ الاجتماعيّ: حيثُ قام بدورٍ مُهمٍّ طوال فترة الكارثة وما بعدها، إذ عمل على تقديم الدَّعْم النَّفسيّ لأفراد الأُسر النَّاجين والذين فقدُوا ذويهم في الفيضانات والسُّيُول، كما نظَّم نشاطاتٍ ترفيهيَّةٍ لأطفال النَّازحين بمراكز الإيواء، منها: ما كان بالتَّعاوُنِ مَعَ (يونيسف) ليبيا ومُنظَّمة "صُنَّاع الحياة"، تضمَّن النَّشاطُ إقامة ألعابٍ ومرسم فُنُونٍ تشكيليَّةٍ، وذلك منْ أجل تعزيز الصِّحَّة النَّفسيَّة والتَّواصُل الاجتماعيّ للأطفال في ظُرُوف الكَوَارِثِ.

فرقُ الدَّعم والطَّوارئ: وهي فرقٌ تابعةٌ للهلال الأحمر، تتواجدُ في الأماكن التي تضرَّرت من جرَّاء إعصار دانيال، ومُهمَّتُها تقديمُ الدَّعم العاجل والفوريّ، وتلقِّي البلاغات، وتقديم كافَّة المُساعدات اللازمة..

منصَّةُ ضحايا الإعصار المُوحَّدة بالتَّعاوُن مع هيئة الاتِّصالات والمعلوماتيَّة: حيث خُصصت لتسجيل بيانات المفقودين جراء إعصار دانيال في درنة، وذلك من قبل فريق الهلال الأحمر في المدينة، سعيًا منهُم لتوفير وسيلةٍ مركزيَّةٍ لتوثيق وتسجيل المعلُومات المُتعلِّقة بالأشخاص المفقُودين، ولجمع البيانات من جميع أصحاب المُبادرات ذات الاهتمام للوُصُول إلى جميع المعلُومات.

دورُ قسم الإعلام والتَّواصُل بالجمعيَّة: يُعْتبرُ هذا القسم من ضمن الأقسام المُهمَّة في الجمعيَّة، حيثُ يقُومُ بتقديم الخدمات المُساندة الأساسيَّة في المجال الإعلاميّ لضمان تنفيذ البرامج والعمليَّات تحقيقًا لرُؤية الجمعيَّة، ودورُها كَجِهَةٍ مُساندةٍ للسُّلطَاتِ المَحَلِّيَّةِ، ويُشْرِفُ عليه كوادرُ مُؤهَّلةٌ من المُوظَّفين.

ولُوحظ خلال فترة الأيام الأولى للكارثة أنَّ بعض وسائل الإعلام المرئيَّة أو المسمُوعة أو المقرُوءة تنْقلُ أخبارًا مغلُوطةً عن عدد ضحايا الكارثة وتنسبها للهلال الأحمر الليبي، وهُنا كان دورُ هذا الأخير تفنيدُ هذه المعلُومات، ونشر الأخبار المُؤكَّدة منْ قِبَلِهِ، فمثلا عقَّب المُتحدِّثُ باسم الهلال الأحمر الليبيّ توفيق الشكري على بعض تلك المعلومات بقوله: "نحنُ للأمانة نستغربُ الزَّجَّ باسم الهلال الأحمر في مثل هذه الإحصاءات

ونحْنُ لمْ نُصرِّح بهذه الأرقام". مُعْتبرًا أنَّها "تُرْبكُ الوضع، وخاصَّةً بالنِّسْبَةِ لذوي المفقُودين"[١].

وفي تصريحاتٍ أخرى قال الشكري: "نحتاجُ للمُعدَّات التي تُساعدُ فرق الإنقاذ سواءٌ المحلِّيَّة أو الدَّوليَّة في البحث عن الضَّحايا تحت الأنقاض، بالإضافة إلى الاحتياجات الطبِّيَّة المُلحَّة، ودورُنا كمُنظَّمةٍ إنسانيَّةٍ مُساندةٍ للسُّلطات المحلِّيَّة تتمثلُ في الإغاثة الغذائيَّة وغير الغذائيَّة، وانتشال الجُثث بمُساندة السُّلطات، بالإضافة إلى فتح مراكز خاصَّةٍ لتسجيل المفقُودين، وإنشاء ملفَّاتٍ لهُم". وأضاف أنَّ "مُنظَّمة (اليونيسيف) صرَّحت بالأمس أنَّ هُناك ثلاثمائة طفلٍ مُتضرِّرٍ تقريبًا في هذه المنطقة، يحتاجُون إلى الرِّعاية، سواءٌ الاهتمامُ بالعودة إلى الدِّراسة، أو برامج الدَّعم النَّفسيِّ المُهمَّة لهؤلاء الأطفال"[٢].

خاتمة:

إنَّ موضُوع إدارة الكوارث يُعْتبرُ من ضمن الموضُوعات المُهمَّة والحيويَّة التي تتطلَّبُ مزيدًا من الاهتمام والدَّعم الحُكُوميّ في عالمنا العربيّ؛ لما لها من أهمِّيَّةٍ قُصوى في إنقاذ المُجتمعات وحماية الأرواح، وإبقاء كُلّ الجُهُود مُستنفرةً بشكلٍ دائمٍ لأيِّ طوارئ يُمكنُ أنْ تحدُث مُستقبلًا..

ومن خلال ما تقدم يمكن القول إن كارثة طبيعية بحجم تلك التي أصابت مدينة درنة الليبية وما جاورها من مدن ومناطق الجبل الأخضر على الساحل الشرقي، بسبب الإعصار (دانيال)، وفي ظل ظروف الانقسام والتشظي التي تشهدها البلاد حاليًا، لم يكن من السهل أبدًا التعامل معها بالشكل الملائم، بل كانت الحاجة ملحة لتلقي الدعم والمساندة الفنية واللوجستية والبشرية (محليًا وإقليميًا ودوليًا)؛ وذلك بسبب ضخامة وطبيعة الكارثة وحجم الخسائر البشرية، التي لم تتعرض البلاد لمثلها من قبل.

وعبر العرض السابق تم توضيح استراتيجية منظمة أهلية وطنية في التعامل مع هذه الكارثة، وهي جمعية الهلال الأحمر الليبي، التي كان لها دور مهم خلال فترة الأزمة.

وبرصد أدبيات المنظمة، ومتابعة منشوراتها الرسمية على مواقعها وصفحاتها الإلكترونية، وكذلك رصد نشاطها على أرض الواقع، تبين بشكلٍ واضح أنها قد بذلت قصارى جهدها -رغم قلة الإمكانيات- لتقديم المساعدة والدعم لمساندة السلطات المحلية في كارثة درنة، والمدن المجاورة، وتمثل الدعم بإيجاز في: تقديم المساعدات (الغذائية والطبية) للسكان المتضررين، وإنقاذ العالقين، وانتشال جثث الضحايا، وكذلك تقديم الدعم النفسي للأفراد الناجين من هذه الكارثة.

وقد شكل الانقسام السياسي تحديًا كبيرًا بالنسبة لعمل جمعية الهلال الأحمر الليبي، ليس فقط أثناء فترة الإعصار دانيال ونتائجه بل حتى قبل ذلك وبعده أيضًا؛ باعتبار أن هذا الانقسام ترتب عليه صراعًا شرسًا على الموارد، وإرباكًا للمشهد السياسي والإداري في الدولة، دفع ثمنه المواطن العادي، الذي تعطلت بعض مصالحه، وأصبح يُعاني سوء الخدمات الصحية وانقطاع الكهرباء وتأخر المرتبات ونقص السيولة النقدية وغيرها، حيث يوجد تضارب في القرارات أحيانًا بين الحكومتين، وانقسام واضح في بعض المؤسسات. وقد طالبت العديد من الوزارات في حكومة حماد بعدم التعامل مع الحكومة منتهية الولاية في طرابلس، في حين أن هذه الأخيرة هي التي تقوم بالإنفاق، وصرف المرتبات، في ظل عدم إصدار قانون للموازنة العامة، وغياب للمساءلة والمحاسبة، وقد كشف تقرير ديوان المحاسبة الليبي الأخير لسنة ٢٠٢٢ تفاصيل حول حجم الفساد المالي في الدولة، وإهدار المال العام.

لقد كان السياق السياسي المعقد والسياق الأمني الهش بمثابة بيئة محلية صعبة وضاغطة في إطار عمل جمعية الهلال الأحمر الليبي، ولقد كشفت كارثة درنة مزيدًا من ملامح تلك

(١) "مأساة درنة.. الهلال الأحمر الليبي ينفي حصيلة الـ١١ ألف قتيل"، موقع: سكاي نيوز عربية- أبوظبي، بتاريخ: ١٧ سبتمبر ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/4YL6O

(٢) "المتحدث الرسمي باسم الهلال الأحمر الليبي للجزيرة: البنية التحتية تضررت والاحتياجات ملحة"، قناة الجزيرة، بتاريخ: ١٧ سبتمبر ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/pg04X

البيئة الصعبة، ففي ظل الارتباك الذي حصل، والانقسام وحجم الكارثة كان الهلال الأحمر الليبي يواجه صعوبات جمة، ويتطلع إلى التعاون والتكاتف من قبل كل المؤسسات المدنية والحكومية في مواجهة تلك الكارثة. وحقيقة الأمر أنه برغم كل التحديات والإخفاقات التي حصلت في مواجهة الدولة الليبية بكل مؤسساتها لتبعات الإعصار دانيال، فإنه يمكن القول ختامًا إن مثل هذه التجربة القاسية يمكن أن تقود في النهاية إلى وقفة مُحاسبة مع النفس، لمعرفة حجم الإمكانيات والقُدرات المُتاحة، والتفكير في كيفية الاستعداد لمُواجهة أزمات مُشابهة في المُستقبل.

عروض كتب

كتاب «المقاومة والتغيير في السياسة العالمية»

عرض: يارا عبد الجواد*

مقدمة

يمثل التغيير ركيزة وسمة أساسية للمسرح السياسي العالمي؛ فمع حركات الصعود والهبوط بين القوى العالمية والتغيرات في النماذج الكبرى المهيمنة، تنتج حركات تغيير ومقاومة بشكل مستمر تتفاوت في طبيعتها وحدتها ومدى تطرفها وراديكاليتها، وكذلك تتنوع أساليب إحداث التغيير ذاته والآثار المترتبة عليه. وفي هذا السياق نعرض كتاب "المقاومة والتغيير في السياسة العالمية"[1]، وهو كتاب أكاديمي لمجموعة من المؤلفين، يعد بمثابة إسهام في تقديم إطار نظري منطلق من النظرية النقدية في العلاقات الدولية لفهم طبيعة المقاومة، وبناءً على ذلك يناقش نماذج متعددة من صور المقاومة عبر فصوله مع بيان عوامل وشروط نجاح المقاومة في إحداث التغيير المنشود من عدمه.

الفصل الأول: الاقتراب من الانشقاق الدولي: المفاهيم والحالات والأسباب

يضع هذا الفصل خلفية تأسيسية نظرية لطبيعة التغيير على المستوى الدولي ومراحل حدوثه والمفاهيم المرتبطة به، وبناءً على ذلك، يسعى إلى إعادة صياغة عدد من مفاهيم العلاقات الدولية بهدف تعزيز التفسير النظري لكيفية وأسباب حدوث التغيير في النظام العالمي، وفي هذا الإطار يبدأ بتوضيح مفاهيم النظام الحاكم (Ruling order)، والمعارضة (Opposition)، والانشقاق (Dissidence).

ثم يحدد النهج العام تجاه الموضوع، والأساليب المستخدمة، والحالات المختارة للدراسة، ثم ينتقل إلى الأسباب المحتملة للانشقاق والآليات التي من خلالها إما أن تترسخ أو تتلاشى.

يعتمد الكتاب هنا مفهوما أكثر رحابة وسعة للنظام الدولي والفاعلين فيه بخلاف النظرية الواقعية؛ حيث يرى أن النظام الدولي متعدد المراكز وليس هرميًا، وينشأ هذا من علاقات القوة المتعددة التي تؤثر في جميع الجهات الفاعلة العابرة للحدود الوطنية والدولية، سواء من الناحية التأسيسية أو السلوكية والتي تتجلى في الأنظمة الرسمية وغير الرسمية والفاعلين الدوليين وغير الدوليين، وفي توزيع القدرات المادية. وبناءً على هذه الطبيعة قد تتكشف المقاومة من داخل عدد من أنظمة السلطة، والتي قد يتداخل بعضها أو يتنافس بعضها، وبالتالي فإن النظام الدولي الحاكم قد يتعرض للتحدي من زوايا وجهات متعددة، ويكون التغيير في النظام الدولي ممكنا ومتاحا طوال الوقت ولكنه يعتمد على الظروف والسياقات المحيطة. ومن هنا ينتقل الفصل لمحاولة تقديم الأسباب والظروف التي تساهم في نجاح التغيير أو فشله، ويرى الكتاب أن المقاومة، حتى في بعض الحالات في شكلها الراديكالي (الانشقاق)، ضرورية للتطور السياسي.

وفي إطار المنهج الذي يطرحه الكتاب لدراسة التغيير، يميز بين نوعين من المقاومة: تلك التي تحدث من داخل المعايير والإجراءات والمؤسسات السائدة، وتسمى"المعارضة" (opposition)، وتلك التي تعمل خارج هذه المعايير، وتسمى "الانشقاق" (dissidence). ومن ثم فإن المعارضة -على هذا النحو- تسعى إلى توفير خيارات سياسية بديلة من داخل النظام، وعندما تطمح إلى الاستيلاء على السلطة فإنها تقبل "قواعد اللعبة" الراسخة التي تحكم بالفعل ولا تسعى إلى

---

* باحثة في العلوم السياسية.

(1) Svenja Gertheiss, Stefanie Herr, Carmen Wunderlich, Klaus Dieter Wolf (eds.), Resistance and Change in World Politics: International Dissidence, (Wakefield: Palgrave Macmillan, 2017).

تغييرها جذريًا، وذلك بعكس الانشقاق الذي يسعى لتغيير الأسس والقيم الأساسية التي يقوم عليها النظام. وفي هذا السياق يفرّق النموذج النظري المطروح بين نوعين من الانشقاق؛ أحدهما الانشقاق الذي يقوم على محفِّز خارجي (dissidence by Ascription)، والآخر الانشقاق القائم على اختيارٍ وإرادةٍ من فاعليه (dissidence by choice).

وتعرض باقي فصول الكتاب مجموعة من حالات المقاومة على المستوى الدولي، تتبع جميعها النموذج المطروح في هذا الفصل الذي يتكون من جزأين؛ أحدهما وصفي والآخر تفسيري. يتتبع القسم الوصفي الانشقاق باعتباره بناءً اجتماعيا؛ حيث تقوم كل حالة على تعارض قائم في المعايير، إما في شكل معيارين متضاربين: بمعنى أن يواجه المبدأ الأساسي الذي يقوم عليه النظام الحاكم تحديًا من الجهات المنشقة التي تروج لمبدأٍ معياري بديل، أو يكون التعارض في تفسيرات مختلفة لمعيار واحد موجود. ثم يأتي القسم التفسيري الذي يقف على أسباب وظروف نجاح أو فشل الانشقاق. وبناءً على منهج الكتاب، يعتبر الانشقاق ناجحًا عندما يحدث تغيير في النظام المعياري (normative order).

ويعرض الكتاب بشكل نظري الدوافع والأسباب المؤدية لحدوث الانشقاق وكذلك عوامل نجاحه وفشله في إطار النموذج التحليلي الذي ستتم دراسة الحالات القادمة في الكتاب بناءً عليه، ومن ثم يقسم الكتاب الأسباب المؤدية إلى حدوث الانشقاق إلى:

أ- أسباب تتعلق بالمصالح

ب-أسباب تتعلق بالهوية

ج-أسباب تتعلق بالقيم والمعايير

د- أسباب تتعلق بديناميات ذاتية الاستدامة

ثم أسباب نجاح أو فشل الانشقاق:

أولا- ما يتعلق بالسياق المعياري:

- الخصائص المعيارية

- نوع الصراع المعياري

- طبيعة السياق المعياري

ثانيًا- ما يتعلق بالخصائص والاستراتيجيات:

- سمات وخصائص الفاعلين

- السلوكيات والاستراتيجيات

ثالثا- ما يتعلق بالتغير في السياقات والظروف المحيطة:

- التطورات والأحداث الخارجية

- التطور التكنولوجي

الفصل الثاني: الصحة قبل براءات الاختراع: تحدي أولوية حقوق الملكية الفكرية

هذا الفصل يبدأ بتطبيق المنهج النظري؛ حيث يتناول أول دراسة حالة من حالات التغيير والمقاومة لأحد السياسات الحاكمة في النظام الدولي، التي تتعلق بأولوية حقوق الملكية الفكرية على حقوق المرضى في الحصول على الأدوية.

يتناول هذا الفصل التعارض بين الحماية الدولية لبراءات الاختراع والحق في الصحة، مبيّنًا أن عددًا من الدول الناشئة (تحديدًا: الهند، البرازيل، جنوب إفريقيا، تايلاند والفلبين) وحلفاءهم من المجتمع المدني، قد شنوا حملة ناجحة ضد القواعد التي تحكم حماية الملكية الفكرية على النحو المحدد في اتفاقية تريبس (TRIPS) عام ١٩٩٤، المتعلقة بالجوانب التجارية لحقوق الملكية الفكرية، وفي أعقاب هذه المواجهة تم الاتفاق على تغيير نظام تريبس في المؤتمر الوزاري لمنظمة التجارة العالمية في الدوحة عام ٢٠٠١. ومنذ ذلك الحين، منحت قواعد التجارة العالمية الحق في الصحة الأسبقية على الحق في الملكية الفكرية. وقد ساهمت أزمة فيروس نقص المناعة البشرية، وإمكانيات التعبئة لدى المنظمات غير الحكومية، والقوى الصاعدة مثل الهند والبرازيل، فضلا عن الخطاب المعياري الجديد، وخاصة في الغرب، في هذا التغيير في سياسات الصحة العالمية.

وبالنظر إلى ما تقدم في الفصل الأول من نموذج تحليلي، فإن هذه الحالة قامت بتغيير على مستوى المعايير والقيم؛ حيث تم تغيير تراتبية القيم بإعطاء الأولوية لما هو إنساني على ما هو مادي وتجاري.

ويقدم الفصل عملية التغيير من خلال بيان مرورها بعدة مراحل من الصراع؛ ابتداءً بالطعن في النظام القائم على أساس معياري، مرورًا بنزع الشرعية عن المفاهيم المعيارية المنحرفة، وصولا إلى الاعتراف بشرعية الطرح الجديد ومن ثم إعادة تشكيل النظام. وهذه المراحل في مجموعها تمثل نموذجًا لتغيير النظام المعياري الناتج عن الانشقاق الدولي، وهذا ما تم بشكل عملي في القضية التي نحن بصددها؛ حيث قام الفاعلون الدوليون وغير الدوليين بالطعن -من منظور أخلاقي- في النظام القائم على أساس رأسمالي الذي يعلي من قيمة المادة على حساب حق الإنسان في الصحة والحصول على الدواء، ثم إدخال بعض التعديلات على هذا النظام ممثلا في اتفاقية تريبس بحيث تتغير تراتبية المعايير.

وتمثل هذه الحالة أحد حالات التغيير التي حققت نجاحًا نسبيًا، ويُرجِع الكتاب هذا النجاح -حسب النموذج التفسيري الذي طرح في الفصل السابق- في جزء كبير منه إلى العنصر الأول من أسباب نجاح الانشقاق أو فشله (السياق المعياري)، وذلك من خلال قيام أصحاب الدعوة بجعل دعوتهم في التغيير والقيم التي ينادون بها تتخذ شكلا عالميا وليس محليًا. ثانيًا أن التغيير لم يهدف إلى الهدم التام للنظام القائم ثم إعادة بنائه من الصفر، وإنما تمت إعادة هيكلةٍ وتعديلٍ في النظام بحيث يعاد رسم موضع المعايير والقيم في سلم الأولويات دون إنكار أو تحييد تام لأي منها. ثالثًا أسهم الجانب الأخلاقي للمسألة في تعزيز خوف المؤسسات الموكل بها الأمر من السمعة السيئة، ومن ثم فإن إقحام الأبعاد الأخلاقية لأي قضية يجعلها أكثر عرضة للحصول على قبول عام. رابعًا أسهمت الظروف والعوامل الخارجية في إنجاح عملية التغيير، وذلك من خلال استغلال القائمين على عملية التغيير الأمراض الوبائية كوسيلة ضغط لتحقيق مشروعهم.

الفصل الثالث: تحدي سيادة وسيطرة الدولة على أعمال العنف البحري؟

تعد السيادة واحتكار الدولة لاستخدام القوة من بين الخصائص المميزة للدولة القومية، ولكن منذ نهاية الحرب الباردة بدأت الجهات الفاعلة غير الحكومية -وخاصة الشركات العسكرية والأمنية الخاصة- في لعب دور مهم في الحوكمة الأمنية الوطنية والدولية. وتنشط الشركات العسكرية والأمنية الخاصة أيضًا في البحر، في حماية السفن من هجمات القراصنة. وعلى الرغم من التردد في البداية في إسناد مهمة حماية السفن التجارية إلى الشركات العسكرية والأمنية الخاصة، فقد أدخلت العديد من الدول الآن لوائح تنظيمية تنص على استخدامها، أو على الأقل تتسامح معها. وقد ساعد فشل الدولة في حماية السفن وأطقمها، وفي المقابل بناء التحالفات الاستراتيجية من قِبل الشركات العسكرية والأمنية الخاصة، على تأمين مكان لها في إدارة الأمن البحري. وفي هذا السياق يقوم هذا الفصل بدراسة هذه الحالة الناجحة في تحدي احتكار الدولة القومية لاستخدام القوة وإحداث تغيير هيكلي يجعل الدولة القومية ذاتها تسمح للشركات الخاصة والفاعلين غير الدوليين بالتدخل في الشؤون الأمنية (الأمن البحري نموذجًا) ووضع اللوائح المنظمة لهذه العملية التي تم شرعنتها وتقنينها. وبناءً على هذا يسلط الفصل الضوء على مراحل التغيير: كيفيتها والأسباب والظروف التي ساهمت في نجاحها.

يشير الكتاب إلى أن عودة ظهور القرصنة كتهديد للأمن الدولي في التسعينيات هي التي أدت إلى عودة الحديث عن الحماية المسلحة للسفن التجارية. فقد بلغ القلق الدولي ذروته عام ٢٠٠٠ بسبب تصاعد هجمات القراصنة في مضيق ملقا ذي الأهمية الاستراتيجية الذي يربط المحيط الهندي ببحر الصين الجنوبي؛ حيث بدأ حينها عدد صغير من مالكي السفن في الاستعانة بخدمات الشركات العسكرية والأمنية الخاصة، الأمر الذي ظل طي الكتمان إلى حد ما نتيجة عدم وجود قوانين دولية واضحة تنظم عملها، ولكن مع تزايد عمليات القرصنة تزايدت

هذه الشركات وبدأت تُحدِث تحولات حقيقية مع قيام دول العلم (flag states) بإدخال تشريعات وطنية تسمح باستخدام الشركات الأمنية الخاصة على السفن التجارية (وفي بعض الحالات سفن الصيد) التي ترفع عَلَمها.

ويمثل هذا النموذج من الانشقاق النوع الأول منه وهو الانشقاق القائم على الإسناد أو المحفز خارجي؛ فالقائمون به شركات الأمن البحري الخاصة إلا أن هذه الشركات لم تقُم بإحداث التغيير بشكل مباشر وإنما ساهم فيه تزايد عددها وفاعليتها القائمة على توظيف أصحاب السفن التجارية واستخدامهم لخدماتها، ومن ثم فإن الفاعلين المباشرين الموكلين بهذه العملية من التغيير يستندون في الحقيقة إلى فاعلين آخرين وظروف خارجية محفزة جعلتهم في صدارة الموقف.

وفي نهاية الفصل يأتي تحليل العوامل المؤدية لنجاح هذا النموذج؛ حيث تنقسم إلى عوامل معيارية تتعلق بالقبول العام الدولي لدور الفاعلين غير الدوليين في القيام بمهام كانت تعتبرها الدول مساحات محاطة بالخطوط الحمراء وتقوم بها على سبيل الاحتكار مثل المجال الأمني، ثم عوامل تتعلق بالفاعلين والاستراتيجيات المتبناة التي تتعلق باعتماد الشركات العسكرية والأمنية الخاصة المعنية بمكافحة القرصنة ومالكي السفن نهجًا مزدوجًا في الدفع بقضيتهم، بالإضافة إلى الاستراتيجية القائمة على إبراز فكرة أن الخدمات التي تقدمها تلك الشركات تخدم سيادة الدول ولا تتحداها بأي شكل عن طريق التواصل الدائم مع المؤسسات والوكالات الحكومية، وأخيرا العوامل المتعلقة بالظروف الخارجية المتمثلة في زيادة خطر عمليات القرصنة وفشل الحكومات في أكثر من حادثة من صدها مما أتاح الفرصة لشرعنة وتقنين خدمات الشركات الخاصة التي أثبتت فاعليتها في تحقيق الأمن البحري.

الفصل الرابع: حركات التحرر الوطني والأمم المتحدة: فوز وخسارة؟

يتناول هذا الفصل دراسة أبعاد الصراع بين مبدأ حق تقرير المصير ومبدأ سيادة الدولة وأثر ذلك على حركات التحرر في جميع أنحاء العالم؛ حيث يحاول الإجابة عن سؤالين رئيسيين: (أ) كيف كان من الممكن، في وقت ما، لحركات التحرر الوطني أن تحصل على الاعتراف وتنجح في الحصول على حقها في تقرير المصير؟ (ب) وكيف يمكن -من ناحية أخرى- لمؤيدي الحكم أن يحظوا بالاعتراف ويتمكن النظام حينها من نزع الشرعية عن هذه الحركات؟ وبعد الإجابة عن هذين السؤالين في ظل تحديد الإطار المعياري الذي يتم فيه نزع الشرعية عن حركات التحرر الوطني، يركز الكاتب على خطاب الجمعية العامة للأمم المتحدة حول هذه الحركات.

في سياق محاولة الكاتب الإجابة عن السؤالين السابقين، يعرض أولا بصورة تحليلية الأسباب التي أدت إلى وجود صراع وتوتر بين مبدأ حق تقرير المصير ومبدأ سيادة الدول، وذلك بالعودة إلى جذور ظهور المبدأين وتأكيد أن كلا منهما يرتكز على مفهوم مختلف جوهريًا للنظام العالمي؛ ففي حين أن سيادة الدولة تعتمد على فكرة ويستفاليا القائلة بأن السلام والأمن الدوليين لا يمكن ضمانهما إلا من خلال الالتزام بمبادئ عدم التدخل والسلامة الإقليمية، فإن تقرير المصير متجذر في فكرة أن الشعوب لديها الحق في أن تقرر بحرية كيف تُحكَم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا المبدأ قد برز في سياق حركات التحرر من الاستعمار، ومن ثم -وبالنظر إلى موقف الجمعية العامة للأمم المتحدة- فإننا نجد أن القرارات الصادرة عنها منذ الستينيات كانت ترجح كفة أحد المبدأين وفقًا للسياقات المحيطة وأجندة المصالح؛ ففي أثناء إنهاء الاستعمار، اعترف المجتمع الدولي بأن سعي حركات التحرر الوطني إلى الحرية أمر شرعي ولكن بمجرد إنهاء الاستعمار بدأ مبدأ حق تقرير المصير في التراجع تدريجيًا، وبدأت حركات التحرر تفقد شرعيتها ويتم استبعادها ولم يعُد هناك حديث عن حركات المقاومة والتحرر على الرغم من شرعية مطالبها، بل أصبح هناك مفردات جديدة مثل: مجموعات مسلحة، إرهابيين...إلخ.

في سياق تفسير الكاتب لهذا التحول فإنه يبدأ بالخصائص والسمات المعيارية؛ حيث يبين أن إضفاء الشرعية على حركات

التحرر ومبدأ حق تقرير المصير في مقابل سيادة الدولة أو العكس إنما يعود إلى مدى موافقتها إلى الإطار المعياري القائم. ففي فترة إنهاء الاستعمار في أعقاب الحرب العالمية الثانية كانت مبادئ الحرية والمساواة تسود المناخ العالمي وفي نفس الوقت كانت تلك الحركات تخدم مبدأ سيادة الدولة ولا تتحداها، ولكن بمجرد انتهاء فترة إنهاء الاستعمار بدأ تصوير حركات التحرر الوطني باعتبارها قوى مدمرة تهدد الأساس المعياري للنظام السياسي الدولي القائم على مبدأ السيادة بشكل أساسي.

أما على صعيد العنصر الثاني المتعلق بخصائص الفاعلين والاستراتيجيات التي تم تبنيها، يفصِّل الكاتب في مسألة أن حق تقرير المصير كان هو المهيمن في زمن إنهاء الاستعمار وارتبط بذلك وفي ذلك الوقت كانت الأمم المتحدة والدول الكبرى تقدم كافة أشكال الدعم للحركات التحررية مما أسهم في قوتها ونجاحها، ولكن الدول القومية التي نشأت في أعقاب هذه الحقبة وضعت أمنها وسلامتها في كفة ووجود حق خارجي لتقرير المصير في كفة أخرى واعتبرت أي تدخل خارجي بمثابة التعدي على سيادتها؛ ومن هنا بات النظام الدولي يضع مبدأ السيادة فوق كل المبادئ وكل الحقوق.

كما حاول المجتمع الدولي إشراك أكبر عدد ممكن من الجماعات المتمردة في مفاوضات السلام، وهو الاتجاه الذي ساهم في تفتيت حركات التحرر الوطني حيث تنافست الجماعات المختلفة مع بعضها البعض للحصول على الاعتراف الدولي.

أخيرًا وعلى صعيد الظروف والسياقات الخارجية المحيطة، والتي كان أبرزها الحرب الباردة، فإن كلا من الأمريكيين والسوفييت كان على استعداد لدعم الحركات التحررية لتعزيز نفوذها في العالم الثالث. ولكن بعد انتهاء الحرب الباردة وبداية موجة الحرب على الإرهاب خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر بدأت عمليات سحب الشرعية من هذه الحركات ووصمها بالإرهاب والتمرد.

الفصل الخامس: نزع الشرعية حسب الطلب: تسمية "الدولة المارقة" كوسيلة لتحقيق الاستقرار في نظام منع انتشار الأسلحة النووية

يقوم هذا الفصل بدراسة فكرة "الدولة المارقة" باعتبارها تسمية أمريكية ووصما يتم إطلاقه بشكل انتقائي ينافي المعايير التي وُضِعت لأجلها. وفي هذا الإطار يبدأ الفصل بتوضيح مفهوم "الدولة المارقة" كمثال على الانشقاق عن طريق الإسناد، وبعد تتبع تطور هذه الفكرة لتصبح واحدة من السمات المميزة للسرد الأمريكي في فترة ما بعد الحرب الباردة في السياسة الخارجية والأمنية، فإنه يدرس التجاوزات المعيارية الرئيسية التي يتم بموجبها تعريف "المحتالين" المزعومين على هذا النحو، ثم يوضح الطريقة الانتقائية والتعسفية التي يتم بها تطبيق تسمية "المارقة"، وتقييم مدى (عدم) قابلية تطبيق المعايير الفردية في حالة كل من "الدول المارقة"؛ بناءً على هذا يرى مطلقو هذا الوصف "المارق" أنه وسيلة لتحقيق استقرار النظام الدولي الحاكم.

ويركز هذا الفصل على معيار منع الانتشار النووي باعتباره أحد المعايير التي توصف الدولة وفقا لها بأنها مارقة، ويتم في سياقه الوقوف على تعسفية وانتقاء تطبيق وصف "المارقة". وفي هذا الإطار يشير الكاتب إلى تعريف النجاح على الجانبين المؤيد والمعارض على النحو التالي: "يعتبر الفريق الداعم للنظام الدولي نزع الشرعية عن طريق الوصم ناجحًا إذا تم الحفاظ على تسمية "الدولة المارقة" لفترة طويلة وتم حرمان الدولة الموصومة من الوصول إلى التكنولوجيات النووية أو اضطرارها إلى وقف برنامج أسلحة الدمار الشامل الخاص بها (مثل ليبيا والعراق)؛ أما من وجهة نظر الدول الموصومة، فإن النجاح يتحقق إذا أسقط أنصار النظام الحالي تسمية "المارقة" أو أظهروا بعض الاستعداد للاعتراف بحق الدول المعنية في الوصول إلى التقنيات النووية المذكورة (مثال إيران وكوريا الشمالية)".

وبالانتقال إلى الجزء التفسيري لهذه الحالة فإن الكاتب يركز على عنصر سمات الفاعلين والاستراتيجيات أكثر من العنصرين

الآخرين ويري أنه محوري في سياق تناول نجاح كلا الجانبين؛ فنجاح الفريق الداعم للنظام الدولي -أو بالأحرى الولايات المتحدة- في إطلاق هذا الوصم إنما يعود لسمات الفاعلين أنفسهم من حيث القوة والهيمنة العالمية والقدرة العسكرية في مقابل ضعف الطرف المقابل، ولذلك نجح الأمر في حالة ليبيا والعراق وظل مستعصيا في حالة إيران وكوريا الشمالية. وهذا ينطبق أيضًا على صعيد نجاح الاستراتيجيات؛ فالعقوبات والعزلة الاقتصادية باعتبارها أبرز الاستراتيجيات التي يتم بها معاقبة الدول المعنية للرضوخ جعلت الاقتصاد الليبي على سبيل المثال على حافة الهاوية، أما في حالة إيران فإن العقوبات لم تكن كافية لردعها، فضلا عن قوة عامل التحالفات الدولية في حالة إيران وكوريا الشمالية في ظل صعود الحليف الصيني والروسي.

وعلى صعيد عنصر الإطار المعياري أشار الكاتب إلى أن إيران فقط من نجحت في الحصول اعتراف غير مباشر بحقها في المشاركة في التخصيب، على النحو المنصوص عليه في الاتفاق النووي المبرم في يوليو/تموز ٢٠١٥، وذلك بالتركيز على الاستحقاق كمعيار ومبدأ. أما على صعيد العوامل والظروف الخارجية يشير الكاتب إلى أن ظروف فترة ما بعد الحرب الباردة والانتقال إلى نظام أحادي القطب مكَّن الولايات المتحدة من إضفاء الشرعية على كل تعاملاتها الراديكالية والانتقائية مع كل ما من شأنه تهديد هيمنتها العالمية.

الفصل السادس- حماية الدين: المعارضة الإسلامية والمقاومة ضد التمثيلات الغربية للإسلام

يناقش هذا الفصل حالة الصراع الدائرة بين حماية الأديان من حملات التشويه والإهانة وبين ما يسمى بحرية التعبير، وهنا نقف عند استخدام الكاتب مصطلح "حرية التعبير" -وفق تعريفه الغربي- لوصف أعمال مجلة شارلي ايبدو ضد الإسلام وضد النبي محمد صلى الله عليه وسلم وغيرها ممن الممارسات المشينة ضد الإسلام والمسلمين، لنضع سؤالا حول صحة هذه التسمية من الأساس!

ينطلق هذا الفصل من الوقوف على موجات الاحتجاج التي يقوم بها المسلمون منذ منتصف العقد الأول من القرن الحادي والعشرين باعتبارها شكلا من أشكال المقاومة الراديكالية ضد النظام العالمي الليبرالي العلماني الغربي، التي جاءت كرد فعل على أحداث متتالية من تشويه الإسلام في المجتمعات الغربية، والتي كان يُنظر إليها على أنها إهانة للإسلام وتشويه سمعته. ومن ناحية أخرى، عملت منظمة التعاون الإسلامي كمدافع عن مخاوف المسلمين العالمية بشأن تزايد كراهية الإسلام في الغرب وحاولت الحصول على حق حماية الأديان -أو بالأحرى حماية الإسلام باعتباره هو المستهدف الأول من هذه الحملات- من التشهير والإهانة كمعيار جديد في سياق نظام الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، ولكن هذه المحاولات فشلت في إحداث أي تغيير حقيقي في معايير النظام الدولي المهيمن.

وفي هذا السياق يعرض الفصل أولا حملة منظمة التعاون الإسلامي من أجل حظر "تشويه صورة الأديان" كشكل من أشكال معارضة النظام الليبرالي العلماني، ثم يقف على الدوافع وراء مبادرة منظمة التعاون الإسلامي وأسباب نجاحها في وضع هذه القضية على جدول أعمال الأمم المتحدة، ثم ينتقل لعرض صور المعارضة المتزايدة لتصوير الإسلام والنبي محمد في وسائل الإعلام الغربية في ٢٠٠٥/٢٠٠٦ عندما اندلع الجدل حول الرسوم الكاريكاتورية إلى احتجاجات عابرة للحدود الوطنية وأعمال عنف وانقسامات دبلوماسية.

وبالانتقال إلى الجزء التفسيري من الفصل، يشير الكاتب إلى العوامل الرئيسية التي أدت إلى النجاح الجزئي في البداية ثم الفشل النهائي في تغيير النظام المعياري العالمي المهيمن الذي يعطي الأولوية للحق في حرية التعبير على حساب حماية الأديان من التشهير والإهانة. فعلى صعيد السياق المعياري، نجد أن منظمة التعاون الإسلامي عندما تناولت هذه القضية باعتبارها حارسًا مؤسسيًا لها على المستوى الدولي حاولت صياغة مبادرتها بطريقة تهدف إلى الارتباط بإطار حقوق الإنسان الحالي كإطار قيمي معياري داخل الأمم المتحدة، ولكن التعارض الصريح -حسب تفسير الكاتب- بين قيمة حماية الأديان أو "حماية الإسلام" وقيمة حرية التعبير أدى إلى فشل هذه المبادرة في

تحقيق أهدافها.

أما على صعيد العنصر الثاني المتعلق بسمات وخصائص الفاعلين واستراتيجياتهم، نجد أن الهوة بين منظمة التعاون الإسلامي وبين المحتجين في جميع أنحاء العالم الإسلامي (الذين تم تصويرهم بنهم إرهابيين ومخربين) تعد من أبرز أسباب الفشل، وكذلك الافتقار إلى أي تماسك وتنظيم حيث كانت الاحتجاجات في الغالب تعبيرات عفوية عن الغضب ومتفرقة جغرافيًا، بالإضافة إلى ربط محاولة منظمة التعاون للحد من الإسلاموفوبيا بمعاداة السامية. وأخيرًا يأتي عنصر العوامل والظروف الخارجية، وهنا يُرجِع الكاتب فشل هذه الحالة من المقاومة إلى أحداث الحادي عشر من سبتمبر وبداية موجة الحرب على الإرهاب التي جعلت الإسلام مرتبطا ذهنيا بالإرهاب والعنف مما مثل عائقًا أمام أي جهود للحد من ممارسات الكراهية للإسلام بشتى صورها.

الفصل السابع: الطغيان الجاهز؟ النضال من أجل نظام رقمي جديد

تنتشر الشبكات والاتصالات الرقمية الآن في كل مجالات الحياة، ونتيجة لذلك اكتسبت الإدارة السياسية للانترنت أهمية أيضًا، سواء باعتباره جزءًا من البنية التحتية التقنية أو باعتباره "فضاءً إلكترونيًا" يتم تشكيله بشكل تواصلي. ورغم أن أساليب "عدم التدخل " كان يُنظر إليها على أنها الطريقة الوحيدة للعمل في المراحل الأولى من التطور الرقمي، فإنها لا تحظى الآن سوى بعدد قليل جدًا من المؤيدين. إلا أن عملية إنشاء نظام رقمي جديد لا تزال بعيدة عن الاكتمال؛ حيث يعد تشكيل المعايير على شبكة الانترنت عملية متنازعا عليها. وفي هذا السياق، يتناول الفصل تطور محاولات السيطرة على الفضاء الرقمي سواء من قبل الدولة أو من قبل الفاعلين غير الدوليين من مقدمي الخدمات الرقمية، وفي المقابل رصد مراحل مقاومة هذه المحاولات. وبناءً على ذلك يصف الكاتب تطور النظام الرقمي الجديد، ودوافعه وخصائصه الرئيسية، ثم يربط ذلك بظهور الانشقاق ومظاهره المختلفة.

انطلاقًا من وهم الحياد الرقمي، يشير الكاتب إلى أن محاولات السيطرة على العالم الرقمي سواء على مستوى بنيته التحتية التقنية أو على مستوى المحتوى قائمة بين أطراف عدة، وأنه أيا من كان الذي سيفوز بذلك في النهاية فإن ما يهمنا حقًا هو ما سيؤول إليه الأمر من إغلاق بنية الاتصالات المفتوحة للانترنت.

ويعرف الكاتب بالطرف المنشق أو المعارض، والذي يتمثل هنا في المعارضة الرقمية ضد أشكال التغييرات المعيارية التي تستهدف البنية التحتية للانترنت، ويشير إلى خصوصية هذه الحالة من حيث الحكم على مقاومتها بالنجاح أو الفشل؛ حيث يؤكد على الطبيعة المختلفة للسياسة الرقمية التي ما زالت كمجال في بداياته وموضوعاته متنوعة ومتعددة للغاية، هذا فضلا عن أن الجانب الذي يتمتع بموارد أكبر، والذي يسعى إلى نقل الوضع الراهن للعالم غير الرقمي بشكل شامل قدر الإمكان إلى البيئات الرقمية، لا يتمتع بالقيادة والتخصص فى مجال التقانة مما جعله في مواجهة أنواع عديدة من المقاومة.

وبناءً على ما سبق ينتقل الكاتب إلى الجزء التفسيري لهذه الحالة الجدلية، ويبدأ -كعادة الكتاب- بالإطار المعياري، ويعيد الأمر إلى غياب المؤسسات القوية القادرة على اتخاذ قرارات وتنفيذها على المستوى العالمي نظرًا لأن طبيعة العالم الرقمي متجاوزة للحدود الوطنية، فالمنشقون الرقميون يفتقدون مثل هذه القوة خاصة على المستويات العليا المتعلقة بتنظيم الفضاء الإلكتروني. أما خصائص الفاعلين واستراتيجياتهم فتتمثل بشكل رئيسي في استغلال الساحات الرقمية لتكوين رأي عام مضاد سواء لسيطرة الدولة أو حتى الشركات التجارية الخاصة على الفضاء الرقمي. وفيما يتعلق بالظروف والمحيط الخارجي يتحدث الكاتب عن عاملين رئيسيين عملا على إتاحة فرصة أكبر للسيطرة الخارجية على الفضاء الرقمي: أولهما الهجمات الإرهابية التي تتخذ منها الدول ذريعة للمزيد من المراقبة، بالإضافة إلى عامل التطور التكنولوجي ذاته الذي قد يتيح بمستجداته فرصا أكبر لجمع البيانات وممارسة أعمال الحظر والحجب والمراقبة وغيرها.

الفصل الثامن- الهجرة تحت السيطرة: السيادة وحرية الحركة واستقرار النظام

يتناول هذا الفصل قضية الهجرة وحرية الحركة واللجوء، فعلى الرغم من تطور حركة البشر والسلع بين البلدان، إلا أنه ما زالت مسألة حرية الحركة تقع ضمن تحكم الدول؛ فمراقبة الحدود تعتبر تجسيدا لسيادة الدولة. وقد سعى القانون الدولي إلى التوفيق بين هذين المبدأين في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الذي منح للأفراد حرية التنقل بين الدول وأكد حق كل شخص في مغادرة أي دولة والدخول إلى أخرى، ورغم ذلك لا يقابل هذه الحقوق في أي مكان حق عام لدخول دولة أخرى، وبالتالي فإن التنقل عبر الحدود يظل خاضعًا لتقدير الحكومات وليس الأفراد، فالسيادة تتفوق على حرية الحركة، ومن ثم يكون الانتقال من بلد لآخر محاطا بالكثير من القيود واللوائح والقوانين ويستلزم إجراءات معقدة تتنافى في كثير من الأحيان مع الأبعاد الإنسانية خاصة فيما يتعلق بحاجة الأفراد إلى هذا النوع من حرية الحركة كاللاجئين أو النازحين أو من لهم أحوال مشابهة.

على صعيد الانشقاق والمقاومة نجد أن المنشقين متنوعون؛ فبعضهم منشق عن طريق الإسناد وهم المهاجرين غير الشرعيين، والفريق الآخر يضم كل المتعاطفين معهم من منظمات المجتمع المدني والمنظمات الدولية غير الحكومية وهؤلاء يعرفهم الكاتب بأنهم منشقون بالاختيار. وفي هذا السياق يبدأ الفصل بالوقوف عند المبدأين المعياريين في مسألة الهجرة، وهما السيادة وحرية الحركة، ثم يصف التطورات في التنظيم الدولي للهجرة، مع التركيز بشكل خاص على أوروبا وعلى الفترة منذ التسعينيات، ثم ينتقل إلى تناول الأشكال المختلفة لمقاومة هذا النظام، بدءًا من صور الانشقاق المحلي والعابر للحدود الوطنية، وصولا إلى معارضة جماعات حقوق الإنسان الدولية، وأخيرًا يناقش أسباب فشل المنشقين في إحداث تغيير حقيقي في النظام الحاكم.

فعلى صعيد الإطار المعياري هناك عدة قيم ومعايير واتجاهات متضاربة؛ حيث نجد على صعيد النظام الدولي أن الحق في حرية الحركة لا يحظى أبدًا بقيمة توازي قيمة مبدأ السيادة كمبدأ حاكم مهيمن، بالإضافة إلى أن مبدأ حرية الحركة لا تعارضه فقط الحكومات بل العديد من الفئات داخل المجتمعات وهذا يظهر بوضوح في أوروبا مع صعود اليمين، حتى على صعيد اللاجئين وكل من لديهم أسباب إنسانية في الانتقال من دولة لأخرى -وهذا أكثر ما يعول عليه المنشقون في مطالبهم- عادة ما ترفض الكثير من الدول التي من المفترض أن تستقبلهم أن تتحمل مسئولية المعاناة التي يتعرضون لها وتحملها للمتسبب الأصلي ويظل الحال على ما هو عليه ويظل الأمر حبيس القوى غير المتكافئة. وبالإنتقال إلى عنصر الفاعلين والاستراتيجيات نجد نفس الإشكال تقريبًا، فالمنشقون أو دعاة الحدود المفتوحة يفتقدون لقوة مكافئة للطرف الآخر خاصة وأنهم لا يملكون تنظيما مؤسسيا قويا يستطيع أن يجعل أهدافهم أمرًا واقعًا، وعند الحديث عن أية تسهيلات لتمتع الأفراد بحرية الحركة فإن المهاجرين غير الشرعيين دائمًا مستثنون من هذا، بالإضافة إلى أن الدول المستقبلة -وهي عادة دول الشمال أو دول العالم الغربي- لا تهتم كثيرًا بجعل حرية التنقل لمواطني دول العالم الثالث بشكل عام أولوية، وذلك لأسباب اقتصادية واجتماعية.

وبالنظر إلى العنصر الأخير المتعلق بالظروف الخارجية، نجد على الناحية الإيجابية أن التطور الرقمي أسهم في رفع صوت المحتجين على نظام الهجرة وحرية الحركة في العالم اليوم، ولكن على الصعيد الآخر فإن الظروف الخارجية أسهمت في إدخال تعديلات قانونية عززت من ضوابط الهجرة ورفعت من قيودها؛ من ذلك على سبيل المثال "أزمة اللجوء" في التسعينيات، التي شهدت عددا غير مسبوق ممن تقدموا بطلبات للحصول على اللجوء في أوروبا، هذا بالإضافة إلى صعود موجة الحرب على الإرهاب حيث تم وضع الإرهاب على قائمة التهديدات المرتبطة بالتحركات عبر الحدود.

وفي نهاية الكتاب يأتي الفصل الأخير **كخاتمة** تنظر لكل ما سبق طرحه من حالات بعدسة نظرية في محاولة للوصول إلى قواعد وأطر عامة لصور المقاومة والانشقاق وآلياتهما وأسباب

النجاح والفشل، وذلك بربط الدراسات العملية التي تم تناولها بالإطار النظرى التحليلي الذي تم عرضه في الفصل الأول من الكتاب.

خاتمة:

قدم هذا الكتاب مجموعة جيدة من الدراسات التي تمثل في مجموعها أمثلة مختلفة لحالات مقاومة تُعارِض الكثير من أسس النظام الدولي الحالي، وتسعى إما لإحداث تغييرات جذرية في مرتكزاته الأساسية والقيم التي أُسِّس عليها أو لإدخال تعديلات على ما هو قائم بالفعل. وبالنظر إلى مجموع أهداف هذه النماذج، نجد أن البعد الأخلاقي والإنساني يظهر فيها بوضوح، ولكن على صعيد النظام الدولي فإن ما يظهر بجلاء هو أن طبيعة النظام الدولي الحالي ومنظماته وشعاراته ما زالت تعتمد في الواقع على مفهوم القوة والمصلحة، في حين أن ما يتعلق بحقوق الإنسان والأبعاد الأخلاقية لم يتعدى تأثيره سوى إضفاء صورة من صور الشرعية على طبيعة هذا النظام ومؤسساته. ولقد قام الكتاب بعرض جيد لهذه الصورة خاصة بتركيزه على مركزية المعايير في عملية التغيير، ولكن النموذج الغربي ومقولاته وإن كانت محل نقد في صفحات الكتاب إلا أننا نجد أن لها سطوة تحيزية عند المؤلفين بشكل كبير؛ ويظهر هذا بقوة عند تكرار الحديث عن الإرهاب كعامل ثابت في إفشال الكثير من عمليات المقاومة دون الوقوف عند حقيقته وصوره المتنوعة وبيان كيف أنه جزء من حرب فكرية بصناعة غربية.

وفي الختام نقول أننا في عالمنا الإسلامي نحتاج، خاصة في ظل مرور الأمة بمرحلة مفصلية، إلى إثراء تصوراتنا عن المقاومة وآليات نجاحها والمؤثرات الخارجية التي قد تؤثر عليها سلبًا أو إيجابًا، والعمل على بناء نماذجنا الذاتية عبر الاستفادة من تجارب الآخرين وذلك على المستوى النظري والعملي على السواء.

كتاب «حماس والجهاد والشرعية الشعبية: إعادة تفسير المقاومة في فلسطين»*

عرض: يارا عبد الجواد**

مقدمة:

يُعَدُّ هذا الكتاب أحد إسهامات المدرسة النقدية في العلاقات الدولية في دراسة حركة المقاومة الإسلامية "حماس" حيث يقوم الكتاب بدراسة معمقة لأنشطة الحركة، وذلك في إطار تسليط الضوء على مفاهيم المقاومة والجهاد لدى حماس، من حيث سعة الوعاء التفسيري والتطبيقي حسب مقتضيات الواقع مع الأخذ في الاعتبار الرأي العام الشعبي الفلسطيني، ومن هنا يركِّز الكتاب على الأبعاد الاجتماعية والثقافية للحركة وتجذُّرها في المجتمع الفلسطيني في محاولة لمعرفة أسباب الدعم الشعبي الكبير للحركة، على الرغم من صورتها العالمية المشوهة والموصومة بالإرهاب، وعلى الرغم من أن هذا الدعم يحمِّل الشعب أعباء وتكاليف دولية.

وفي هذا الإطار يسعى الكتاب بالوقوف على طبيعة الحركة وأنشطتها المتنوِّعة غير المقتصرة على الجوانب العسكرية والسياسية، وتقديم صورة إنسانية لحركة حماس في مقابل الصورة العالمية عنها والمنطلقة من السرديَّة الغربيَّة التي تضعها على قائمة الإرهاب، وذلك بهدف بيان أن الحركة لديها مرونة عالية وعقلانية -حسْب تعبير الكاتب- ومن ثم فإن الكيان الإسرائيلي والغرب بشكل عام يمكنه التكيُّف مع وجودها والتعايش السلمي معها وذلك في إطار حلِّ الدولتين، وتعرض هذه الورقة الكتاب الذي ينقسم إلى ستة فصول وخاتمة، وفيما يلي عرض لتلك الفصول.

الاستشراق، الإسلام، والتشدُّد في عالم ما بعد ١١ سبتمبر

يقوم الفصل ابتداءً بتحليل الخطاب الغربي السائد عن حماس والإسلاموية والنشاط المسلَّح بشكل عام، مع بيان تأثُّره بشكل كبير بالدراسات الاستشراقية التقليدية التي تعمل على تنميط الإسلام والحركات الإسلامية وتصويرها في رموز معيَّنة، وذلك في سياق "الحرب على الإرهاب".

يبدأ الفصل بنقد المقاربات الاستشراقية والأمنية تجاه حماس والإسلاموية والإرهاب، وبيان المغالطات والتناقضات وسطحية المعرفة التي يقع فيها المستشرقون وداعموهم، ويذكر الكاتب هنا مجموعة من المستشرقين، فضلًا عن طروحات فوكوياما وصموئيل هنتنجتون التي تَصُبُّ في نفس الهدف المتعلِّق بربط الإسلام والإسلاميِّين بالرجعية واللاعقلانية في مقابل الغرب العلماني الحداثي التنويري، ثم ينتقل لتقديم بعض الخطابات البديلة المستندة إلى دراسات ما بعد الاستعمار والنظرية النقدية والنهج النقدي لدراسات الإرهاب؛ وبيان هيمنة السردية الغربية والإسرائيلية على دراسة "الإرهاب"، وفي هذا السياق يستدعي "حماس" كنموذج يكشف مغالطات المنهج الاستشراقي التقليدي في دراسة الإسلام السياسي، وعدم قدرته على إدراك الحقائق التي يظهرها الواقع، خاصة في ظلِّ مرونة الحركة وقدرتها على التطور والانفتاح على العالم الخارجي مع الحصول على قاعدة شعبية كبيرة داعمة.

وبناءً على ذلك يقوم هذا العمل البحثي على مواجهة الأنماط التقليدية للسرديات الغربية والإسرائيلية فيما يتعلَّق بقضية فلسطين، وهذا من خلال التركيز على رؤية مؤيِّدي حماس والمتعاطفين معها وممثِّليها على مستوى المجتمع المحلي، بعيدًا عن الخطابات السائدة المتعلِّقة "بالحرب على الإرهاب"، وذلك انطلاقًا من تصوُّر الكاتب لحماس كحركة شعبية محلية ذات دوافع شعبية تهتم في المقام الأول بأهداف مرحلية زمنية، تسعى

* Tristan Dunnig, Hamas, jihad and popular legitimacy: Reinterpreting Resistance in Palestine, (London: Routledge, 2016).

** باحثة في العلوم السياسية.

إلى تحسين الظروف المعيشيَّة للمجتمع الفلسطيني، وهي غير متجانسة بطبيعتها وتدعمها شرائح كبيرة ومتنوِّعة من المجتمع الفلسطيني، فحماس حركة سياسية، وهى حركة اجتماعية أيضًا وهي فاعل عسكري وهي أيديولوجيا أيضًا، وفي هذا السياق تبحث هذه الدراسة في هذه الجوانب المتعدِّدة للحركة وتضعها في سياقها وتحلِّلها ضمن إطار مفاهيم المقاومة والجهاد.

الجهاد الأصغر: المقاومة المسلحة

انطلاقًا من نقد الربط الترادفي السائد بين حماس والعنف السياسي، يؤكِّد الكاتب على ضرورة فهم المقاومة المسلحة لحماس في سياق الاحتلال الإسرائيلي وما يفرضه على الشعب الفلسطيني من معاناة، فالمقاومة المسلَّحة بهذا المعنى هي نتيجة طبيعية لوجود كيان محتل يجب العمل على دفعه، وذلك في ظلِّ ما يسْعى إليه الكاتب في هذا الفصل من بيان فاعلية المقاومة المسلَّحة لحركة حماس ضدَّ الكيان الإسرائيلي، والتي كان من ثمارها انسحاب القوات الإسرائيلية من قطاع غزة من جانب واحد عام ٢٠٠٥، في هذا السياق يقوم الكاتب بسرد تاريخي تحليلي مختصر للأحداث والإرهاصات التي أحاطت بالمقاومة المسلَّحة وحفَّزتها منذ ١٩٦٧ مرورًا باتفاقية أوسلو ثم الانتفاضة الأولى والثانية، مع الإشارة إلى الصدع الحاصل في الداخل الفلسطيني بين الضفة الغربية وقطاع غزة من ناحية، وبين السلطة الفلسطينية وحركة فتح من جانب وحركة حماس من جانب آخر، وكذلك بيان طبيعة العلاقة الخدمية بين السلطة الفلسطينية وبين الكيان الإسرائيلي، وذلك بالتوازي مع عرض نماذج من الشعب الفلسطيني وتصوره عن الاحتلال وإيمانه بضرورة المقاومة المسلَّحة في محاولة لبيان الحاضنة الاجتماعية التي لا تنفكُّ عنها حركة حماس.

ينتقل الكاتب لتتبُّع نشأة حركة حماس كجزء من جماعة الإخوان المسلمين في فلسطين، وذلك في سياق الانتفاضة الأولى وتزايُد النشاط القتالي منذ أوائل التسعينيَّات، ثم تأسيس الذراع العسكري للحركة "كتائب الشهيد عز الدين القسام" في ١٩٩٢. وهنا يتناول الكتاب الأهداف التي يخدمها الجهاد المسلح لحركة المقاومة "حماس"، وفي هذا الإطار يقول:

"تخدم المقاومة المسلحة والعنف السياسي مجموعة متنوعة من الأغراض، بما في ذلك الدعاية والردع، ولكنها مدفوعة أيضًا بدوافع عاطفية أكثر، مثل الانتقام واليأس والتمكين. المقاومة العنيفة إذن هي: (١) مدفوعة باعتقاد واسع النطاق بين الفلسطينيين بفاعليَّتها؛ (٢) أداة فعَّالة للدعاية والانتقام والإصلاح والردع؛ (٣) وسيلة غير برلمانية للتقدم السياسي في ظل غياب الفرص المؤسسية؛ و(٤) نتيجة التنافس بين الفصائل والمنافسة على الدعم الشعبي، وبالتالي فإن العنف السياسي من الممكن أن يعمل على تعزيز المصداقية المحلية، في حين يعمل في الوقت نفسه على تقويض شرعية سلطة الوضع الراهن وسياساتها. فالعنف السياسي ضد إسرائيل، على سبيل المثال، يسلط الضوء على استياء الفلسطينيِّين من الاحتلال الإسرائيلي وعدم شرعيته".

وبناءً على هذا الطرح يؤكِّد الكتاب على أن العنف السياسي لحركة حماس والجهاد المسلح هو وسيلة لتحقيق مكاسب على المستوى السياسي والاجتماعي وليس غاية في حَدِّ ذاته كما هو التصوُّر التي تروج له السردية الإسرائيلية.

التضحية: الصمود والرمزية

يناقش هذا الفصل مركزية التضحية والصمود والاستشهاد بالنسبة للمجتمع الفلسطيني، ولدى حماس بشكل خاص، حيث يقوم باستكشاف التداعيات الاجتماعية والسياسية والنفسية والرمزية لمفهوم التضحية والاستشهاد المصاحبة لمفهوم الجهاد المسلح، وفي هذا الإطار يقوم الكاتب بنقد التصوُّر النمطي الغربي عن الشهداء وتفسير أفعالهم البطولية إمَّا بدوافع شهوانية تتعلَّق بجزائهم الأخروي بالزواج من حور عين، أو بتفسيرات تتعلَّق بإشكاليات نفسية أو عقلية، ويبيِّن الكاتب أن دحض هذا التصوُّر يكون بوضع الأمر في سياق وجود كيان محتلٍّ ومن ثم تكون هذه الأفعال وسيلة للمقاومة في إطار معركة غير متكافئة من حيث القوة المادية، كما أن غالبية من قاموا بالعمليات الاستشهادية في الانتفاضة الثانية على سبيل المثال كانوا على مستوى تعليمي عال، وفي هذا السياق يؤكِّد الكاتب على أن الشهادة فعل اجتماعي في المقام الأول، وبالتالي

فإن حماس تستهدف من خلال هذه التضحيات تحقيق مستوى من الردع.

وممَّا تجب الإشارة إليه في هذا الصدد أن الكاتب -على هذا النحو- ينزع عن الفعل المقاوم -في هذا السياق- الخاص بـ"العمليات الاستشهادية" على وجه الخصوص أيَّ بُعْدٍ عقيدي أو إيماني، مؤكِّدًا على أن ما يسمِّيه بـ"هجمات التضحية بالنفس" مدفوعة باعتبارات سياسية ومنفعة عملية بالنسبة لحماس، ويستند في ذلك إلى ما جاء على لسان بعض قادة حماس في تأكيدهم على أن مثل هذه العمليات لها أهداف سياسية ولكن الإشكال يكْمن في استدلال الكاتب، فوجود الأهداف السياسية لا ينفي الأبعاد الإيمانية العقيدية التي تصنع مثل هذه النماذج وهو ما يثبته الواقع الفلسطيني بشكل جلي.

وتحت مظلَّة التضحية أيضًا يسلِّط الكاتب الضوء على فكرة "الصمود" أو الصبر كقيمة إسلامية عُليا تتمثَّل في الفلسطينيّين بشكل كبير، حيث يطرحها في سياق الحديث عن حرب إسرائيل على غزة ٢٠٠٨-٢٠٠٩ وكيف مثَّل فيها صمود أهل غزة -في ظل حرب غير متكافئة- نصرًا في حَدِّ ذاته.

وأخيرًا تأتي قضية الأسرى والرؤية الفلسطينية المجتمعيَّة للأسير باعتباره بطلًا حتى إن عائلات الأسرى يتمتَّعون بحفاوة اجتماعية خاصة، فالأَسْرُ ليس إدانةً عند الفلسطينيّين بل علامة شرف وفخر، وفي هذا السياق يستدْعي الكاتب صفقة التبادل التي قامت بها حماس عام ٢٠١١ في مقابل تسليم جلعاد شاليط الذي تَمَّ أسره عام ٢٠٠٦ والذي على إثره تعرَّضت حماس لضغط كبير، بل تعرَّض قطاع غزة لهجمة إسرائيلية عنيفة، مشيرًا إلى ما آلَ إليه "صمود" حماس أمام الضغوط، بالإضافة إلى حنكتها السياسية التي تتمتَّع بها، والانضباط الأخلاقي والوفاء بالوعد في المفاوضات من تحقيقها مكاسب كبيرة على مستويات مختلفة تمثَّلت في إطلاق سراح ١٠٠٠ أسير فلسطيني منهم حوالي ٢٨٠ عليهم أحكام بالسجن مدى الحياة، هذا فضلًا عن اتِّساع رُقعة الدعم الشعبي لها بشكل فارق.

من المتفجِّرات إلى صناديق الاقتراع: الجهاد السياسي

وفي ظلِّ تتبُّع الكاتب لتطوُّر حركة حماس ونموِّها عبر السنوات يتناول في هذا الجزء رؤية حماس للمشاركة السياسية وذلك عبر رصد تطور حماس من كونها جهة فاعلة سياسيًّا خارج البرلمان، وذلك من خلال التعبير عن نفسها من خلال الجمعيَّات والنقابات المهنية، إلى مشاركتها النهائية في الانتخابات البلدية والتشريعية منذ عام ٢٠٠٤، ثم يناقش مفاهيم حماس للسياسة، ومبرِّرات مشاركتها في العملية الانتخابية بعد أن كانت تتَّخذ موقفًا معاكسًا في انتخابات ١٩٩٦ حيث لم تُرِدْ وقتَها إضْفاء أي شرعية على اتفاقية أوسلو، وهو ما تغيَّر بعد الانتفاضة الثانية التي كانت بمثابة دليلٍ على موت اتفاقية أوسلو بالنسبة لحماس، بالإضافة إلى ذلك يناقش الكاتب الجدل بين مفهوم المقاومة من جهة والنضال السياسي من جهة أخرى، وكذلك وجهات نظر الحركة حول الديمقراطية.

انطلاقًا من الخلفية الإسلامية الأيديولوجية لحركة حماس وهدفها في مقاومة الاحتلال وبناء دولة فلسطينية إسلامية، فإن السياسة بالنسبة لها تُعَدُّ شكلًا من أشكال الجهاد، والمشاركة السياسية هي في الواقع طريق مكمِّل لتحقيق أهداف الحركة وفرض حمايةٍ مؤسَّسية للمقاومة.

بناءً على ذلك، يتناول الفصل تأثيرَ مشاركة حماس في السياسة المؤسَّسية من خلال الوقوف على نجاحها في الانتخابات البلدية ٢٠٠٤/٢٠٠٥ وفوزها اللاحق في انتخابات المجلس التشريعي الفلسطيني عام ٢٠٠٦، وإرهاصات هذا الفوز ومآلاته من حيث الوقوف على كيفية تمكُّن حماس من جذْب قاعدةٍ سياسيةٍ أوسع للتصويت لها خارج نطاق جمهورها "الأساسي" التقليدي، وذلك في إطار وضعها في مقارنة مع حركة "فتح" من حيث وجود الرؤية الواضحة، والنهج المستقل عن الكيان الإسرائيلي ومعاونيه من الدول الغربية. ثم مناقشة قدرة حماس على الموازنة بين التركيز على الأجندة السياسية والإجتماعية من ناحية وبين النضال المسلح من ناحية أخرى.

وأخيرًا يشير الكاتب إلى النموذج الديمقراطي الذي قدَّمته حماس المستمد من نموذج الخلافة الراشدة، والقائم على مبدأ

الشورى والإجماع، ويهدف إلى تحقيق العدالة، ثم يعرض العوامل التي ساهمتْ في تمكينها من استخدام السياسة الانتخابية لتعزيز قوتها وتعزيز شرعيتها ومقاومة الاحتلال والمساعدة في هندسة التغيير الاجتماعي، خاصة في مقابل حركة فتح، وفي هذا السياق يشير الكاتب إلى أن التوجُّه الإسلامي لحماس ووحدة قادتها وتنظيمها المتفوق ودورها الاجتماعي الفعَّال الذي يخدم كافَّة الأطياف، وليس المسلمين وحدهم، والتركيز في برنامجها الانتخابي على مفهومي "التغيير والإصلاح" وقدرتها على تقديم مرشَّحين على قدرٍ عالٍ من الكفاءة سمحتْ لها بالحصول على أصوات فئات مختلفة ومتباينة في نابلس ورام الله وجنين، حتى إن بعض من صوَّتوا لصالحها لا يدعمون الحركة ذاتها، كما ساهم ذلك بتمكين حماس من وضع شروط النقاش خلال الحملات الانتخابية، حيث كان مرشَّحُو حماس يمتلكون في كثير من الأحيان رأس مال اجتماعي ورمزي وأخلاقي أكبر من نظرائهم من فتح. وهذا بدوره يُترجم إلى رأس مال سياسي في صناديق الاقتراع، خاصة على المستوى المحلي، حيث سَعَتْ حماسُ إلى تقديم نفسها على أنها كيان سياسي مسؤول وليس فقط حركة مقاومة مسلَّحة.

وأخيرًا، يتناول هذا الفصل نتائج انتخابات حماس المفاجئة للحكومة في عام ٢٠٠٦، بما في ذلك تأثير العقوبات الدولية ضدَّ الحركة والنهج الغربي والإسرائيلي العنصري في التعامل مع حماس بعد فوزها، وازدواجية فتح في التعامل مع حماس ككيان سياسي شرعي، حتى قام المجلس التشريعي السابق الذي تُهيمن عليه فتح بإصدار سلسلة من القوانين الجديدة التي تمنح صلاحيات الطوارئ والسيطرة على قوات الأمن للرئيس محمود عباس قبل دخول المجلس التشريعي الجديد الذي تُهيمن عليه حماس حيِّز التنفيذ، وهو ما دفع حماس إلى إنشاء قوة تنفيذية خاصة بها. وقد آلَ هذا النهج إلى الانقسام النهائي بين الضفة الغربية وغزة في يونيو/حزيران ٢٠٠٧.

يُشير الكاتب أيضًا إلى سعي حماس للفصل بين الحركة وبين الحكومة، وهو ما تُرجم من خلال استقالة أعضاء الحكومة من أيِّ أدوارٍ قياديةٍ داخل الحركة قبل دخول الحكومة. وهنا يؤكِّد الكاتب على أن حكومة حماس في غزة قد أثبتت قدرتها على حفظ الأمن وفرض النظام على الرغم ممَّا تُعانية من عزلة سياسية وحصار، وهو ما يتَّسق مع رؤية الحركة بأن الحكم الجيِّد هو صورة من صور الجهاد والمقاومة.

بناءً على ما سبق طرحُه، يستدلُّ الكاتب من خلال استقراء التحوُّلات التي مَرَّتْ بها حماس فيما يتعلَّق بعلاقة السياسة بالمقاومة على مرونة حماس وقدرتها على فقه الواقع والتفاعل مع متغيِّراته بحكمة، والموازنة بين الثابت والمتغيِّر في أهدافها المنبعثة من رؤيتها الإسلامية، ويستقي الكاتب من هذا أن الديمقراطية والحداثة لا تحتاجان بالضرورة إلى تعريفهما بمصطلحات غربية علمانية، بل هناك نماذج أخرى لديها خلفيَّات ثقافية مختلفة تقدِّم بدائل لا بدَّ من أخذها في الاعتبار.

العمل الخيري: المجتمع، والجهاد المدني

استكمالًا لصور الجهاد المتعدِّدة التي يتناولها الكتاب؛ يقف هذا الفصل على الجهاد ببعده الاجتماعي، فانطلاقًا من "الصمود" كأيديولوجية يؤمن بها الفلسطيني ويتصرَّف بناءً عليها، يأتي التركيز على التنمية المجتمعية وبناء المؤسسات لتحقيق الاكتفاء الذاتي وتقليل الاعتماد على الاحتلال كصورة من صور المقاومة التي تتبنَّاها حركة حماس انطلاقًا من شمولية الرؤية الإسلامية وسَعة مفهوم الجهاد في الإسلام، ومن هنا تنخرط حماس والفصائل التابعة لها في نوعين متباينين ولكن متشابكين بعمق من العمل الاجتماعي: (أ) "الدعوة إلى الإسلام" -وهو موضوع الفصل السادس- و(ب) بناء المؤسسات التنموية التي تهدف إلى تحسين الظروف المعيشية اليومية والفرص المستقبلية للفلسطينيِّين، وهو ما ركَّز عليه هذا الفصل.

يبدأ الفصل الخامس بدراسة الفرضية الغربية الإسرائيلية التي كثيرًا ما يتمُّ الاستشهاد بها، وهي أن المؤسسات الخيرية التابعة لحماس تهدف إلى تجنيد الإرهابيِّين، وذلك مع إغْفال حقيقة وجود احتلال على الأراضي الفلسطينية، ودحضًا لهذه الفرضية يبحث الكاتب عن مدى ارتباط المؤسسات الاجتماعية الإسلامية في الأراضي الفلسطينية بحركة حماس أو سيطرتها عليها، حيث يشير إلى أن حماس لا تسيطر على كل المؤسسات

الخيرية في فلسطين وأن المؤسسات التابعة لها فهي مستقلة من الناحية التنظيمية عن الجناح العسكري والسياسي لحماس، هذا فضلًا عن أن الغالبية العظمى من المؤسسات الاجتماعية الإسلامية مسجلة لدى السلطة الفلسطينية أو سلطات الاحتلال، ويحصل بعضها على تمويل خارجي من بعض الدول بما فيها بعض الدول الغربية والأمم المتحدة.

بالإضافة إلى ذلك، يضع هذا الفصل العمل الاجتماعي الإسلامي في الأراضي الفلسطينية في سياقه من حيث السوابق التاريخية والظروف الاجتماعية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية السائدة التي أَدَّتْ إليه والتي استلزمتْ وجودَ مثلَ هذه المؤسسات والتي لا تنفكُّ بطبيعة الحال عن وجود الاحتلال وسياساته القمعيَّة وعزْل الأراضي الفلسطينية بعضها عن بعض وتزايُد الانفصال بين القيادة الفلسطينية الرسمية والمجتمع، في مقابل ما يقدِّمه ممثِّلو حماس من مساعي خيرية تَسُدُّ بعض حاجات المجتمع المفقودة نتيجة للظروف المحيطة، وفي سياق دراسة الكاتب لتاريخ العمل المجتمعي في فلسطين يشير إلى أن الأمر لم يبدأ مع حماس، بل إن العمل المجتمعي كان محورَ اهتمام سلف حماس، أي "الإخوان المسلمين"، كما أنه يدرس النقطة المرجعية الإسلامية لهذه المساعي وارتباطها بمفهوم الزكاة أو الصدقات، مؤكِّدًا على أن الأعمال الخيرية والعمل التطوعي هما عنصران أساسيَّان في الفلسفة الإسلامية.

وينقسم العمل الاجتماعي والعمل الخيري الإسلامي في الأراضي الفلسطينية بين الأعمال الخيرية التقليدية التي تنطوي على توفير السلع والخدمات وبين استراتيجية أكثرَ اتِّساعًا تركِّز على بناء المؤسسات وتنمية المجتمع والتعليم المهني. ومع ذلك، على مدار الانتفاضة الثانية، كان العمل الاجتماعي أكثر تركيزًا على إدارة الأزمات في غياب الأمن منه على بناء المؤسسات، وفي هذا الإطار يتناول الكاتب ذكرَ بعض الأنشطة التي قامتْ بها المؤسسات الاجتماعية الإسلامية، وخاصة المنظمات الرئيسية مثل المجمع الإسلامي، والجمعية الإسلامية، بالإضافة إلى محورية دور المساجد كمحاضن تربوية وتعليمية، هذا فضلًا عن الوقوف عند دور الأعمال الخيرية طوال الانتفاضة الثانية، وتجلِّي التضامن المجتمعي كمبدأ أساسي من مبادئ الإسلام.

الجهاد الفكري: التعليم والقيم الإسلامية

يعود الفصل السادس والأخير إلى مناقشة تصوُّرات حماس للإسلام باعتباره المرجع والأساس الذي يربط بين أنشطة الحركة متعدِّدة الأوجُه، مبيِّنًا أن تأسيس مجتمع قائم على الأسس الإسلامية يُعَدُّ من أسْمى أهداف الحركة، على هذا الأساس فإن الدعوة وفقًا لحماس تُعَدُّ أحدَ أعلى أشكال الجهاد، في هذا السياق ينظر الكاتب في السوابق التاريخية التي أثَّرت على رؤية حماس للإسلام والجهاد، والتي تتعلَّق بسقوط الدولة العثمانية وبروز نجم التنوير الغربي وحالة الصراع الفكري التي عاشتْها المجتمعات الإسلامية آنذاك، وما تبع ذلك من صحوة إسلامية جاء على إثرها نشأة جماعة الإخوان المسلمين، ثم حماس وجناحها العسكري (كتائب الشهيد عزالدين القسام)، وذلك بالتوازي مع التغيُّرات والتحوُّلات السياسية في المنطقة في ذلك الوقت، ومن هنا ينظر الكاتب في هذا المحيط الخارجي الذي أثَّر في رؤية حماس للإسلام والجهاد مع الأخذ في الاعتبار مركزية الإسلام بالنسبة للمجتمع الفلسطيني ككل، مشيرًا إلى تركيز حماس على الجهاد الفكري والدعوة وبث القيم الإسلامية في المجتمع عقب الانتفاضة الأولى.

ينتقل الكاتب لمناقشة ما يرى أنه ميل بين المستشرقين والإسلاميين على حد سواء إلى استثناء الإسلام من بين الأديان، حيث يرى كلٌّ من مؤيِّدي ومنتقدي الفكر الإسلامي أنه فريد من نوعه بين الأديان بقدْر ما يزعم أنه يقدِّم نظامًا عقائديًّا شاملًا ينظم الحالة الإنسانية بأكملها (منهج حياة)، فالمستشرقون يردِّدون هذه الفكرة لاستنتاج أن الإسلام يتمُّ تعريفه بخصائص ثابتة وغير قابلة للتغيير يعود تاريخها إلى زمن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى هذا النحو يرى المستشرقون أن الفكر الإسلامي هو قوة قديمة وقمعية وراكدة، وأن الشريعة الإسلامية لا تصلح لهذا الزمن، ليطرح الكاتب سؤالًا حول دقَّة هذه الحجج وفشلها في تفسير مدى تعقيد وتطوُّر العالم الإسلامي عبر القرون، وتجاهلها للتفسيرات والتطبيقات المتعدِّدة للفكر الإسلامي في جميع أنحاء العالم الإسلامي الممتدِّ

من إندونيسيا إلى المغرب، ومن ثم فهو يريد بيان أن الإسلام له قواعده وقيمه وأُسسه العامة التي لا تتغيَّر، ثم تأتي مساحات الاجتهاد ضمن هذا الإطار لتمنح الشريعة مرونة التفاعل مع مستجدَّات الواقع، وهو ما تقدِّم له حماس نموذجًا.

وعلى هذا النحو يناقش الكاتب تفسير حماس وتطبيقها للشريعة الإسلامية والالتزام بميثاقها، ممَّا يكشف أن المبادئ الأيديولوجية للحركة، مثل الجهاد والمقاومة، هي مفاهيم مرنة ومتطوِّرة وقابلة للتغيير، ويذكر هنا الكاتب على سبيل المثال قبول حماس بدولة فلسطينية على حدود ١٩٦٧ دون اعتراف بالكيان الصهيوني كهدف مرحلي كدليل على مرونة الحركة وعمليتها في التعامل مع معطيات الواقع.

يعود الكاتب مرة أخرى للتركيز على اهتمام حماس بالبناء الفكري القيمي، انطلاقًا من رؤية إسلامية ترى أن التجديد المجتمعي يبدأ من الفرد، وهذا يبدأ بالتربية الإسلامية، وبناء على ذلك، فإن التعليم يحظى بأولوية لدى حماس، سواء من حيث تطبيقاته الأخلاقية أو العملية، وسواء كان ذلك التعليم في المسجد أو في الفصول الدراسية، فلا بدَّ أن يؤدِّي إلى نشر القيم وتشجيع السلوك القويم، وللمساجد على وجه الخصوص مركزية في العملية التعليمية فهو مؤسسة اجتماعية متكاملة يمارس فيه التعلُّم بمختلف علومه، وتُناقش فيه شتَّى الأمور، سياسيةً كانت أو اقتصاديةً أو غيرها. ولحماس إسهام مؤسَّسي اضح في رفع مستوى التعليم وتعزيزه، وتُعتبر الجامعة الإسلامية في غزة، التي تأسَّست عام ١٩٧٨، المؤسَّسة الأكثر تأثيرًا المرتبطة بحركة حماس من حيث التغلغُل الاجتماعي في الأراضي الفلسطينية.

وبناءً على هذا الطرح، يرى الكاتب أن أهمية الإسلام في الأراضي الفلسطينية تسْبق حماس بزمن طويل، وسوف تستمر حتى لو اختفت، ولذلك يقول: "المرونة المستمرَّة التي يتمتَّع بها هذا النوع من السياسة الإسلامية يشكِّل ضرورة أساسية إذا كان للسلام أن يحلَّ في فلسطين وإسرائيل".

في النهاية يأتي الفصل الأخير كخاتمة تجمع وتدرس الآثار المترتبة على تطور حماس وتأثيراتها المترتّبة على الساحة السياسية الفلسطينية، كما تنظر لتداعيات التطوُّر المستمرّ لحماس في سياق "الربيع العربي"، لا سيما فيما يتعلَّق بصعود وسقوط جماعة الإخوان المسلمين في مصر؛ والصراع الدوري في غزة، خاصة في عامي ٢٠١٢ و٢٠١٤؛ وصعود تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش) وفروعه الإقليمية المفترضة.

خاتمة:

قدَّم هذا الكتاب إسهامًا هامًّا للمدرسة النقدية في تسليط الضوء على واحدة من أبرز نماذج الحركات الإسلامية التي يحيط بها الكثير من الجدل المحمَّل بتحيُّزات غربية عنصرية مزدوجة المعايير نظرًا لجذورها الإسلامية كحركة مقاومة ضدَّ احتلال يحظي بتأييد غربي واسع، ولهذا فإن ممَّا يحمد للكاتب ما قام به مساءلة لهذه التصوُّرات السائدة وتصحيح الكثير من المفاهيم المغلوطة التي تتبنَّاها السردية الغربية عن الشريعة الإسلامية بشكل عام وعن الحركات الإسلامية بشكل خاص، وعلى رأسها حماس، وإبراز سعة مفهوم المقاومة والجهاد، وعلى الرغم من هذا الجهد المشكور فإنه في سعيه لتقديم صورة جيدة عن حماس وقدراتها وسعة فقهها للواقع ومعطياته، يرى أن بقاء حماس وقوتها تكْمن في تطوُّرها الذي جعلها أكثر براجماتية وعملية، وبالتالي يمكن في نهاية الأمر أن تقبل بوجود إسرائيل وتتعايش معها، وهذا الطرح -المتأثِّر بالخلفية الغربية للكاتب، والذي قد يكون له ما يبرِّره جزئيًّا من حالة انغماس الحركة في الحياة السياسية في السنوات الأخيرة- يتنافى بشكل صريح مع ما ذكره عن رؤية الحركة باعتبارها حركة مقاومة "إسلامية" تهدف إلى تحرير كافة الأراضي الفلسطينية وانعكاسات ذلك الواضحة على أرض الواقع، ولعلَّ ما نُعايشه اليوم ضمن أحداث معركة طوفان الأقصى أكبر دليل على ذلك؛ فقد كشف هشاشة كل مزاعم إمكانية التفاوض والتعايش مع الاحتلال، وأعلن استمرار تمسُّك حماس بهدفها الأصيل في الدفاع عن حق الفلسطينيّين في أرضهم، رافعةً شعار المقاومة حتى التحرير، مما يمهِّد الطريق للمزيد من الجهد البحثي لاستشراف مستقبل المقاومة وفقًا لمعطيات الواقع الجديد.